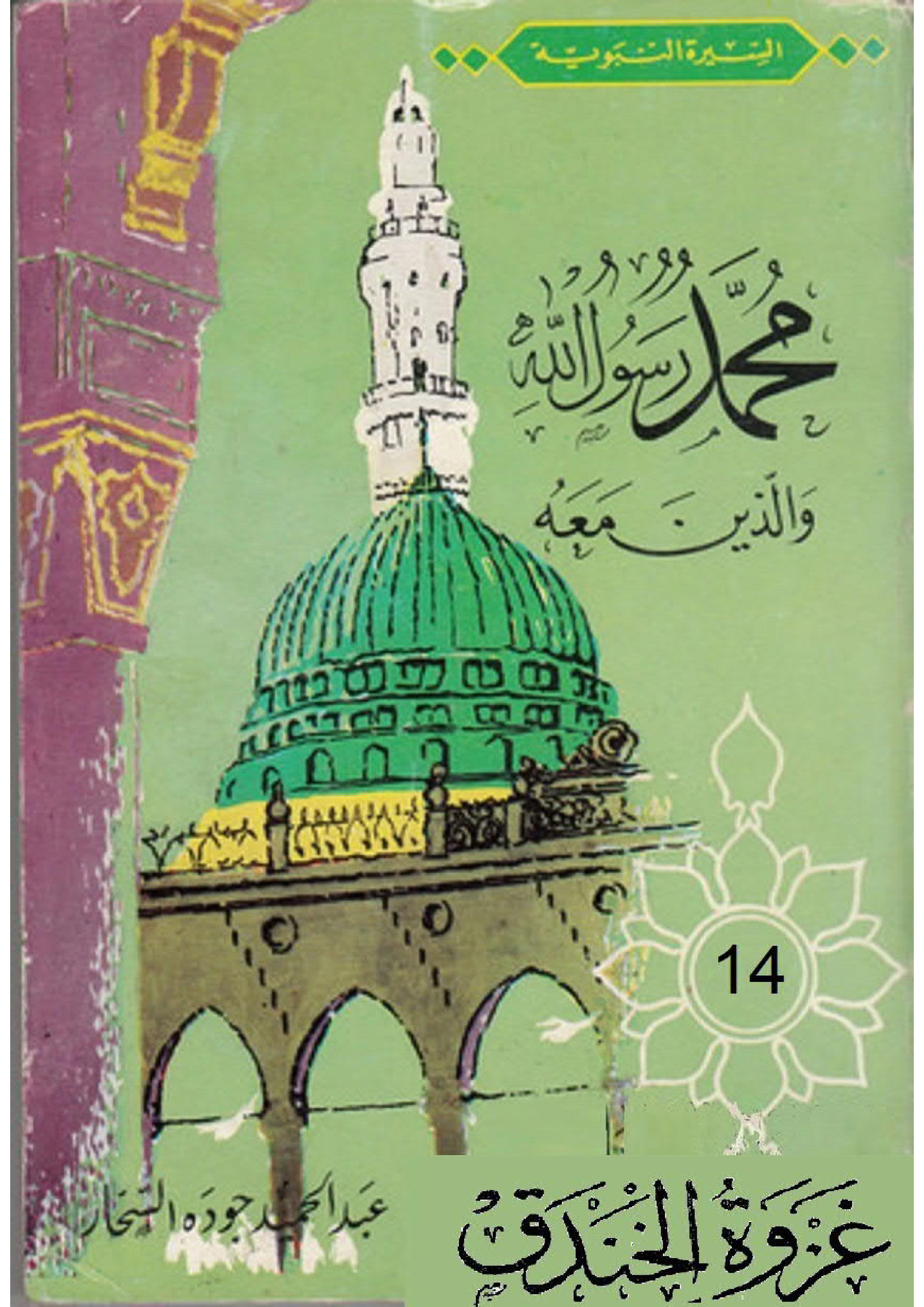

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
14
عبد الحميد جوده السحار
غزوة الخندق

السيرة النبوية



غزوة الخندق

عبد الحميد جودة السحار

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما * من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا * ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما * ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ .

(قرآن كريم)

١

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد ذهب إلى بنى النضير فى نفر من أصحابه ، وكان بنو النضير قد أضمروا الغدر به وهموا بإلقاء صخرة عليه وقالوا فيما بينهم :

ـــ نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة فنبيعهم من قريش .

وبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما هموا به فرجع ، فبينا بنو النضير يتهيأون لإلقاء الحجر إذ جاء رجل من اليهود من المدينة فقال لهم :

ـــ ما تريدون ؟

ـــ قتل محمد وأسر الذين معه .

ـــ أين محمد ؟

ـــ هذا محمد .

ـــ والله لقد تركت محمدا داخل المدينة .

فأسقط فى أيديهم وقالوا :

ـــ قد أُخبر بأمرنا .

فأرسل إليهم محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدى فلا تساكنونى بها ، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر .

فسكتوا و لم يقولوا حرفا ، قال :

ـــ ويقول لكم قد أجّلتكم عشرا ، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه .

نقض يهود بنى النضير العهد وخفروا الذمة بما بيتوا من غدر لرسول الله ـ ﷺ، فأصدر عليه السلام حكمه عليهم بالجلاء من جواره، فتشاوروا مع رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول ، وانتهى قرارهم إلى العصيان والتأهب للحرب فتجهزوا وتحصنوا فى حصونهم ، وأرسل زعيمهم حُيى ابن أخطب إلى الرسول قائلا :

ـ إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك .

فسار إليهم جيش المسلمين وحاصرهم حتى أجهدهم الحصار ، فأرسلوا من يقول لرسول الله ـ ﷺ :

ـ نحن نخرج من المدينة .

فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريهم ، وأن يحملوا من متاعهم وأموالهم ما تستطيع الإبل حمله عدا أسلحتهم فلا يأخذون منها شيئا .

وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام ، وكان من أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب ، فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ هؤلاء فى قومهم بمنزلة بنى المغيرة فى قريش .

وكانت بنو النضير صفيا لرسول الله ـ ﷺ ، خالصة له حُبسا لنوائبه ، لم يخمّسها ولم يُسهم منها لأحد ، إلا أنه أعطى ناسا من أصحابه ووسع فى الناس ، فكان ممن أعطاه رسول الله ـ ﷺ ـ من المهاجرين أبو بكر الصديق أعطاه بئر حجر ، وعمر بن الخطاب بئر جِرم ، وعبد الرحمن بن عوف سوالة ، وصهيب بن سنان الصراطة ، والزبير بن العوام وأبو سلمة بن عبد الأسد البُويلة ، وسهل ابن حنيف وأبو دجانة مالا يقال

له مال ابن حرشة . ولما أجلى رسول الله — ﷺ — بنى النضير قال :

— امضوا فإن ذلك أول الحشر وأنا على الأثر .

واستقر أشراف بنى النضير وساداتهم فى خيبر وفى قلوبهم مرض مما نزل بهم على يدى رسول الله — ﷺ ، فما استطاعوا أن ينسوا يوما أنه أخرجهم من ديارهم ، ففكروا فى أن يخرجوا إلى قريش وإلى قبائل العرب ليحزبوهم على رسول الله — ﷺ — ويزينوا لهم قتال المسلمين واستئصال شأفتهم قبل أن تشتد سواعدهم ويضعوا أيديهم على بلاد العرب جميعا . فانطلق نفر من أشرافهم ووجوههم منهم سلام بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس الوائلى وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل حتى قدموا مكة ، فهرعت قريش لاستقبالهم والحفاوة بهم . وفى دار الندوة دارت المفاوضات ودعا أشراف بنى النضير سادات قريش إلى حرب رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

عداوة بدت من أفواههم وما تخفى قلوبهم أكبر ، ودعوة محببة إلى قلوب أعداء محمد — ﷺ — من وجوه قريش وساداتها ، ولكن ذلك الدين الذى جاء به ابن عبد الله كان يشغل عقول القوم فلم يلبوا الدعوة إلى الحرب دون نقاش ، بل قالوا :

— يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

كان أشراف اليهود ووجوههم يرون رأى العين الأصنام التى كانت حول الحرم ، وكانوا يعلمون أن جوف أول بيت وضع للناس قد كدست

فيه تماثيل آلهة كل شعوب الأرض وصار مخزنا للشرك بعد أن كان منارة للتوحيد ، وعلى الرغم من كل ذلك قال أهل الكتاب الأول دون خجل :

— بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

يا للسخرية ! أصحاب الكتاب الأول وحملة رسالة التوحيد يزعمون أن الوثنية خير من دعوة تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، إنها ضلالة تستحق اللعن وقد لعنهم الله من فوق سبع سموات : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا * أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما * فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا ﴾[1] .

وسر قريش قول اليهود ودب النشاط فيهم وراحوا يتأهبون للحرب ، فاجتمعوا فى دار الندوة وراح حكيم بن حزام وأبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وبنو المغيرة يدبرون للقضاء على نبى الإسلام والمسلمين .

وخرج كنانة بن أبى الحقيق يسعى فى بنى غَطَفان ويحضهم على قتال رسول الله — ﷺ — على أن لهم نصف تمر خيبر ، وأعلمهم أن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابه عُيينة بن حصن الفزارى وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد فأقبل إليهم طليحة بن أسد فيمن أطاعه .

وخرج من بطون قريش خمسون رجلا وتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم

---

(١) النساء ٥١ — ٥٥ .

بالكعبة معلقين بأستارها ، أن لا يخذل بعضهم بعضا ويكونوا كلهم يدا واحدة على محمد — ﷺ .

وعقد اللواء فى دار الندوة وحمله عثمان بن طلحة بن أبى طلحة وقد ملأ الغيظ قلبه ، فأبوه طلحة قتل يوم أحد ، وكذا عماه عثمان بن أبى طلحة وأبو سعيد بن أبى طلحة ، وإخوته الأربعة وهم مسافح بن طلحة والحرث ابن طلحة وكلاب بن طلحة والجلاس بن طلحة ، وكان يتحرق شوقا للقاء المسلمين ليثأر لأهله ، وبات يتمنى أن يقتل على بن أبى طالب الذى أذاق الأعزة المنون .

وخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب وقد جمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب ، وكانوا أربعة آلاف ومعهم ثلاثمائة فرس وألف بعير . انطلقوا حتى نزلوا مر الظهران فجاءهم من أجابهم من بنى سليم وهم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية . وخرجت بنو أسد يقودهم طليحة بن خويلد الأسدى ، وخرجت غطفان وفزارة معهما ألف بعير يقودهم عيينة بن حصن بن حذيفة ، وخرجت بنو مرة وهم أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى ، وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم مسعر بن رُخيلة بن نُويرة بن طَريف ، وخرج معهم غيرهم .

وكانت الأحزاب عشرة آلاف وهم ثلاثة عساكر وملاك أمرها لأبى سفيان . وبدأ الزحف إلى المدينة وما من أحد من الخارجين يشك فى أنها جولة واحدة ثم يصبح الإسلام والمسلمون كأمس الدابر ، فما كان لهم أن يصمدوا لصناديد قريش وفرسان العرب المتعطشين للدماء .

كانت خزاعة تميل إلى رسول الله — ﷺ — وكان مسلمهم وكافرهم

يحبه عليه السلام . فلما تهيأت قريش للخروج انطلق ركب من خزاعة قاصدا المدينة ، وراح الرجال يُغذون السير حتى بلغوا مسجد الرسول فى أربع ليال فدخلوا عليه وأخبروه خبر سادات بنى النضير ودعوتهم قريشا وقبائل العرب لحرب رسول الله ـ ﷺ ، وخروج أبى سفيان لاستئصال الإسلام والمسلمين . فلما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ دعا الناس وأخبرهم خبر عدوهم وقال لهم :

ـ هل نبرز من المدينة أو نكون فيها ؟

وأسقط فى أيدى الناس ؛ إنهم أشاوروا عليه بالخروج يوم أحد وأكرهوه عليه فكانت الهزيمة التى منوا بها . وتمنى الأنصار والمهاجرون لو أن الله أوحى إلى رسوله بما يفعله وجحافل قريش والعرب يتقدمون ليطعنوا الإسلام طعنة قاضية . ولم تذهب نفوس المؤمنين شعاعا فقد كانوا على ثقة بأن الله ناصر من ينصره وأن الله موهن كيد الكافرين .

عشرة آلاف مقاتل يزحفون وقلوبهم تفيض بالحقد على نبى الإسلام والمسلمين ، فقد هجم المسلمون على غطفان حلفاء قريش لما أرادوا أن يتحركوا للثأر لسادات قريش الذين جدلوا يوم بدر ، ومشوا إلى بنى سليم وأجبروهم على أن يتحصنوا فى الدور ، وطردوا يهود بنى النضير لما أضمروا من عداوة وغدر ؛ رجال ينشدون الخلاص من المتاعب التى أطلت عليهم من المدينة بعد أن هاجر إليها محمد وصحبه وألف بالدين الجديد بين قلوب عاشت على مر الزمن متنافرة قد ألقيت بينهم العداوة والبغضاء ! وثلثمائة فرس يمتطيها فرسان تحت إمرة خالد بن الوليد قد عزموا على أن ينالوا نصرا مثل ذلك النصر الذى أحرزوه يوم أحد ، وآلاف الدروع تعكس أشعة الشمس فتملأ قلب أبى سفيان أملا بالنصر المبين .

عرف محمد — ﷺ — فضل الفرسان فى المعارك فأنشأ مراكز للإكثار من نسل الخيول ، بيد أن المدة بين أحد وبين هذه المعركة لم تكن كافية لتمده بكل ما يحتاج إليه جيش المسلمين من جياد . إنه يمتلك خمسين فرسا وما كان يمتلك يوم أحد غير فرسين ، ولكن ماذا يفعل خمسون فارسا من المؤمنين أمام ثلثمائة فارس من صناديد قريش وغطفان وبنى سليم ويهود بنى النضير ؟.

وكان عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة يرقب فرصته ليسدد إلى قلب الإسلام ضربة قاضية . ترى لو خرج رسول الله — ﷺ — لحرب الأحزاب الذين تعاهدوا على استئصال المسلمين أيقف ابن أبى والمنافقون يشاهدون المعركة دون أن يطعنوا المسلمين من الخلف ؟

ويهود نبى قريظة الذين بقوا فى المدينة والذين عاهدوا رسول الله — ﷺ — على أن يشتركوا معه فى الدفاع عن المدينة ، أيوفون بعهدهم ويقومون بإخلاص فى الدفاع عن المدينة حتى لو ساءت الأمور ، وقد وقر فى أذهانهم أن نبى الإسلام قد طرد من جواره بنى قينقاع وبنى النضير أقوى قبائل يهود ؟

والمسلمون الذين ذاقوا طعم الهزيمة فى أحد ، أكانوا قادرين على أن يستعيدوا الثقة فى أنفسهم وأن يواجه ثلاثة آلاف مقاتل منهم عشرة آلاف من صناديد العرب الذين يأكل الحقد أكبادهم ؟

كان الخروج من المدينة للقاء هذه القوة الهائلة التى لم تكن أرض العرب قد عرفتها من قبل مخاطرة لا تحمد مغبتها ، وكان الواجب هو الدفاع عن المدينة ، وما كان ذلك أمر سهلا ، فدور المدينة ملتصقة بعضها ببعض إلى مسافة طويلة فهى سور منيع ، والحدود الشمالية يحرسها حائط جرف

منحدر ، وبنو قريظة آخر قبيلة يهودية باقية فى المدينة تحرس مؤخرة المدينة فهم ينزلون فى حصن منيع ينبغى أن يدك قبل أن يستطيع عدو اجتيازه . وكانت المعضلة المباشرة هى جنوب المدينة المكشوف ، والجنوب الشرقى وهو الجانب الذى تنطلق فيه الطرق إلى حدائق المدينة ، وما أيسر أن يخترق العدو هذا الجزء وأن يتدفق منه إلى المدينة إذا ما شن عليه هجوما شديدا فتنهار فى لحظة كل التحصينات الأخرى !

وفكر المسلمون وأجهدوا عقولهم لرسم خطة الدفاع عن المدينة فأعيتهم الحيل ، فلن يستطيع خمسون فارسا أن يصدوا هجوم ثلثمائة فارس ، ولن يقدر ثلاثة آلاف مقاتل أن يوقفوا زحف عشرة آلاف مجهزين أحسن تجهيز .

وكان سلمان الفارسى فى المسلمين يفكر مع المفكرين ، وكان فى قرارة نفسه راضيا متفرحا فى الله فقد عاونه رسول الله — ﷺ — والمسلمون على أن يتحرر من رقه فصار حرا طليقا كما كان فى بيت أبيه قبل أن يخرج للبحث عن الحقيقة . وأضاء الله ذهنه بالفكرة التى أضنت كل الرءوس ، فتقدم إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا .

اقترح سلمان الفارسى حفر خندق عميق وواسع على طول الجهة المفتوحة من المدينة ، وكان ذلك شيئا جديدا على العرب فقد اعتادوا أن يبرز رجل لرجل وأن يقاتلوا يدا ليد ؛ أما أن يضربوا حول المدينة خندقا فما عرفوا ذلك من قبل . وقد كره بعض المسلمين الرأى وحسبوه ضربا من الجبن ، لكن رسول الله — ﷺ — قبله فاقتنع الناس به .

وركب رسول الله — ﷺ — فرسا له ومعه عدة من المهاجرين

والأنصار وخطط مكان الخندق ، واستعار المسلمون من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحى وكرارين ومكاتل وراحوا يعملون فى حفر الخندق فى جد وسلمان الفارسى يقدم إليهم نصائحه ، فقد كان عليهم أن ينتهوا منه قبل أن يقدم إليهم أبو سفيان بن حرب والأحزاب الذين تعاهدوا على استئصال الإسلام والمسلمين .

وراح المنافقون يحاولون أن يثبطوا الناس عن رسول الله — ﷺ ، فجعلوا يقولون لإخوانهم :

— ما محمد وأصحابه إلا أكلة[1] رأس ؛ ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، دعوا هذا الرجل فإنه هالك .

وأرسل اليهود إلى المنافقين وقالوا :

— ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان ومن معه ؟ فإنهم إن قدروا عليكم هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدا ، وإنا لنشفق عليكم . أنتم إخواننا وجيراننا هلم إلينا .

فأقبل عبد الله بن أبى وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبى سفيان ومن معه وقالوا :

— ما ترجون من محمد ؟ فو الله ما يُرْقدنا (يعيننا) بخير وما عنده خير .. ما هو إلا أن يقتلنا ههنا .. انطلقوا إلى إخواننا وأصحابنا .

وطفق عبد الله بن أبى والمنافقون يزينون الانطلاق إلى اليهود والدخول معهم فى حصونهم وترك رسول الله — ﷺ — وأصحابه للأحزاب ليلقوا مصيرهم ، فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين إلا إيمانا واحتسابا .

---

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد .

٢

استخلف ـ ﷺ ـ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وخرج رسول الله عليه السلام بالمسلمين حتى عسكر بهم إلى سفح سَلع وهو جبل بسوق المدينة وجعل سلعا خلف ظهره ، وغدا المسلمون يعملون فى حفر الخندق وراح عليه السلام يعمل فيه ترغيبا للمسلمين فى الأجر ويأمرهم بالجد ويعدهم النصر إن هم صبروا .

وحمل عليه السلام التراب على ظهره ، وجعل المسلمون يبادرون قدوم العدو ، وكان من جملة من يعمل فى الخندق جُعَيل فغيَّر ـ ﷺ ـ اسمه وسماه عَمرا فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون :

سماه من بعد جُعَيل عَمرا

فيقول عليه السلام :

ـ عَمرا .

فيقولون :

وكان للبائس يوما ظهرا

فيقول عليه السلام :

ـ ظهرا .

وظل عليه السلام ينقل التراب وقد وارى الغبار جلد بطنه ، فراح يتمثل بقول ابن رواحة ويقول :

لا همَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينة علينا ... وثبت الأقدام إذ لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا
ولو عبدنا غيره شقينا ... يا حبذا ربا وحبٌّ دينا

وجدوا فى العمل ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله — ﷺ — وعن المسلمين فى ذلك العمل رجال من المنافقين ، وجعلوا يورُّون بالضعف عن العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير إذن رسول الله — ﷺ . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة ذكرها لرسول الله — ﷺ — واستأذنه ، فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع إلى عمله فى الخندق ، فأنزل الله تعالى فى أولئك من المؤمنين قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾[١] .

ثم قال تعالى فى المنافقين : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا[٢] فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[٣] .

وكان سلمان رجلا قويا يعمل عمل عشرة رجال فى الخندق ، فكان يحفر فى كل يوم خمسة أذرع فى عمق خمسة أذرع ، فتنافس فيه المهاجرون والأنصار فقال المهاجرون :

— سلمان منا .

وقالت الأنصار :

---

(١) النور ٦١ .   (٢) اللواذ : الاستتار بالشىء عند الهرب .

(٣) النور ٦٣ .

ـــ سلمان منا .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ سلمان منا أهل البيت .

وارتفعت منزلة سلمان بعد رقه فالمصطفى قد عده من أهل بيته . وكان الغلمان بأجمعهم يعملون فى حفر الخندق من بلغ ومن لم يبلغ ، وكان بين الغلمان عبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى والبراء بن عازب ، وكان زيد بن ثابت ممن ينقل التراب فقال رسول الله فى حقه :

ـــ أما إنه نعم الغلام .

وغلبته عينه فنام فى الخندق فأخذ عمارة بن حزم سلاحه وهو نائم ، فلما قام فزع على سلاحه فقال له ـــ ﷺ :

ـــ يا بار قد نمت حتى ذهب سلاحك .

ثم قال :

ـــ من له علم بسلاح هذا الغلام ؟

فقال عمارة :

ـــ أنا يا رسول الله وهو عندى . .

ـــ رده عليه .

ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبا .

واشتد على الصحابة كدية (محل صلب) فشكوا ذلك لرسول الله ـــ ﷺ ، فأخذ المعول وضرب فصارت رملا سائلا لا ترد فأسا ولا مسحاة .

كانت الأيام عسرة وكان المسلمون يعملون فى الخندق دون ملل ،

فكان أبو بكر وعمر يحملان التراب فى ثوبيهما إذا لم يجدا مكاتل ، وكان الرجال يدأبون فى العمل طوال النهار حتى إذا ما جن الليل استراحوا .

وضربت قبة من أدم لرسول الله — ﷺ ، وكان — ﷺ — يعقب فيها بين ثلاث من نسائه عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش فتكون عائشة عنده أياما . وكان طعام القوم أيسره . وكانت كل زوجة تحاول أن تبعث إلى زوجها بما يقوم به أوده ، فدعت عمرة بنت رواحه ابنة لها فأعطتها حفنة من تمر فى ثوبها ثم قالت :

— أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما .

فأخذتها وانطلقت بها إلى أبيها بشير بن سعد وخالها عبد الله ، فمرت برسول الله — ﷺ ، وهى تلتمس أباها وخالها فقال :

— تعالى يا بنية ، ما هذا معك ؟

— يا رسول الله هذا تمر بعثتنى به أمى إلى أبى بشير بن سعد وخالى عبد الله بن رواحة يتغديانه .

— هاتيه .

فصبته فى كفى رسول الله — ﷺ ، ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده :

— اصرخ فى أهل الخندق أن هلم إلى الغداء .

فاجتمع أصحاب الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه باسم الله وعلى بركة الله .

ومرت الأيام والمسلمون يحفرون والعرق يتفصد منهم والمنافقون يتظاهرون بالعمل ولا يعملون ، ويهود بنى قريظة فى الحصون يتأهبون ليفوا بعهدهم لرسول الله عليه السلام أن يدافعوا معه عن المدينة إذا ما دهمها

خطر خارجى .

وعلى مر الأيام بدأ يظهر خندق عميق واسع أمام الجهة المفتوحة من المدينة كان من المتعذر على فرس أن يتخطاه ، وراح سلمان يضرب الأرض فى قوة وعزم وإذا بكدية تشتد عليه ، ورأى — ﷺ — سلمان وقد عجز عن تحطيم الكدية فنزل إليه وأخذ المعول من يده وقال :

— بسم الله .

وضرب ضربة فكسر ثلثها وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن كالمصباح فى جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله — ﷺ — وقال :

— أعطيت مفاتيح اليمن ، إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة كأنها أنياب الكلاب .

ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر ، فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول الله — ﷺ — وقال :

— أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها .

ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وبرق برقة فكبر وقال :

— أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب من مكانى هذا .

وراح جمع من المنافقين يتبادلون النظرات فى استخفاف ، وقال معتب ابن قشير معبرا عما يدور فى خلدهم :

— ألا تعجبون من محمد ؟ يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق[1] لا تستطيعون أن تبرزوا .

---

(١) الفَرَق : الخوف .

وتصبب العرق من الأجسام وخوت البطون، وتذكر جابر بن عبد الله أن عنده شويهة غير جد سمينة فقال فى نفسه :

— والله لو صنعناها لرسول الله — ﷺ .

فأمر امرأته فطحنت لهم شيئا من شعير فصنعت لهم منه خبزا ، وذبحت تلك الشاة فشووها لرسول الله — ﷺ ، فلما أمسوا وأراد رسول الله الانصراف من الخندق قال جابر :

— يا رسول الله إنى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئا من خبز هذا الشعير ، فأحب أن تنصرف معى إلى منزلى .

وإنما يريد جابر أن ينصرف معه رسول الله وحده ، ولكن رسول الله ﷺ — ما كان يؤثر نفسه بشىء دون سائر أصحابه فقال لجابر :

— نعم .

ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله — ﷺ — إلى بيت جابر بن عبد الله .

فقال جابر فى خوف :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

فأقبل رسول الله ﷺ ، وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرج جابر الشويهة إليه فأكل رسول الله عليه السلام وأكلوا بسم الله وعلى بركة الله .

وانقضى خمسة عشر يوما والرجال والغلمان يعملون فى حفر الخندق حتى انتهى الحفر ، فأمر عليه السلام من لم يبلغ خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة ؛ فممن أجازه عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى والبراء بن عازب . ولم يكن حصن أحصن من حصن بنى حارثة فجعل النبى — ﷺ — النساء والصبيان

والذرارى فيه .

وأرسل عليه السلام سُليطا وسُفيان بن عَوف طُليعة للأحزاب فرأيا جيشا يكسو وجه الصحراء يتحرك فى بطء شديد من كثرة عدده وثقل ما يرتدى رجاله من دروع ، إنه جيش لا قبل للمسلمين به . ووقف الرجلان مشدوهين حتى وقعا فى الأسر فقتلهما أبو سفيان بن حرب وقد استبشر خيرا وما خامره أدنى شك فى الانتصار ، فما كان للمسلمين قبل بقريش وغطفان وبنى سليم ومن انضم إليهم فى زحفهم من الأعراب .

وأعطى عليه السلام لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ولواء الأنصار لسعد ابن عبادة ، وخرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين لثمان مضين من ذى القعدة وعسكر بمن معه إلى سفح سلع ، وأقبلت قريش ومن معها تحدوهم الآمال العريضة فلما رأوا الخندق اربدت وجوههم وانقبضت أفئدتهم وانهارت قصور الأمانى التى بنوها فى الهواء وقالوا فى غيظ :

ـــ والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها !

وكان أكثرهم غيظا حيى بن أخطب فهو الذى خرج بالموتورين من بنى النضير ليحرض الموتورين من قريش وغطفان وبنى سليم وقبائل العرب ويحضهم على قتال رسول الله عليه السلام ، وكان طوال الرحلة يستشعر راحة بل إنه ذاق بوهمه لذة الانتصار أكثر من مرة ، وإذا بجميع أحلامه تنهار فجأة أمام عمق الخندق الذى أصبح يفصل بين جيش الأحزاب وجيش الإسلام .

أتذهب كل الجهود التى بذلها هباء ؟! وهذه الجيوش التى أغراها بدهائه ودهاء اليهود على أن تتحرك للانتقام أتعود من حيث جاءت دون أن تثأر من عدوه وعدوهم ؟ إن فى المدينة يهودا قد عاهدوا محمدا على أن

يقوموا بالدفاع معه عن مدينتهم ، فلو أمكنه أن يغريهم على نقض عهدهم فإن تحصين المدينة كله سينهار وسيصبح القضاء على المسلمين ونبى الإسلام أمرا لا مفر منه .

إنه قادر على أن يغرى بنى قريظة على نقض عهدهم . سيقنعهم أن نبى الإسلام صياد اليهود فإن كان سيستعين بهم اليوم فلن يكون مصيرهم إلا مصير بنى قينقاع وبنى النضير غدا ؛ سيطردهم من جواره شر طردة . واستراح حيى بن أخطب إلى أفكاره بعض الشيء فقد عاوده الأمل بعد أن كاد أن يقبر فى ذلك الخندق العميق الذى ضربه المسلمون حول المدينة .

ونزلت قريش بمجمع الأسيال ونزل عيينة فى غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أحد ، وسار المشركون يتناوبون فيغدو أبو سفيان فى أصحابه يوما ويغدو خالد بن الوليد يوما ويغدو عمرو بن العاص يوما ويغدو هُبيرة بن أبى وهب يوما ويغدو عكرمة بن أبى جهل يوما ويغدو ضِرار بن الخطاب يوما ، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويفترقون مرة ويجتمعون أخرى ويناوشون أصحاب رسول الله — ﷺ — ولم يكن بينهم حرب إلا الرمى بالنبل والحصا .

وكان عَبَّاد بن بشر على حرس قبة رسول الله — ﷺ — مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة ، وكان النساء والصبيان والذرارى فى الحصن وقد قال عليه السلام للنساء إن جاءكن أحد فألمعن بالسيف ، فجاءهن رجل من بنى ثعلبة بن سعد يقال له نجدان أحد بنى جحاش ، على فرس حتى كان فى أصل الحصن ثم جعل يقول للنساء :

— انزلن إلى خير لكن .

فحركن السيف فأبصره أصحاب رسول الله — ﷺ ، فأسرع إلى

حصن بنى حارثة قوم فيهم رجل من بنى حارثة يقال له ظفر بن رافع ، وحاول نجدان أن يختبئ أو يلوذ بالفرار بيد أن ظفر رآه فقال :

— يا نجدان ابرز .

فبرز إليه فحمل عليه ظفر فقتله .

واستبشر النساء والصبيان والذرارى بقتل نجدان ، ولكن جرأة ذلك الرجل الثعلبى كانت إيذانا بأن الذرارى لم يكونوا فى مأمن من الغدر والخيانة وأن الأمر قد أصبح يستوجب أن يقوم رجال بحراستهم .

وراحت الأيام تمر والمشركون فى غيظ شديد فالخندق يحول بينهم وبين المسلمين ، وبلغ الحنق غايته بنوفل بن عبد الله بن المغيرة فأقبل على فرس ليوثبه الخندق فوقع فيه مع فرسه ، فراح المسلمون يرمونه بالحجارة فجعل يقول :

— قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب !

فنزل إليه على بن أبى طالب فضربه بالسيف فقطعه نصفين ، وارتج المكان بالتكبير . وكبر ذلك على المشركين فأرسلوا إلى رسول الله — ﷺ — أن أرسل إلينا بجسده ونعطيك اثنى عشر ألفا .

فقال رسول الله — ﷺ :

— لا خير فى جثته ولا فى ثمنه ، ادفعوه إليهم فإنه خبيث الجسد خبيث الدية .

٣

كان حُيى بن أخطب سيد بنى النضير يقول لقريش فى مسيره معهم :

ـــ إن قومى بنى قريظة معكم وهم أهل حلقة (سلاح) وافرة ، وهم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلا .

فلما رأى الأحزاب الخندق وتيقنوا أن لن ينالوا من محمد ـــ ﷺ ـــ والذين معه إلا إذا خان يهود بنى قريظة العهد الذى كان بينهم وبين المسلمين وطعنوا نبى الإسلام ومن معه من الخلف فيسروا دخـــول الموتورين ليقضوا على ثورة المدينة قضاء مبرما ، عندئذ قال أبو سفيان لسيد بنى النضير :

ـــ ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذى بينهم وبين محمد .

فخرج حيى حتى أتى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة وولى عهدهم الذى عاهدهم عليه رسول الله ـــ ﷺ ، فدق عليه باب حصنه فأبى أن يفتح له ، وألح عليه فى ذلك فقال له :

ـــ ويحك يا حيى إنك امرؤ مشئوم ! وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ، و لم أر فيه إلا وفاء وصدقا .

ـــ ويحك افتح لى أكلمك .

ـــ ما أنا بفاعل .

فغاظه فقال له :

ـــ والله ما أغلقت دونى إلا تخوفا على جشيشتك (الدشيش) أن آكل معك منها .

ففتح له فقال له :

ــ ويحك يا كعب ! جئت بعز الدهر . جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال ، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد ، قد عاهــدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه .

ــ جئتنى والله بذل الدهر وكل ما يخشى ، فإنى لم أر فى محمد إلا صدقا ووفاء . ويحك يا حيى دعنى وما أنا عليه .

فلم يزل حيى بكعب حتى أعطاه عهدا من الله وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يقتلوا محمدا ، أن يكون معه فى حصنه ويصيبه ما أصابه .

كان ما يعرضه حيى بن أخطب على كعب جد خطير : إنه نقض لعهد رجل يزن الأمور بميزان العدل لا يميل مع الهوى بل سبيله الحق ودرء كل خطر عن الدين الذى يدعو إليه ، فإن أخفق تدبير حيى وكعب فسيدفع يهود بنى قريظة أفدح ثمن يدفعه ناقضو العهود ، وإن نجح ذلك التدبير فستتحقق أغلى أمنية لليهود : أن يقتل الرجل الذى اعترف بالسيد المسيح وبالحمل الطاهر فسفه بذلك أحلام آبائهم الذين أبوا أن يقروا أن عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول .

وكان فى عرض حيى شىء جذاب وإن كان محفوفا بالمخاطر ، فدعا كعب رؤساء قومه وهم الزبير بن مطا وشاس بن قيس وعزال بن ميمون وعقبة بن زيد وراحوا يتبادلون قداح الرأى . وكان حيى بن أخطب فى اليهود شبيها بأبى جهل فى قريش يخشى الناس أن يعصوا له أمرا . فانتهى الرأى إلى نقض العهد وقاموا إلى الصحيفة التى كان فيها العقد بينهم وبين رسول الله ــ ﷺ ــ فمزقوها ، ولم يصبح أمام الفريقين إلا أحد أمرين : أن يقضى على رسول الله ــ ﷺ ــ وعلى الذين معه جميعا وأن يمحق

الإسلام ، وما كان اليهود يشكون فى ذلك ، أو يؤيد الله حزبه ويفلت المسلمون من الغدر الذى بيت بليل ويواجه بنو قريظة مصيرهم المحتوم جزاء وفاقا على نقض العهد وتعريض المسلمين جميعا للقتل . وقد أعمى الله بصيرتهم لما أراد الله فى هلاكهم .

وجاء الخبر إلى عمر بن الخطاب فسعى إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله بلغنى أن بنى قريظة قد نقضت العهد وحاربت .

فاشتد الأمر على رسول الله — ﷺ ، فنقض العهد يجعل المدينة كلها بمن فيها لقمة سائغة للأحزاب . وأرسل سعد بين معاذ سيد الأوس وسعد ابن عبادة سيد الخزرج وأرسل معهما ابن رواحة وخوات بن جُبير وأسيد ابن حُضير وقال لهم :

— انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، فإن كان حقا فألحنوا إلى لحنا أعرفه دون القوم ، وإلا فاجهروا بذلك بين الناس .

كان رسول الله — ﷺ — يريد من القوم أن يوروا ويكنوا فى كلامهم بما لا يفهمه القوم إذا كان بنو قريظة قد غدروا لكيلا يدب فيهم الوهن والضعف ولا تتضعضع روحهم المعنوية .

فخرجوا حتى أتوا بنى قريظة فوجدوهم قد نقضوا العهد وقالوا فى استخفاف :

— من رسول الله ؟!

وتبرءوا من عقده وعهده وقالوا :

— لا عهد بيننا وبين محمد .

فشتمهم سعد بن معاذ وكانوا حلفاءه ، وأغلظ لهم القول سعد بن

عبادة وكان فيه حدة وشاتموه .

وقال سعد بن معاذ لسعد بن عبادة :

ـــ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة .

ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فكنوا له عن نقضهم العهد ، قالوا :

ـــ عضل والقارة .

أى غدروا غدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ الله أكبر ! أبشروا يا معاشر المسلمين نصرة الله تعالى وعونه .

وتقنع ـــ ﷺ ـــ بثوبه واضطجع ومكث طويلاً ، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه ـــ ﷺ ـــ اضطجع ثم رفع رأسه فقال :

ـــ أبشروا بفتح الله ونصره .

وانتشر الخبر بين المسلمين فعظم عند ذلك البلاء عليهم ، والتفتوا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يلتمسون منه العون فقال عليه السلام :

ـــ حسبنا الله ونعم الوكيل !

وخيف على النساء والذرارى من بنى قريظة ، فبعث عليه السلام سلمة ابن أسلم فى مائتى رجل وزيد بن حارثة فى ثلثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير ليلقوا الرعب فى قلوب بنى قريظة الذين خانوا عهدهم .

وجاءهم قريش والأحزاب من فوقهم ، وتحركت بنو قريظة من أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ، وتقدم رماة الأحزاب يرمون .

وظهر النفاق من المنافقين حتى قال بعضهم :

ـــ كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن

على نفسه أن يذهب إلى الغائط . ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا .

ولما رأى رسول الله — ﷺ — شدة الأمر بعث إلى عُيينة بن حصن الفَزارى وإلى الحرث بن عَوف المرِّى فى أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه ، فجاءا مستخفيين من أبى سفيان وطلبا نصف ثمار المدينة ، فأبى عليهما إلا الثلث فرضيا ، وأحضرت الصحيفة والدواة فكتب عثمان بن عفان الصلح ، فلما أراد رسول الله — ﷺ — أن يوقع الصلح على ذلك بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه فقالا :

— يا رسول الله أمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا .

— إن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمع وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأى فما لهم عندنا إلا السيف .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لو أمرنى الله لما شاورتكما . والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ :

— يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى أو بيعا ، وإن كانوا ليأكلون العلهز [١] فى الجاهلية من الجهد ، أفحين أكرمنا

---

(١) العلهز : طعام من الدم والوبر كان يتخذ فى المجاعة .

الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نقطعهم أموالنا ؟! ما لنا بهذا من حاجة . والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فقال رسول الله — ﷺ :

— فأنت وذاك .

وذهب عليه السلام إلى عيينة والحرث وقال لهما رافعا صوته :

— ارجعا بيننا وبينكم السيف .

واجتمع رؤساء الأحزاب يتشاورون . إن بنى قريظة قد نقضت عهدها وإن عليهم أن يقتحموا هذا الخندق لتدور بينهم وبين المسلمين معركة فاصلة ، فهم من فوقهم وبنو قريظة من أسفل منهم وإن هى إلا ضربات متتابعات ثم يمسى الإسلام والمسلمون ذكرى يجر عليها الزمن أذيال النسيان .

وصاروا إلى مكان ضيق أغفله المسلمون وأكرهوا خيولهم على اقتحام الخندق ، وفيهم عِكرمة بن أبى جهل وهُبيرة بن أبى وهب زوج أم هانئ أخت على بن أبى طالب وضرار بن الخطاب وعمرو بن عبد ود . فتقدم عمرو بن عبد ود وكان من أشهر فرسان العرب أصيب فى بدر بجراحات ثم ولى الأدبار ولم يشترك فى أحد ، وقد جاء مع الأحزاب ليمحو عار فراره وليعلن للملأ أنه لا يزال الفارس الذى لا يشق له غبار ، ثم قال :

— من يبارز ؟

فقام على كرم الله وجهه وقال :

— أنا له يا نبى الله .

فقال — ﷺ — له فى إشفاق :

— اجلس إنه عمرو بن عبد ود .

ثم كرر عمرو النداء قال :

ـــ من يبارز ؟

فلم يقم إليه أحد ، فجعل يوبخ المسلمين ويقول :

ـــ أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ؟! أفلا يبرزن لى رجل ! وأنشد :

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز ؟
إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

فقال على كرم الله وجهه فقال :

ـــ أنا له يا رسول الله .

ـــ إنه عمرو .

ثم نادى عمرو الثالثة :

ـــ من يبارز ؟

فقال على كرم الله وجهه فقال :

ـــ أنا له يا رسول الله :

ـــ إنه عمرو .

ـــ وإن كان عمرا !

فأذن له رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه ، وتقدم على وهو ينشد :

لا تعجلن فقد أتاك مجيب قولك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجى كل فائز

وشخص ـــ ﷺ ـــ ببصره إلى السماء وقال فى حرارة :

ـــ إلهى أخذت عبيدة منى يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وهذا على أخى

وابن عمى فلا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين . اللهم أعنه عليه .

ومشى على إلى عمرو بن عبد ود فقال له :

ـ يا عمرو إنك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

ـ أجل .

ـ فأنا أدعوك إلى الله وإلى رسوله ـ ﷺ ـ وإلى الإسلام .

ـ لا حاجة لى بذلك .

ـ فإنى أدعوك إلى البراز .

فضحك عمرو وقال :

ـ إن هذه لخصلة ما كنت أظن أن أحدا من العرب يروعنى بها .

وتأهب على كرم الله وجهه للقتال ، فقال له عمرو :

ـ لم يا بن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

فقال له على :

ـ ولكنى والله أحب أن أقتلك .

فأخذت عمرا الحمية وتقدم على فرسه ، فقال له على :

ـ كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ انزل معى .

كان عمرو بن عبد ود يكره أن يقتل عليا فأبو طالب كان صديقا وكان عمرو له نديما ، ولكن عليا كرم الله وجهه أثار حفيظته فغضب فاقتحم عن فرسه ووسل سيفه كأنه شعلة نار فعقر فرسه وضرب وجهه وأقبل على علّى كرم الله وجهه . ولم يستطع رسول الله ـ ﷺ ـ أن يتابع المعركة ببصره فقد أشفق على نفسه من أن يرى مصرع ربيبه وحبيبه وأخيه وابن عمه وزوج الزهراء .

واستقبل على بن أبى طالب عمرو بن عبد ود بدرقته ، فضربه عمرو فيها فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه ، فانخلعت قلوب المسلمين ورسول الله عليه السلام يناشد ربه أن يعين أبا الحسن والحسين على خصمه الذى تمرس على القتال على مر السنين . وغافل على كرم الله وجهه عمرا فضربه على حبل عاتقه ضربة فسقط يخبط فى دمه ، وكبر المسلمون . فلما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ التكبير عرف أن عليا الحبيب قتل عمرا ، فانقشعت مخاوفه وتهللت أساريره وتقدم ليستقبل فارس الإسلام وهو مسرور ، وأقبل علىّ وهو متفرح بنصر الله فقال له عليه السلام :

ـ كيف وجدت نفسك معه يا على ؟

ـ وجدته لو كان أهل المدينة كلهم فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم .

وحين قتل عمرو رجع من وصل إلى الخندق من المشركين بخيلهم هاربين ، فتبعهم الزبير بن العوام فحمل على هبيرة بن أبى وهب فضرب ثغر فرسه فقطعه ، وسقطت درع كان جعلها على مؤخر ظهرها فأخذها الزبير ؛ وألقى عكرمة بن أبى جهل رمحه وهو منهزم ؛ وحمل ضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبى وهب على علىّ كرم الله وجهه ، فأقبل على عليهما فأما ضرار فولى هاربا و لم يثبت ، وأما هبيرة فقد ثبت ثم ألقى درعه وهرب ، وكان فارس قريش وشاعرها .

وراح المسلمون ينادون بشعارهم :

ـ حم لا ينصرون .

ورمى حيان بن العرقة سعد بن معاذ بسهم فأصاب أكحله (عرق فى

وسط الذراع) فقال :

ـــ خذها وأنا ابن العرقة .

سميت بذلك لطيب عرقها .

فقال سعد بن معاذ :

ـــ اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها . فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وأخرجوه وكذبوه .

وفرت خيل الأحزاب حتى اقتحمت من الخندق ، ثم اجتمع رؤساؤهم وقرروا أن يشنوا هجوما عنيفا على المسلمين فى الغد ، فباتوا يعبئون أصحابهم وفرقوا كتائبهم حتى إذا ما كان النهار اقتحمت كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد الخندق ، فدار قتال عنيف بين المسلمين والمشركين ، قتال لا هوادة فيه ولا رحمة . وظل المسلمون لا يقدرون أن يزولوا من موضعهم ، فلم يصلوا الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء فقد كان القتال من سائر جوانب الخندق من فوقهم ومن أسفل منهم ، وصار المسلمون يقولون :

ـــ ما صلينا .

فيقول ـــ ﷺ :

ـــ ولا أنا .

وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ومضى من الليل ثلثه والقتال الرهيب دائر . ثم كشف الله الكافرين وحلفاءهم فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله ـــ ﷺ ، وقام أسيد بن حُضير على الخندق فى مائتين من المسلمين . وكر خالد بن الوليد فى خيل من المشركين يطلبون غرة من المسلمين فناوشوهم ساعة

ومع المشركين وحشى ، فزرق الطفيل بن النعمان بمزراقه فقتله ، وصمد المسلمون لخالد بن الوليد ومن معه ، ثم شنوا عليهم هجوما فاضطروهم إلى العودة إلى عسكرهم .

سار رسول الله — ﷺ — إلى قبته بعد أن ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وأمر بلالا فأذن وأقام فصلى العصر ، ثم أمره فأذن وأقام فصلى المغرب ، ثم أمره فأذن وأقام فصلى العشاء .

وخرجت طائفة من الأنصار ليدفنوا ميتا منهم بالمدينة فصادفوا عشرين بعيرا لقريش محملة شعيرا وتمرا وتبنا حملها ذلك حُيى بن أخطب شدادا وتقوية لقريش ، فأتوا بها رسول الله — ﷺ — فتوسع بها أهل الخندق ، ولما بلغ أبا سفيان ذلك قال :

— إن حييا لمشئوم قطع بنا ؛ ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا .

٤

صار أبو سفيان بن حرب ورؤساء الأحزاب يرسلون الطلائع بالليل يطمعون فى الغارة فأقام المسلمون فى شدة من الخوف ، ودعا رسول الله — ﷺ — على الأحزاب فقال :

— اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزهم .

وقام فى الناس فقال :

— يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإن لقيتم العدو فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

ودعا — ﷺ — بقوله :

— يا صريخ المكروبين ، يا مجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فإنك ترى ما نزل بى وبأصحابى .

وقال له المسلمون :

— هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر ؟

— نعم قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

وكان — ﷺ — يختلف إلى ثلمة فى الخندق ، فإذا أخذه البرد جاء إلى قبته فأدفأته عائشة فى حضنها ، فإذا دفىء خرج إلى تلك الثلمة ويقول :

— ما أخشى أن يؤتى المسلمون إلا منها .

فبينا رسول الله — ﷺ — فى حضن عائشة صار يقول :

— ليت رجلا صالحا يحرس هذه الثلمة الليلة .

فسمع صوت السلاح فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ من هذا ؟

فقال سعد بن أبي وقاص :

ـ سعد يا رسول الله ، أتيتك أحرسك .

ـ عليك هذه الثلمة فاحرسها .

ونام رسول الله ـ ﷺ ـ حتى غط ، وقام ـ ﷺ ـ فى قبته يصلى فقد كان إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة ، ثم خرج ـ ﷺ ـ من قبته فقال :

ـ هذه خيل المشركين تطيف بالخندق :

ـ يا عباد بن بشر .

ـ لبيك .

ـ هل معك أحد ؟

ـ أنا فى نفر حول قبتك يا رسول الله .

وكان ألزم الناس لقبة رسول الله ـ ﷺ ـ يحرسها فبعثه ـ ﷺ ـ يطيف بالخندق ، فذهب فى جوف الليل ينظر فإذا بخيل المشركين تطيف بهم وإذا أبو سفيان فى خيل يطيفون بمضيق من الخندق ، فنادى بشر المسلمين فرماهم المسلمون حتى رجعوا ورسول الله ـ ﷺ ـ يدعو ربه :

ـ اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم لا يغلبهم غيرك .

وكان نُعيم بن مسعود الأشجعى قد سار مع الأحزاب . إنه خرج مع قومه غطفان وهو على دينهم فلما حاصرت الأحزاب المسلمين راح نعيم يفكر فى ذلك الدين الذى جعل أهله يتمنون لقاء أعدائهم وهم

مستبشرون . وعكف على إمعان الفكر فى الإسلام فأضاء الله صدره بأنوار اليقين وقذف فى قلبه الإيمان والتصديق ، فخرج حتى أتى رسول الله ـ ﷺ ـ بين المغرب والعشاء فوجده يصلى ، فلما رآه جلس ؛ ثم قال له النبى ـ ﷺ :

ـ ما جاء بك يا نعيم ؟

ـ جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق .

وصمت نعيم قليلا ثم قال :

ـ يا رسول الله إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت .

ـ إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية ، فقال :

ـ يا بنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم .

ـ صدقت ، لست عندنا بمتهم .

ـ إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تجلوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نُهزة (فرصة) أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ليكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه .

ـ لقد أشرت علينا بالرأى .

كانوا قد عاهدوا رسول الله ـ ﷺ ، ثم غدروا وأعلنوا الخيانة على الملأ ومزقوا صحيفة العهد ، فلما جاءهم نعيم لم يندموا على ما فعلوا و لم يذهبوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يستغفرون ويتوبون إلى الله بل ظلوا على غدرهم وقبلوا رأى نعيم زيادة فى الحيطة والأمان !

ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان ومن معه :

ـ قد عرفتم ودى لكم وفراق محمدا ، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت منه علىّ حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى .

ـ نفعل ، فما هو ؟

ـ اعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ـ قريش وغطفان ـ رجالا من أشرافهم ونعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى تستأصلهم ؟ فأرسل إليهم نعم .

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال :

ـ يا معشر غطفان إنكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ ولا أراكم تتهمونى .

ـ صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

ـ فاكتموا عنى .

ـ نفعل .

ثم قال لهم مثلما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم . فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة ابن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم :

— إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ فيما بيننا وبينه .

فأرسلوا إليهم :

— إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، وقد كان بعضنا أحدث فيه حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم . ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى إن ضرستكم (طحنتكم) الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان :

— والله الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق .

فأرسلوا إلى بنى قريظة :

— إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا :

— إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان :

ـــ إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنا .

فأبوا عليهم وقال أبو سفيان :

ـــ ألا أرانى أستعين بإخوة القردة والخنازير !

وجاء نعيم بنى قُريظة وقال لهم :

ـــ كنت عند أبى سفيان وقد جاءه رسولكم فقال : لو طلبوا منى عناقا(١) ما دفعتها لهم .

وضايق حيى بن أخطب أن تختلف كلمة الأحزاب وبنى قريظة فجاء حيى لبنى قريظة وراح يزين لهم الخروج لقتال محمد ، فلم يجد منهم موافقة له وقالوا :

ـــ لا نقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلا من قريش وغطفان رُهُنا عندنا .

ووقع الاختلاف والخذلان بينهم ، وبعث الله تعالى ريح الصفا فى ليال شديدة البرد فنقلت بيوتهم وقطعت أطنابها ، وكفأت قدورهم على أفواهها ، وصارت تلقى الرجال على أمتعتهم ، وأطفأت نيرانهم . وكانت الريح صفراء ملأت عيونهم ودامت عليهم .

كانت تلك الليلة شديدة البرد والريح فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، شديدة الظلمة ، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون :

ـــ إن بيوتنا عورة وحيطانها قصيرة يخشى عليها السرقة ، فأذن لنا أن نرجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرارينا .

فيأذن ـــ ﷺ ـــ لهم . ولم يبق معه عليه السلام تلك الليلة إلا

---

(١) العناق : الأنثى من ولد المعز .

ثلاثمائة .

وبلغ رسول الله — ﷺ — اختلاف كلمتهم فقال :

— ألا رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ أسأل الله أن يكون معى يوم القيامة .

فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد .

وكرر عليه السلام قوله : ألا رجل يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة ؟ فلم يجبه أحد .

فقال أبو بكر الصديق :

— يا رسول الله حذيفة .

فمر رسول الله — ﷺ — على حذيفة بن اليمان وما يحميه من العدو والبرد إلا مرط لامرأته ما يجاوز ركبتيه . وهو جاث على ركبتيه فقال عليه السلام :

— من هذا ؟

— حذيفة .

— حذيفة ؟!

فتقاصر حذيفة بالأرض قال :

— بلى يا رسول الله .

— أما سمعت صوتى ؟

— نعم .

— فما منعك أن تجيبنى ؟

— البرد .

— لا برد عليك حتى ترجع . قم !

فقام حذيفة فقال عليه السلام :

ـــ إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم .

ـــ والله ما بى أن أقتل ، ولكن أخشى أن أوسر .

ـــ إنك لن تؤسر ، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته .

فلما ولى ناداه عليه السلام فقال له :

ـــ لا ترم بسهم ولا حجر ولا تضربن بسيف حتى تأتينى .

فانطلق حذيفة والريح تزمجر وتقطع أطناب الخيام وتلقى القدور حتى جاء إليهم ودخل فى غمارهم ، فسمع أبو سفيان يقول :

ـــ يا معشر قريش ليتعرف كل امرىء منكم جليسه واحذروا الجواسيس والعيو ن .

وخشى حذيفة أن يفطن به فأخذ بيد جليسه على يمينه وقال :

ـــ من أنت ؟

ـــ معاوية بن أبى سفيان .

وقبض يد من على يساره وقال :

ـــ من أنت ؟

ـــ عمرو بن العاص .

فقال أبو سفيان :

ـــ يا معشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام ولقد هلك الكراع والخف ، واختلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل .

ووثب على جمله وكان الجمل معقولا ، فلما ضربه وثب على ثلاث

قوائم . ثم حل عقاله فقال له عِكرمة بن أبى جهل :

ــ إنك رأس القوم وقائدهم تذهب وتترك الناس ؟

فاستحيا أبو سفيان وأناخ جمله وأخذ بزمامه وهو يقوده وقال :

ــ ارحلوا .

فجعل الناس يرحلون وهو قائم ، ثم قال لعمرو بن العاص :

ــ يا أبا عبد الله نقيم فى جريدة من الخيل بإزاء محمد وأصحابه ، فإنا لا نأمن أن نُطلب .

فقال عمرو :

ــ أنا أقيم .

وقال لخالد بن الوليد :

ــ ما ترى أبا سليمان ؟

ــ أنا أيضا أقيم .

فأقام عمرو وخالد فى مائتى فارس وسار جميع العسكر . ورأى حذيفة ابن اليمان أبا سفيان وحده ، إنه يفكر فى أن يصوب إليه سهما ويقضى عليه لولا عهد رسول الله ــ ﷺ ــ حين بعثه أن لا يحدث شيئا .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فدخلت العسكر ، فإذا الناس فى عسكرهم يقولون :

ــ الرحيل الرحيل لا مقام لكم .

والريح تقلبهم على بعض أمتعتهم وتضربهم بالحجارة . فلما اطمأن حذيفة إلى أن الأحزاب قد شدوا الرحال للرحيل عاد إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فوجده قائما يصلى ، فأخبره الخبر فضحك حتى بدت ثناياه فى سواد الليل .

وعاود حذيفة البرد فجعل يقرقف ، فأومأ إليه رسول الله — ﷺ — بيده فدنا منه فسدل عليه من فضل شملته فنام ، ولم يزل نائما حتى الصبح . فلما أن أصبح قال له رسول الله — ﷺ :

— قم يا نومان .

ونظر رسول الله — ﷺ — إلى عسكر الأعداء فإذا بالأحزاب قد رحلوا ، فقال عليه السلام :

— الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم .

وأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا * وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا * ولو دُخِلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا * قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذًا لا تمتعون إلا قليلا * قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا * قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يُغشَى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد

أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا * لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا *ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾[1] .

---

(١) الأحزاب ٩ — ٢٢ .

٥

هزم الله الأحزاب وحده بعد أن زاغت أبصار المؤمنين وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون ، فنادى أبو سفيان بالرحيل ليلحق بمكة وقد انهارت آمال الأحزاب فى استئصال المسلمين . وقد عبر أبو سفيان فى كتاب أرسله إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن مشاعره عقب الانسحاب جاء فيه : « باسمك اللهم . فإنى أحلف باللات والعزى وإساف ونائلة وهبل ، لقد سرت إليك فى جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبدا حتى أستأصلكم فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها وإنما كانت تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها ، وما فعلت هذا إلا فرارا من سيوفنا ولقائنا ولك منى يوم كيوم أحد » .

فأرسل إليه ﷺ ـــ جوابه فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى صخر بن حرب ، أما بعد فقد أتانى كتابك وقديما غرك بالله الغرور . أما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإسافا ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك يا سفيه بنى غالب » .

ورجع رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الخندق بعد حصار شديد دام خمس عشرة ليلة ابتلى فيه المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، واستشهد منهم أنس بن أوس بن عتيك من بنى عبد الأشهل قتله خالد بن الوليد ، وعبد الله بن سهل الأشهيلى وثعلبة بن عَنَمة بن عدى قتله هُبيرة بن أبى وهب ، وكعب

ابن زيد من بنى دينار قتله ضرار بن الخطاب والطُّفيل بن النعمان ، وجرح سعد بن معاذ جرحا شديدا . وقتل من المشركين عثمان بن أمية بن منبه من بنى عبد الدار ، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة ، وعمرو بن عبد ود وابنه حِسْل بن عمرو قتلهما على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وبلغ رسول الله — ﷺ — المدينة وقت الظهر فصلى بالناس الظهر ، ثم دخل بيت عائشة ودعا بماء فاغتسل ، ودعا بالمجمرة ليتبخر . وبينا هو يستريح وقد وضع السلاح إذ نادى مناد :

— عذيرك من محارب (أى من يعذرك) .

فارتاع لذلك رسول الله — ﷺ ، ووثب وثبة منكرة ، وخرج وخرجت عائشة فى أثره فإذا رجل على دابة والنبى — ﷺ — يكلمه ، فرجعت عائشة وقال الرجل وكان جبريل عليه السلام :

— أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟

— نعم .

— ما وضعتُ السلاح .

وكيف يضع جبريل السلاح وهناك بنو قريظة الذين نقضوا العهد أثناء المعركة ، إن ما فعلوه ليس بخيانة فحسب بل هو تآمر على الدولة ، ولولا فضل الله لقضى على نبى الإسلام والإسلام ، فقال جبريل عليه السلام :

— إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم الحصون .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إن فى أصحابى جهدا فلو نظرتهم أياما .

— انهض إليهم .

ودخل رسول الله عليه السلام داره فقالت عائشة :

— من ذلك الرجل الذى كنت تكلمه ؟

— ورأيته ؟

— نعم .

— بمن تشبهينه ؟

— بدحية الكلبى .

— ذاك جبريل عليه السلام أمرنى أن أمضى إلى بنى قريظة .

فأمر عليه السلام بلالا أن يؤذن فى الناس : « من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » . وبعث مناديا ينادى :

— يا خيل الله[1] اركبى .

وتجمع المسلمون فى عدة القتال ، وخرج رسول الله — ﷺ — وقد لبس السلاح — الدرع والمغفر والبيضة — وأخذ قناة وتقلد السيف وركب فرسه اللّجيف ، فالتفّت الناس حوله قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل وهم ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرسا له منها ثلاثة ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وكان اللواء على حاله لم يُحلّ من مرجعه — ﷺ — من الخندق ، فدفعه إلى على بن أبى طالب . فاندفع على بن أبى طالب فى زقاق بنى غنم من بنى النجار فإذا الغبار يتصاعد حتى كاد يحجب الرؤيا . فلما دنا على بن أبى طالب من الحصن ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وغرز اللواء عند أصل الحصن ، سمع من بنى قريظة مقالة قبيحة فى حقه — ﷺ — وحق أزواجه ، فسكت

---

(١) يا فرسان الله .

المسلمون وقالوا :

— السيف بيننا وبينكم .

وكره على كرم الله وجهه أن يسمع رسول الله — ﷺ — من بنى قريظة ما يسيئه . فلما رأى رسول الله عليه السلام مقبلا أمر أبا قتادة الأنصارى أن يلزم اللواء ورجع إليه — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث .

— لعلك سمعت منهم لى أذى .

— نعم يا رسول الله .

— لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .

فلما دنا رسول الله — ﷺ — من حصونهم قال :

— يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ أتشتمونى ؟

فجعلوا يحلفون ويقولون :

— ما قلنا .

— يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

وتقدم أسيد بن حُضير إلى يهود فقال لهم :

— يا أعداء الله لا تبرحوا من حصنكم حتى تموتوا جوعا ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى جحر .

— يا بن الحضير نحن مواليك .

وخافوا ، قال :

— لا عهد بينى وبينكم .

وكيف يكون بينه وبينهم عهد وقد نقضوا عهد رسول الله — ﷺ — فى الوقت الذى جاءت الأحزاب لتستأصل المسلمين والإسلام ، ولم

يكتفوا بنقض العهد بل تآمروا على سلامة الدولة .

وشغل جماعة من الصحابة ما لم يكن لهم منه بد عن المسير لبنى قريظة ليصلوا بها العصر ، فأخروا صلاة العصر إلى أن جاءوا بعد عشاء الآخرة وبعضهم قال :

ــ نصلى ، ما يريد رسول الله ــ ﷺ ــ منا أن ندع الصلاة ونخرجها عن وقتها ، وإنما أراد الحث على الإسراع .

فصلوا فى أماكنهم ثم ساروا فما عابهم الله فى كتابه ولا عنفهم رسول الله ــ ﷺ .

واستمر حصار بنى قريظة وطعام الصحابة التمر يرسل به سعد بن عبادة . وكان حيى بن أخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد ، فلما جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب وأيقنوا أن رسول الله ــ ﷺ ــ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد لهم :

ــ يا معشر يهود قد نزل بكم ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم .

ــ ما هى ؟

ــ نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل وأنه الذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من بنى إسرائيل . ولقد كنت كارها لنقض العهد ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس .

والتفتت العيون إلى حُيى بن أخطب وقد ملئت حقدا . واستمر كعب

فى مقالته :

ـــ أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم : إنه يخرج بهذه القرية نبى فاتبعوه وكونوا له أنصارا وتكونوا آمنتم بالكتـاب الأول والآخر . ..

فارتفعت الأصوات قائلة :

ـــ لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره .

فقال كعب فى يأس :

ـــ فإذا أبيتم على هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا يخشى عليه ، وإن نظفر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء ؟

ـــ نقتل هؤلاء المساكين ؟! فما خير العيش بعدهم ؟

ـــ فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وإن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة .

ـــ نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من علمت وأصابه ما لم يخف عليك ؟

ولم يكن عمرو بن سعدى معهم لما نقضوا عهد رسول الله ـــ ﷺ ، إنه قال لهم قبل أن يقدم النبى ـــ ﷺ ـــ لحصارهم :

ـــ يا بنى قريظة لقد رأيت عبرا : رأيت دار إخواننا خالية بعد ذلك العز والخلد والشرف والرأى الفاضل والعقل . تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم وخرجوا خروج ذل . لا والتوراة ما سلط هذا على قوم قط ولله بهم

حاجة . وقد أوقع ببنى قينقاع وكانوا أهل عدة وسلاح ونخوة ، فلم يخرج أحد منهم رأسه حتى سباهم ، فكلم فيهم فتركهم على إجلائهم من يثرب .

يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعونى وتعالوا نتبع محمدا ، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبى وقد بشرنا به علماؤنا .

ثم لا زال يخوفهم بالحرب والسبى والجلاء ، ثم أقبل على كعب بن أُسيد وقال :

— والتوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام يوم طور سيناء إنه للعز والشرف فى الدنيا .

فبينا هم على ذلك لم يرعهم إلا مقدمة النبى — ﷺ — قد حلت بساحتهم فقال :

— هذا الذى قلت لكم .

كان ذلك منه عقب الخندق ، فلما طال الحصار واشتد الجدل قال :

— قد خالفتم محمدا فيما خالفتموه و لم أشرككم فى غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية ، فوالله ما أدرى يقبلها أم لا ؟

— نحن لا نقر للعرب بخراج فى رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .

— فإنى برىء منكم .

وخرج فى تلك الليلة فمر بحرس رسول الله — ﷺ — وعليه محمد بن مسلمة ، فقال محمد بن مسلمة :

— من هذا ؟

— عمرو بن سعدى .

— مر ، اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام .

وغاب عمرو بن سعدى فى سواد الليل ، ثم وجدت رمته وأخبر رسول الله — ﷺ — خبره فقال :

— هذا رجل نجاه الله بوفائه .

٦

مرت الأيام ويهود بنى قريظة فى الحصون وقد استمر المسلمون فى حصارهم ، وبدأت المؤن تنفد ووجفت القلوب فالموت جوعا يهدد الذين فجروا فى عهدهم وانقادوا إلى حيى بن أخطب المشئوم .

وراح زعماء بنى قريظة يتشاورون فرأوا أن يرسلوا بنباش بن قيس إلى رسول الله ــ ﷺ ــ أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة (السلاح) فأبى رسول الله ــ ﷺ ــ أن يحقن دماءهم ويسلم لهم نساءهم والذرية .

وعاد زعماء بنى قريظة يتشاورون وقد ألقى الرعب فى قلوبهم وقد ملأت جريمتهم أقطار رءوسهم : إنهم قبلوا أن يسلموا محمدا عليه السلام والذين معه إلى أعدائهم وإن الحكم فى مثل هذه الخيانة هو الإعدام ، فإن استطاعوا أن ينقذوا رءوسهم فقد نالوا خيرا كثيرا ، فأرسلوا ثانية بنباش ابن قيس إلى رسول الله ــ ﷺ ــ بأنه لا حاجة لهم بشىء من الأموال لا من الحلقة ولا من غيرها ، فأبى رسول الله ــ ﷺ ــ إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ــ ﷺ .

وعاد نباش بن قيس إلى الحصن وقد نكس رأسه ولاح فى وجهه أعمق الأسى وقد ذهبت نفسه شعاعا ، وما إن أعلن تصميم رسول الله ــ ﷺ ــ على أن ينزلوا على حكمه حتى زاغت الأبصار وطاشت العقول وتعلقت العيون بساداتهم وقد ملئت ضراعة أن يهتدوا إلى رأى ، فقد كادوا جميعا أن يموتوا من الجزع والخوف .

كان أبو لُبانة مناصحا لهم وكان ولده وعياله فيهم ، فأرسلوا إلى رسول الله ـ ﷺ :

ـ ابعث إلينا أبا لبانة لنستشيره فى أمرنا .

فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ أبا لبانة وقال له :

ـ اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس .

فذهب إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه من شدة الحصار وتشتيت مالهم ، فرق لهم فقام كعب بن أسيد فقال :

ـ يا أبا بشير قد عرفت ما بيننا ، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا ومحمد لا يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه ، فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر ولم نطأ له أرضا ولم نكثر عليه جمعا أبدا . ما ترى ـ قد اخترناك على غيرك ـ أننزل على حكم محمد ؟

فقال أبو لبانة :

ـ نعم فانزلوا .

وأومأ إلى حلقه بالذبح فوالله ما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف أنه خان الله ورسوله ، فندم وقال فى خوف شديد .

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون .

وسربله الخزى وعلاه القهر وجعل ضميره يؤنبه ويخزه وخزا شديدا ، فقال له كعب :

ـ مالك يا أبا لبانة ؟

فقال فى صوت متهدج وقد غلفه الندم :

ـ خنت الله ورسوله .

وملأت عينيه الدموع ، ثم انطلق على وجهه فلم يأت رسول الله ﷺ ، وذهب إلى المسجد وكان الحر شديدا ، ولكن النار التى تلظت فى جوفه كانت أشد حرا ففكرة أنه خان الله ورسوله كانت تلسعه لسعا يعذبه عذاب الهون .

وارتبط بالمسجد إلى عمود من عمده بسلسلة ثقيلة، وكان العمود عند باب أم سلمة زوج النبى ـــ ﷺ ، وكان أكثر تنفل رسول الله ـــ ﷺ ـــ عند ذلك العمود ، وكان ينصرف إليه من صلاة الصبح فكان يستبق إليه الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فيجئ إليهم ـــ ﷺ ، ويتلو عليهم ما أنزل إليه من ليلته ويحدثهم ويحدثونه .

وكان ما فعله أبو لبانة غير مألوف ، فخف إليه أناس من المسلمين يسألونه الخبر فقال فى انفعال شديد :

ـــ والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على مما صنعت .

وعاهد الله أن لا يطأ بنى قريظة أبدا ولا يرى فى بلد خان الله ورسوله فيه أبدا .

واستبطأ رسول الله عليه السلام أبا لبانة ، وفيما هو يرقب وفوده عليه إذ جاء أناس من المدينة وأخبروه عليه السلام خبره فقال :

ـــ أما لو جاءنى لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه .

وظل أبو لبانة مرتبطا فى العمود تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم تعود فتربطه . وكان فى مسجد رسول الله ـــ ﷺ ـــ خيام يداوى بها جرحى الخندق ، وكان سعد بن معاذ سيد الأوس فى خيمة

لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة كانت تداوى الجرحى محتسبة .

وما كان أمام يهود بنى قريظة إلا أن يسلموا أو يموتوا جوعا ، فنزلوا على حكمه ــ ﷺ ، فأمر بهم فكتفوا وجعلوا ناحية وكانوا سبعمائة وخمسين مقاتلا ، وأخرج النساء والذرارى من الحصون وجعلوا ناحية وكانوا ألفا ، واستعمل إليهم عبد الله بن سلاّم .

وتذكر الأوس أن رسول الله ــ ﷺ ــ قد وهب بنى قينقاع لعبد الله ابن أبى بن سلول بعد أن نزلوا على حكمه عليه السلام ، فطمعوا فى أن يهب إليهم حلفاءهم فتواثبت الأوس وقالوا :

ــ يا رسول الله موالينا وحلفاؤنا وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد فعلت .

طلبت الأوس من رسول الله ــ ﷺ ــ أن يهب لهم بنى قريظة كما وهب بنى قينقاع للخزرج ، ولكن شتان بين جريمة بنى قينقاع وجريمة بنى قريظة ؛ لقد سخر بنو قينقاع بامرأة مسلمة بينما تآمر بنو قريظة على أمن الدولة ، ولولا لطف الله لا ستأصلت الأحزاب الإسلام والمسلمين . فلما كلمته الأوس أبى أن يفعل ببنى قريظة ما فعله ببنى قينقاع ثم قال :

ــ أما ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟

قالوا :

ــ بلى .

فقال رسول الله ــ ﷺ ــ ليهود بنى قريظة :

ــ اختاروا من شئتم من أصحابى .

ــ ننزل على حكم سعد بن معاذ .

كان سعد بن معاذ فى المسجد فى خيمة رفيدة ، وقد كان — ﷺ — قال لقوم سعد بن معاذ حين أصابه السهم فى الخندق : « اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده عن قرب » . فأتاه قومه فحملوه على حمار ووطئوا له وسادة من أدم ثم أتوا به رسول الله — ﷺ — وهم يقولون له :

— يا أبا عمرو أحسن فى مواليك ، فإن رسول الله — ﷺ — إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم .. فأحسن فيهم فقد رأيت ابن أبى وما صنع فى حلفائه .

فلما أكثروا عليه قال :

— لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم .

فقال بعضهم :

— واقوماه !

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد لكلمته التى سمع منه ، فقد كان واضحا وضوح النهار أن جزاء الخيانة التى تهدد أمن الدولة هو القتل إن أراد القاضى العدل المطلق دون أن يتأثر بهوى أو حلف ، وقد أعلنها سعد بن معاذ ناصعة لاشية فيها أن قد آن له ألاّ تأخذه فى الله لومة لائم .

وانتهى سعد إلى رسول الله — ﷺ — والمسلمين ، فقال رسول الله — ﷺ :

— قوموا إلى سيدكم فأنزلوه .

فقال عمر بن الخطاب :

— السيد هو الله .

وقال المهاجرون من قريش :

ـــ إنما أراد رسول الله الأنصار .

والأنصار يقولون :

ـــ قد عم بها رسول الله ـــ ﷺ .

فقاموا إليه فقالوا :

ـــ يا أبا عمرو إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

وانتهى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال عليه السلام :

ـــ احكم فيهم يا سعد .

ـــ الله ورسوله أحق بالحكم .

ـــ قد أمرك الله أن تحكم فيهم .

فالتفت سعد إلى الناحية التى ليس فيها رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟

ـــ نعم .

وأشار إلى الناحية التى فيها رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو معرض عن رسول الله عليه السلام إجلالا له فقال :

ـــ وعلى من ههنا مثل ذلك ؟

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ نعم .

قال سعد لبنى قريظة :

ـــ أترضون بحكمى ؟

ـــ نعم .

فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم به ثم قال :

ـــ فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتغنم الأموال وتسبى الذرارى والنساء وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار .

فقالت الأنصار :

ـــ إخواننا لنا معهم .

فقال سعد :

ـــ إنى أحببت أن يستغنوا عنكم .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لسعد :

ـــ لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .

وأمر ـــ ﷺ ـــ أن يجمع ما وجد فى حصونهم من الحلقة والسلاح وغير ذلك فجمع ، فوَجد فيها ألفا وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفى رمح وخمسمائة ترس وجحفة ، ووجد أثاثا كثيرا وآنية كثيرة وجمالا نواضح يسقى عليها الماء وماشية وشياها كثيرة . وخمس ذلك مع النخل والسبى حتى الرثة وهى السقط من أمتعة البيت خمسة أجزاء ، فوزع أربعة أسهم على الناس فجعل للفارس ثلاثة أسهم سهما له وسهمين لفرسه ، وللراجل سهما وهو أول فىء وقعت فيه السهام ، وأخذ هو ـــ ﷺ ـــ جزءا وهو الخمس ليرده على الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات .

ووجد جرار خمر فأهريق و لم يخمس . ثم إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ أمر بالأسارى أن يكونوا فى دار أسامة بن زيد . والنساء والذرية فى دار ابنة الحرث النجارية ، فقد كانت تلك الدار معدودة لنزول الوفود من العرب . وبالمتاع أن يحمل ، وترك المواشى هناك ترعى الشجر .

وانصرف رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ، وانطلق أسارى بنى قريظة والأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون وقد نكسوا رءوسهم خزيا وما دروا بحكم سعد بن معاذ فيهم ، ولو كان قد بلغهم حكمه لانطلقت أصوات الجزع من الحناجر ولسالت الدموع على الخدود ، وحبس الأسارى فى دار أسامة بن زيد ، ووضع النساء والذرية فى دار بنت الحارث ، وبات يهود بنى قريظة ينتظرون ما يفعل بهم .

٧

خرج رسول الله ــ ﷺ ــ إلى سوق المدينة فحفر بها خنادق وجلس هو وأصحابه ، وجاء سعد بن عبادة والحباب بن المنذر فقالا :

ــ يا رسول الله إن الأوس قد كرهت قتل بنى قريظة لمكان حلفهم .

فقال سعد بن معاذ :

ــ ما كرهه أحد من الأوس فيه خير ، فمن كرهه فلا أرضاه الله .

فقام أسيد بن حضير فقال :

ــ يا رسول الله لا تبق دارا من دور الأوس إلا فرقتهم فيها .

ففرق بعضهم فى دور الأوس ليضربوا أعناقهم ، وبعث إلى من بقى منهم فى دار أسامة بن ثابت فجاءوا إليه أرسالا . فالتفت بعضهم لسيدهم كعب بن أسد وقال :

ــ يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟

ــ فى كل موقع لا تعقلون ، ألا ترون أن من يذهب منكم لا يرجع ، هو والله القتل ، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم على .

ــ ليس حين عتاب .

وأوتى بحُيى بن أخطب وعليه حلة له فى لون الورد حين هم أن يتفتح ، قد شقها عليه من كل ناحية قيد أنملة لئلا يُسلَبها ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . فلما نظر إلى رسول الله ــ ﷺ ــ قال :

ــ أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولكن من يَخذل الله يُخذل .

ثم أقبل على الناس فقال :

— أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كُتبت على بنى إسرائيل . ثم جلس فضرب عنقه ، فقال جبل بن جوّال الثعلبى :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه
ولكنه من يخذل الله يُخذل

لجاهد حتى أبلغ النفس عُذرها
وقلقل[1] يبغى العز كل مقلقل

وراح على بن أبى طالب والزبير بن العوام يقطان الرءوس على شعل السعف فى جوف الليل ، وقد صاحت نساء بنى قريظة وشقت جيوبها ونشرت شعورها وضربت خدودها وملأت المدينة نواحا ، وأوتى بكعب ابن أسيد فاشتد العويل وضرب الخدود فسيد بنى قريظة قد جلس ليضرب عنقه ، فقال له — صلى الله عليه وسلم — :

— يا كعب .

— نعم يا أبا القاسم .

— ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم وكان مصدقا بى ، أما أمركم باتباعى وإن رأيتمونى تقرئونى منه السلام ؟

— بلى والتوراة يا أبا القاسم ، ولولا أن تعيرنى يهود بالجزع من السيف لا تبعتك ولكنه على دين يهود .

فأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يضرب عنقه .

ودخلت امرأة من نسائهم يقال لها بنانة امرأة الحكم القرظى على عائشة أم المؤمنين وكانت جارية حلوة ، فطفقت تتحدث مع عائشة وتضحك

---

(١) قلقل : تحرك .

ظهرا وبطنا ورسول الله عليه السلام يقتل رجالها فى السوق ، إذ هتف هاتف باسمها فقالت :

ـــ أنا والله .

فقالت لها عائشة فى دهش :

ـــ ويلك ؟ ما لك ؟

ـــ أُقتل .

ـــ ولم ؟

ـــ قتلنى زوجى .

ـــ كيف قتلك زوجك ؟

ـــ أمرنى أن ألقى رحى على أصحاب محمد كانــوا تحت الحصن مستظلين فى فيئه ... كان بينى وبينه كأشد ما يتحاب الزوجان . فلما اشتد أمر المحاصرة قلت لزوجى : يا حسرتى على أيام الوصال كادت أن تنقضى وتتبدل بليالى الفراق . وما أصنع بالحياة بعدك ؟ فقال زوجى : إنك صادقة فى دعوى المحبة ، تعالى فإن جماعة من المسلمين جالسون فى ظل حصن فألقى عليهم حجر الرحا لعله يصيب واحدا منهم فيقتله . فإن ظفروا بنا فإنهم يقتلونك بذلك . فألقيت عليهم حجر الرحا فأدركت خلاد بن سويد فشدخت رأسه فمات وأنا أقتل به .

وخرجت للقتل ، وعائشة أم المؤمنين تعجب لطيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل .

وكان الزبير بن باطا القرظى وكان يكنى أبا عبد الرحمن قد منَّ على ثابت بن قيس بن شمَّاس فى الجاهلية يوم بعاث ، أخذه فجزَّ ناصيته ثم خلا سبيله ، فجاءه ثابت وهو شيخ كبير فقال :

ـ يا أبا عبد الرحمن هل تعرفنى ؟

ـ وهل يجهل مثلى مثلك !

ـ إنى قد آن أن أجزيك بيدك عندى .

ـ إن الكريم يجزى الكريم .

ثم أتى ثابت رسول الله ـ ﷺ ـ فقال :

ـ يا رسول الله قد كان للزبير عندى يد وله علىّ منّة . وقد أحببت أن أجزيه فهب لى دمه .

فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ هو لك .

فأتاه فقال :

ـ إن رسول الله ﷺ قد وهب لى دمك .

ـ شيخ كبير لا أهل له ولا ولد ، فما يصنع بالحياة ؟

فأتى ثابت رسول الله ـ ﷺ ـ فقال :

ـ يا رسول الله أهله وولده .

ـ هم لك .

فأتاه فقال :

ـ إن رسول الله ـ ﷺ ـ قد أعطانى امرأتك وولدك فهم لك .

ـ أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك ؟

فأتى ثابت رسول الله ـ ﷺ ـ فقال :

ـ يا رسول الله ماله .

ـ هو لك .

فأتاه فقال :

— إن رسول الله — ﷺ — قد أعطانى مالك فهو لك .

— أى ثابت ، ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحى ، كعب بن أسيد ؟

— قُتل .

— فما فعل سيدُ الحاضر والبادى حيى بن أخطب ؟

— قتل .

— فما فعل مقدِّمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزّال بن صموئيل ؟

— قتل .

— ما فعل المجلسان ؟

وفهم ثابت أنه يقصد بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة فقال :

— ذهبوا وقتلوا .

— فإنى أسألك بيدى عندك يا ثابت إلا ألحقتنى بالقوم ، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء خير . أأرجع إلى دار قد كانوا حلولا فيها فأخلد فيها بعدهم ؟! لا حاجة لى فيها . ألحقنى بهم فلست معابرا عنهم إفراغة دلو حتى ألقى الأحبة .

— ما كنت لأقتلك .

— لا أبالى من قتلنى .

فقتله الزبير بن العوام . ولما بلغ أبا بكر مقالته « ألقى الأحبة » قال :

— يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا فيها مخلدا .

كان القتل لكل من أنبت ، ومن لم ينبت يكون فى السبى . وكان عطية القرظى غلاما فوجدوه لم ينبت فخلوا سبيله عن القتل ، وقد شرح الله قلبه

للإسلام بعد ذلك فدخل فى دين الله . وكان رفاعة قد أنبت فأرادوا قتله فلاذ بسلمى بنت قيس أم المنذر وكانت إحدى خالات جده عبد المطلب ، فقالت :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، هب لى رفاعة .

فوهبه لها ، فألقى الله فى قلبه أنوار اليقين فأسلم وجهه لله رب العالمين .

وكان سعد بن معاذ ينظر إلى قتل بنى قريظة وهو راضى النفس ، فإنه لما أصيب بالسهم فى الخندق قال يناجى ربه : لا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة ، وقد أقر الله عينه وشفى صدره فلم يعد يحفل على أى جنب يموت .

وانفجر جرح سعد بن معاذ وسال الدم ، واحتضنه — ﷺ — فجعلت الدماء تسيل على رسول الله — ﷺ ، فمات منه وحمل إلى منزله . وراح أشراف الرجال يحفرون قبر سعد بن معاذ سيد قومه وفى القلوب حسرة وفى الحلوق غصة وفى العيون دمع ، وحمل نعش سعد وكان جسيما فلم يستشعر الذين حملوه ثقله فالحزن الذى نزل بالأفئدة كان ثقيلا ، أنسى الرجال وطأة الجسم الثقيل الذى كانوا يحملونه .

ودفن سعد ، ورسول الله — ﷺ — ينظر وقد لاح فى وجهه الأسى العميق ومن حوله صحابته من الأنصار والمهاجرين ، فسبح رسول الله — ﷺ ، فسبح الناس معه ، ثم كبر فكبر الناس معه .

وجاءت أم سعد ونظرت إليه فى اللحد وقالت وهى تشرق بدموعها :

— أحتسبك عند الله .

وعزاها رسول الله — ﷺ — وهو واقف على قدميه على القبر ، فلما

سوى التراب على قبره ناحت عليه أمه ، فقال ـــ ﷺ ـــ :

ـــ كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ .

ثم أمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالغنائم فجمعت ، فاصطفى لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خناقة إحدى نساء عمرو بن قريظة . ثم أخرج الخمس من المتاع والسبى ، ثم أمر بالباق فبيع فيمن يزيد وقسمه بين المسلمين . وكانت السُهمان على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهما ، للفرس سهمان ولصاحبه سهم . واستعمل عليه السلام محمية بن جزء الزبيدى وكان من مهاجرة الحبشة على الأخماس ، فكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يعتق منه ويهب ويخدم منه من أراد . وقال عليه السلام لمن أخذوا السبايا :

ـــ من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة .

كان المسلمون لا يمتلكون إلا جوادا واحدا يوم بدر . وقد نصرهم الله ببدر وهم أذلة . وكانت غزوة أحد وقد فعل فرسان المشركين بالمسلمين الأفاعيل ، فرأى رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يهتم بفرسان المسلمين وأن يسلحهم تسليحا خفيفا ، فاهتم بتربية الخيل ولكن ذلك يحتاج إلى وقت طويل . فلما أصبحت الأموال بين يديه بعد غزوة بنى قريظة بعث سعد ابن زيد الأنصارى إلى نجد ليبتاع لهم خيلا وسلاحا ، وبعث سعد بن عبادة إلى الشام ليشترى سلاحا ، فصار عنده ـــ ﷺ ـــ خيل كثير وسلاح كثير فقسمها على المسلمين . وكون عليه السلام أول فرق فرسان المسلمين تلك الفرق التى ستزلزل ملك الروم وتدك حصون الفرس وترفع رايات الإسلام خفاقة على الحصون .

ودخل عليه السلام المدينة فاستقبله المسلمون بالتكبير . وتجاوبت فى أرجاء المكان على طول الطريق أهازيج النصر المبين ودخل عليه السلام

المسجد ليصلى ركعتين لله شكرا قبل أن يتجه إلى دار ابنته فاطمة الزهراء ليحيى أهل البيت قبل أن يدخل على نسائه ، فإذا بأبى لبانة لا يزال مربوطا بسلاسل إلى أسطوانة قريبة من دار أم سلمة ، فهو ينتظر أمر الله فيه ، فلم يتقدم عليه السلام ليفكه فما كان له أن يفعل بعد أن قال أبو لبانة : « والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علىّ » .

وعاد المسلمون إلى دورهم والحر شديد ، وأبو لبانة قد ارتبط بالمسجد إلى عمود منّ عمده وقد دب فى جسده الوهن وراح العرق يتفصد من جسده ، تأتيه امرأته أو ابنته فى وقت كل صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيربط بالعمود حتى كاد يذهب سمعه وبصره .

وفى عماية الصبح خرج رسول الله — ﷺ — يتنفل عند الأسطوانة التى ارتبط بها أبو لبانة . ثم انصرف إليها بعد صلاة الصبح فراح يستبق إليها الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فراح رسول الله عليه السلام يتلو عليهم ما أنزل إليه : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾(١) .

وجعل أبو لبانة يرهف سمعه لعله يسمع أن الله قد تاب عليه ، ولكن رسول الله عليه السلام قد تلا ما أنزل إليه من ربه وما كان فيه إشارة إلى توبة الله عليه ، فاستشعر حزنا على حزنه وإن لم يقنط من رحمة ربه ، فقد كان على يقين من أن الله يغفر الذنوب جميعا .

---

(١) الأحزاب ٢٦ — ٢٧ .

وأبت ريحانة بنت عمرو الإسلام فعزلها — ﷺ — ووجد فى نفسه لذلك ، فبينا هو فى مجلس من أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال :

— إن هاتين لنعلا مبشرى بإسلام ريحانة .

فجاء رجل وأخبره أن ريحانة أسلمت فسر بذلك فأعتقها . وبعد استبرائها بحيضة تزوجها وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا . و لم يشأ أن تكون فى ملكه يطؤها بالملك فقد جاء عليه السلام ليجفف روافد الرق ويشجع الناس على العتق .

ودخل عليه السلام بيت أم سلمة ، حتى إذا ما كان السحر سمعت أم سلمة رسول الله — ﷺ — يضحك فقالت :

— مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك ؟

— تيب على أبى لبانة .

فتهللت أم سلمة بالفرح وقالت :

— أفلا أبشره يا رسول الله ؟

— بلى إن شئت .

فقامت على باب حجرتها فقالت :

— يا أبا لبانة أبشر فقد تاب الله عليك .

كانت فاطمة الزهراء تنظر إلى أبى لبانة وقد ارتبط بأسطوانة المسجد والأيام تمر فتستشعر أعمق الأسى ، فلما مس أذنيها نداء أم سلمة أحست قلبها يخفق بالفرح ، فثارت إليه مع الناس الذين هُرعوا إليه ليطلقوه ، فلما رأوا الزهراء تتقدم لتحل وثاقه تأخروا ، ولكن أبا لبانة أبى أن تطلقه وقال :

— لا والله حتى يكون رسول الله — ﷺ — هو الذى يطلقنى بيده .

وبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فقال :

— فاطمة بضعة منى .

وخرج رسول الله — ﷺ — ليصلى الصبح ، فلما مر عليه السلام على أبى لُبانة أطلقه فإذا بالدموع تنهمر من عينى الرجل ويقول فى انفعال :

— من تمام توبتى أن أهجر دار قوم أصبت فيها الذنب ، وأن أخلع من مالى .

— يكفيك الثلث أن تتصدق به .

و لم يأمره — ﷺ — أن يهجر تلك الدار التى أصاب فيها الذنب ، وراح المسلمون يتلون فى المساجد ما أنزل الله فيه : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾[1] .

---

(١) التوبة ١٠٢ .

٨

عاد عمرو بن العاص بعد غزوة الخندق إلى مكة فراحت الأفكار تنثال على رأسه ، وراح يفكر فى تلك الريح التى هبت فاقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم على أفواهها وصارت تلقى الرجال على أمتعتهم وأطفأت نيرانهم بعد أن قبلت بنو النضير أن تفجر فى عهدها لمحمد وصحبه وكاد النصر أن يتم للأحزاب ، فاستشعر فى أعماقه أن قوة قادرة تساند ابن عبد الله وتمده بالعون وتؤيده ، وأن كل الدلائل لتدل أنه سيظهر على قومه وسيكون صاحب الكلمة العليا على قريش بل وعلى الأحزاب !

وتقاصرت نفس عمرو وتذكر ما كان يفعله برسول الله عليه السلام أيام أن كان بمكة ، إنه كان يؤذيه ويشتمه ويضع فى طريقه الحجارة ، ويا طالما هجا رسول الله ـ ﷺ ـ وآله هجاء كثيرا كان يعلمه صبيان مكة فينشدونه ويصيحون برسول الله إذا مر بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يصلى بالحجر : « اللهم إن عمرو بن العاص هجانى ولست بشاعر ، فالعنه بعدد ما هجانى » .

ورن فى أغوار عمرو هجاء حسان بن ثابت له حيث هجاه مكافئا له عن هجاء رسول الله ـ ﷺ :

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت
لنا فيك منه بينات الدلائل

ففاخر به إمَّا فخرت ولا تكن
تفاخر بالعاص الهجين[1] بن وائل

---

(١) الهجين : كريم الأب .

وإن التى ذاك يا عمرو حُكِّمت
فقالت رجاءً عند ذاك لنائل
من العاص عمرو تخبر الناس كلما
تجمعت الأقدام عند المحافل

وتفصد العرق من جبينه فالطاعنون فى نسبه يقولون إن أمه النابغة كانت أمة لرجل من عنزة فسبيت ، فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمى بمكة فكانت بغيا ، ثم أعتقها فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب وأمية بن خلف الجمحى وهشام بن المغيرة المخزومى وأبو سفيان بن حرب والعاص ابن وائل السهمى فى طهر واحد ، فولدته فادعاه كلهم ، فحكمت أمه فيه فقالت :

ــ هو من العاص بن وائل .

وذاك لأن العاص بن وائل كان ينفق عليها كثيرا ، وقال الطاعنون فى نسبه إنه أشبه بأبى سفيان !

وغمره خزى وخوف فقد ملأت رأسه صورته هو وعقبة بن أبى معيط وعمرو بن هشام وقد حملوا بينهم سَلا(١) جمل ووضعوه على رأس محمد ابن عبد الله وهو ساجد بفناء الكعبة ، فصبر و لم يرفع رأسه وبكى فى سجوده ودعا عليهم ، فجاءت ابنته فاطمة وهى باكية فاحتضنت ذلك السلا فرفعته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكى .

ورن فى جنبات عمرو قول محمد فى ذلك الوقت : « اللهم عليك بقريش ... إنى مظلوم فانتصر ... إنى مظلوم فانتصر » . فإذا بقشعريرة

---

(١) كرش الجمل .

تسرى فى ابن العاص من الرأس إلى القدم .

ورأى عمرو نفسه وقد خرج مع الذين خرجوا إلى زينب بنت محمد لما خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة فروعوها وقرعوا هودجها بكعوب الرماح حتى أجهضت جنينا ميتا من أبى العاص بن الربيع .

وطافت بذهنه رحلته إلى الحبشة ؛ إنه خرج يريد النجاشى مع أصحاب السفينة ليأتى بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة . وسرى فى وجدانه ذلك الشعر الذى قاله لما خرج من مكة إلى النجاشى :

تقول ابنتى أين هذا الرحيل ... وما السير منى بمستنكَر
فقلت : ذرينى فإنى امرؤ ... أريد النجاشى فى جعفر
لأكويَه عنده كيَّة ... أقيم بها نخوة الأصعَر [1]
وشأنى أحمد من بينهم ... وأقوَلُهم فيه بالمنكر
وأجرى إلى عتبة جاهدا ... ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أنثنى عن بنى هاشم ... وما اسطعت فى الغيب والمحضر
فإن قبل العتب منى له ... وإلا لويت له مشفرى

إنه هجا محمدا بسبعين بيتا من الشعر وأعلن عداوته لبنى هاشم فلا مقام له فى مكة ، وهو يحس أن أمر محمد يعلو وأن مكة أصبحت قريبة من قبضته ، فجمع رجالا من قريش كانوا يرون رأيه ويسمعون منه فقال لهم :

— والله إنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا ، وإنى قد رأيت رأيا فما ترون فيه ؟

— ما رأيت ؟

---

(١) الأصعر : الذى يميل بخده كناية عن التكبر .

ـ أرى أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشي ، فأن نكون تحت يده أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد ، فإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير .

ـ إن هذا الرأى .

ـ فاجمعوا ما نهدى له .

وكان أحب ما يأتيه من أرض الحجاز الأدم فجمعوا له أدما كثيرا ، فانطلقوا إلى مرفأ مكة وركبوا البحر وعمرو بن العاص يفكر فيما كان بينه وبين عمارة بن الوليد يوم أن خرجا معا إلى أرض الحبشة ليؤلبا النجاشي على جعفر بن أبي طالب وصحبه ، كان عمارة شاعرا عارما فاتكا وكان رجلا جميلا وسيما تهواه النساء صاحب محادثة لهن ، فركبا البحر ومع عمرو بن العاص امرأته ، حتى إذا صاروا فى البحر ليالى أصاب من الخمر معهما ، فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص :

ـ قبلينى .

وكانت الخمر قد لعبت برأس عمرو فقال لامرأته :

ـ قبلى ابن عمك .

فقبلته فهويها عمارة وجعل يراودها عن نفسها فامتنعت منه .

ورأى عمرو بعين خياله نفسه وقد جلس على سكّان السفينة يبول فدفعه عمارة فى البحر .

فلما وقع سبح حتى أخذ بسكان السفينة ، ورن فى أذنيه قول عمارة كأنما قد أتى من جوف بئر :

ـ أما والله لو علمت أنك سابح ما طرحتك ، ولكننى كنت أظن أنك لا تحسن السباحة .

وخفق قلب عمرو بين جنبيه ، ومد بصره إلى الأفق البعيد وقد تحرك حقده على أخى خالد بن الوليد الذى أراد قتله ، وسرعان ما تذكر ما أرسل به إلى أبيه . إنه ما إن وطأت قدماه أرض الحبشة حتى أرسل إلى أبيه العاص بن وائل أن اخلعنى وتبرأ من جريرتى إلى بنى المغيرة وسائر بنى مخزوم .

ورفت على شفتى عمرو بسمة خفيفة فقد علم بعد عودته أن أباه مشى إلى رجال بنى المغيرة وبنى مخزوم لما قدم عليه الكتاب فقال :

ـــ إن هذين الرجلين قد خرجا حيث قد علمتم وكلاهما فاتك صاحب شر غير مأمونين على أنفسهما ولا أدرى ما يكون منهما ، وإنى أبرأ إليكم من عمرو وجريرته فقد خلعته .

فقال عند ذلك بنو المغيرة وبنو مخزوم :

ـــ وأنت تخاف عمرا على عمارة ! ونحن فقد خلعنا عمارة وتبرأنا إليك من جريرته ، فخل بين الرجلين .

ـــ قد فعلتُ .

واتسعت ابتسامة عمرو والسفينة تمخر عباب الماء ، وإنه كان أذكى من أن يقتل عمارة وأن يثير العداوات بين بنى سهم وبنى المغيرة وبنى مخزوم . إنه داهية لم يعرض عنقه لسيف خالد بن الوليد ، فعمارة الوسيم الجميل ما اطمأن بأرض الحبشة حتى دب لامرأة النجاشى فأدخلته فاختلف إليها وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبره بما كان من أمره فيقول :

ـــ لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك .

ورأى من حاله وهيئته وما تصنع المرأة به إذا كان معها ، ما أكد له صدق قوله. إنه يأتيه مع السَّحَر وكانا فى منزل واحد ، فلو احتال عليه ليأتيه بشىء لا يستطاع دفعه لرفع شأنه إلى النجاشى ولجعله يحفر قبره بأظافره ، فقال له فى بعض ما يتذاكرون من أمرها :

ـــ إن كنت صادقا فقل لها فلتدهنك بدهن النجاشى الذى لا يدهن به غيره فإنى أعرفه ، وائتنى بشىء منه حتى أصدقك .

ـــ أفعل .

ووقع عمارة الجميل الصبيح الوسيم فى الفخ الذى نصبه له ، فعاد من عندها يفوح منه أطيب عبير وقد أعطته شيئا فى قارورة فقال له :

ـــ أشهد أنك قد صدقت ! لقد أصبت شيئا ما أصاب أحدٌ من العرب مثله قط ، ونلت من امرأة الملك شيئا ما سمعنا بمثل هذا .

ثم سكت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشى فقال :

ـــ أيها الملك إن معى سفيها من سفهاء قريش وقد خشيت أن يعرَّنى عندك أمرُه وأردت أن أعلمك بشأنه ، وألا أرفع ذلك إليك حتى أستثبت أنه قد دخل على بعض نسائك فأكثر ، وهذا دهنك قد أعطته وادَّهن به .

فلما شم النجاشى الدهن قال :

ـــ صدقت ، هذا دهنى الذى لا يكون إلا عند نسائى .

فلما أثبت أمره دعا بعمارة ثم ألقاه فى الأحراش ليهيم على وجهه مع الوحوش ، وراح عمرو يفرك يديه سرورا وهو يغدو ويروح على ظهر السفينة فقد انتقم من عمارة شر انتقام دون أن يرتكب حماقة تثير الحروب بين بنى سهم وبنى المغيرة .

وراح يترنم بأبيات يذكر فيها ما صنع بعمارة وما أراد عمارة من

امرأته :

تعلَّـــم عُمـــار أن مـــن شر سنَّـــة
على المرء أن يُدعى ابن عم لـه ابنما

أئن كـنت ذا بردين أحـوى مُرَجَّـلا
فـلست بـراع لابـن عـمك محرمـا

إذا المرء لم يتـــرك طعامـــا يحبـه
و لم ينـه قلبـا غاويـا حـيث يممـا

قضى وطـرا منـه يسيرا وأصبـحت
إذا ذكـــرت أمثـــالها تملأ الفمـــا

ومرت أيام وليالى والسفينة تشق طريقها فى الماء ، وعمرو بن العاص يذكر ما كان بينه وبين ابن عبد الله وما كان بينه وبين المسلمين فى الحبشة وفى مكة وفى المدينة أثناء يقظته ومنامه ، فلم يعد يشغل تفكيره غير الإسلام ونبى الإسلام . وفى جوف الليل وقد أطبق الظلام على الكون واختفت نجوم السماء ، رأى نفسه وهو يسير فى طرقات قصر النجاشى يستأذن فى الدخول عليه ، فلما أذن له قدم هدايا الملك إليه ثم قال :

ـــ أيها الملك قد فر إلى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم و لم يدخلوا فى دينك ، جاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا فيهم إليك أشراف قومنا من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاينوه منهم .

وسرعان ما دوى فى عين ذاته صوت جعفر بن أبى طالب وهو يكلم الملك كأنه هزيم الرعد :

ـــ أيها الملك إنا كنا قوما فى جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى

الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله عز وجل علينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا عليه نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن التجاور والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن سائر الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا وبالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا . وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأصنام والأوثان من عبادة الله ونستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

وعجب عمرو بن العاص من نفسه ، فما أكثر أن رنت هذه المقالة فى أعماقه فلم ينفعل بها انفعاله بها فى تلك الليلة . ترى أيرجع تأثره إلى أنه خرج من مكة إلى الحبشة وقد اختار بلد النجاشى وجوار النجاشى على من سواه كما فعل جعفر والذين معه من قبل ؟! إن جعفرا وصحبه قد فروا من اضطهاد قريش خشية أن يفتنوا عن دينهم ، فما الذى دعاه إلى الفرار ؟ إنه يرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا وأن قريشا كلها ستصحو ذات يوم لتجد نفسها فى قبضته ، فهل تشخص الأيام عما يثبت فراسته وثاقب رأيه أم أنه قد فر من وهم ؟

وانبعث من أعماقه صوت يتلو ﴿ كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده

زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا و لم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴾[١] .

فأحس رقة تكتنفه ومولد عبرات تزحف لتترقرق فى عينيه وبصيص نور يجاهد ليتألق فى ظلام فؤاده .

ورست السفينة فانطلق عمرو بن العاص إلى قصر صديقه النجاشى ، وبينما هو ينتظر الإذن بالدخول إذ قدم عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ بعثه إلى النجاشى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه .

ودخل عمرو بن أمية ليخبر النجاشى أن رسول الله عليه السلام يطلب عودة جعفر وأصحابه بعد أن استقر الإسلام فى المدينة وأيده الله بنصره ، فجعل النجاشى يصغى إلى الضمرى متهلل الأسارير وقد وعد بأن يحمل المسلمين إلى رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله .

وخرج عمرو بن أمية الضمرى من عند النجاشى فقال عمرو بن العاص لأصحابه :

ـــ هذا عمرو ن أمية لو دخلت على النجاشى فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها (قمت مقامها) ، قتلت رسول محمد .

فدخل عمرو بن العاص عليه فسجد له ، فقال :

ـــ مرحبا بصديقى . أهديت إلى من بلادك شيئا ؟

---

(١) مريم ١ ـــ ٦ .

ــ نعم أيها الملك . قد أهديت لك أدما كثيرة .

ثم قربه إليه فأعجبه واشتهاه ، ثم قال له :

ــ أيها الملك إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا .

فغضب الملك ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظن عمرو بن العاص أنه قد كسره ، فلو انشقت له الأرض لدخل فيها فرقا من الملك ، ثم قال :

ــ أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه .

ــ أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟

ــ أيها الملك أكذلك هو ؟

ــ إى والله ! أطعنى ويحك واتبعه فإنه والله لعلى حق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

وترادفت على ذهن عمرو بن العاص صور مثيرة : رأى أتباع محمد عليه السلام يقتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأعمامهم ما يزيدهم ذلك إلا إيمانا وتسليما . ومضوا على الجادة والصراط المستقيم وصبروا على مضض الألم وجدوا فى جهاد العدو ، ولقد كان الرجل منهم والآخر من عدوهم يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون ، فمرة لهم من عدوهم ومرة لعدوهم منهم ، فلما رأى الله صدقهم أنزل بعدوهم الكبت وأنزل عليهم النصر .

إنه ليحس الساعة أن الإسلام صدق وأن رسالة محمد ــ ﷺ ــ حق . وايم الله لتحتلبنها قريش دما ولتتبعنها دما ندما إن لم تدخل فى دين الله ، فقال عمرو للنجاشى :

— فبايعني له على الإسلام .

فبسط النجاشي يده فبايعه على الإسلام .

واغرورقت عينا عمرو بالدموع . إنه كان أشد الناس على رسول الله ﷺ ، فلو مات قبل أن يبايع النجاشي على الإسلام لوجبت له النار ، وامتلأ رغبة فى أن ينطلق إلى المدينة ليبايع رسول الله عليه السلام ، فخرج إلى الميناء ليستقل سفينة تحمله إلى مكة ليأتى محمدا عليه صلوات الله وسلامه ليبايعه على أن يغفر له ما تقدم من ذنبه .

٩

أصاب الأشرف دما فى الجاهلية فأتى المدينة فحالف بنى النضير فشرف منهم وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق فولدت له كعبا ، وكان طويلا جسيما ذا بطن وهامة ، وكان سعيدا مجيدا ، وكان ساد يهود الحجاز بكثرة ماله ، وكان يعطى أحبار اليهود ويصلهم ، فلما قدم النبى — ﷺ — المدينة جاءه أحبار يهود من قينقاع وبنى قريظة لأخذ صلته على عادتهم فقال لهم :

— ما عندكم من أمر هذا الرجل ؟

— هو الذى كنا ننتظر ما أنكرنا من نعوته شيئا .

— قد حرمتم كثيرا من الخير فارجعوا إلى أهليكم فإن الحقوق فى مالى كثيرة .

فرجعوا عنه خائبين ثم رجعوا إليه وقالوا له :

— إنا أعجلناك فيما أخبرناك به ، ولما استثبتنا علمنا أنا غلطنا وليس هو المنتظر .

فرضى عنهم ووصلهم وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئا من ماله .

ولما انتصر — ﷺ — يوم بدر ، وقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة مبشرين لأهل المدينة بذلك وصاروا يقولون قتل فلان وفلان وأسر فلان وفلان من أشراف قريش ، صار كعب يكذب فى ذلك ويقول :

— هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله إن كان محمد قتل هؤلاء

القوم فبطن الأرض خير من ظهرها .

فلما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فجعل يهجو رسول الله — ﷺ — والمسلمين ويمدح عدوهم ويحرضهم عليه وينشد الأشعار ويبكى من قتل ببدر من أشراف قريش ، فقال — ﷺ :

— اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت .

كان كعب بن الأشرف قد وضع رحله عند عبد المطلب بن وداعة ، وأكرمته زوجة عبد المطلب وهى عاتكة بنت أسيد ، فدعا رسول الله — ﷺ — حسان وأخبره بذلك فهجا المطلب وزوجته ، فلما بلغها هجاء حسان ألقت رحله وقالت :

— ما لنا ولهذا اليهودى ؟

وصار كلما تحول عند قوم من أهل مكة صار حسان يهجوهم فيلقون رحله ، فاضطر إلى أن يعود إلى المدينة . فلما وصل إلى المدينة لم يمسك لسانه وصار يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهن ، فقال رسول الله — ﷺ :

— من ينتدب لقتل كعب بن الأشرف ؟ إنه يؤذى الله ورسوله .

فقال له محمد بن مسلمة الأوسى :

— أنا لك به يا رسول الله ، هو خالى أنا أقتله .

وخرج محمد بن مسلمة فى نفر من الأوس إلى كعب بن الأشرف فقتلوه ، وعند ذلك أصبحت يهود مذعورين فأتوا النبى — ﷺ — فقالوا :

— قتل سيدنا غيلة .

فذكر لهم النبى — ﷺ — صنيعه من التحريض عليه وأذيته المسلمين فازدادوا خوفا . .

ولما قتلت سرية محمد بن مسلمة — وكانت من الأوس — كعب بن الأشرف الأوسى ، تذاكر الخزرج من يشابه كعب بن الأشرف فى العداوة لرسول الله — ﷺ — من الخزرج ، فذكروا أبا رافع سلام بن أبى الحقيق لأنه كان يؤذى رسول الله — ﷺ ، ولأنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركى العرب بالمال الكثير على رسول الله — ﷺ ، وهو الذى حزب الأحزاب يوم الخندق .

كان الأوس والخزرج يتنافسان فيما يقرب إلى والله وإلى رسول الله — ﷺ ، لا تفعل الأوس شيئا من ذلك إلا فعلت الخزرج نظيره ويقولون :

— والله لا يذهبون بها فضلا علينا أبدا.

فانتدب لقتل ابن أبى الحقيق خمسة من الخزرج هم عبد الله بن عتيك ومسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة الحارث بن رِبْعى وخزاعى ابن أسود حليف لهم من أسلم ، واستأذنوا رسول الله — ﷺ — فى أن يتكلموا بما يتوصلون به إليه من الحيلة فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وأمرهم أن لا يقتلوا وليدا ولا امرأة .

فخرجوا حتى قدموا خيبر فكمنوا ، فلما هدأت الرجل جاءوا إلى منزله فصعدوا درجة له ، وقدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهودية فاستفتح وقال :

— جئت أبا رافع بهدية .

ففتحت له امرأته وقالت :

— ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه .

فلما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها باب الحجرة ، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح فأشار إليها ابن عتيك بالسيف فسكتت . ووجدوه وهو على فراشه ما دلهم عليه فى الظلمة إلا بياضه كأنه قبطية بيضاء ، فابتدروه بأسيافهم ، ووضع عبد الله بن أنيس سيفه فى بطنه وتحامل عليه حتى أنفذه وهو يقول :

— قطنى قطنى (يكفينى يكفينى) .

وعند ذلك صاحت المرأة ، فلما صاحت جعل الرجل منهم يرفع عليها سيفه ثم يتذكر نهى رسول الله — ﷺ — فيكف يده . وخرجوا من عنده وكان عبد الله بن عتيك رجلا سيء البصر فوقع من الدرجة فوثبت رجله وثبا شديدا ، فحمله صاحباه حتى أتيا محلا استخفوا فيه ، وكان ذلك المحل من أفنيتهم التى يلقون فيها كناستهم .

وصلك صياح المرأة آذان القوم فهرعوا إليها ، فلما علموا بمقتل ابن أبى الحقيق أوقدوا النيران وتفرقوا فى كل وجه يطلبونهم . كانوا ثلاثة آلاف يحملون المشاعل يتلفتون كأنهم كلاب صيد ، حتى إذا أيسوا رجعوا إلى ابن أبى الحقيق فاكتنفوه وهو بينهم يجود بنفسه .

وقال بعض المسلمين لبعض :

— كيف نعلم أن عدو الله مات ؟

— أنا أذهب فأنظر لكم .

فانطلق حتى دخل فى الناس فوجد امرأة ابن أبى الحقيق تنظر فى وجهه وفى يدها المصباح ، ورجال يهود حوله وهى تحدثهم وتقول :

ـــ أما والله لقد سمعت ابن عتيك ثم أكذبت نفسى .

ثم أقبلت تنظر فى وجه زوجها ثم قالت :

ـــ فاضت وإله يهود .

وتيقن الرجل أن ابن أبى الحقيق قد فاضت روحه ، فما سمع من كلمه كانت ألذ إلى نفسه منها .

ثم جاء وأخبر أصحابه فوجد ابن عتيك قد عصب رجله وانطلق حتى جلس على الباب ، وقال :

ـــ لا أخرج الليلة حتى أعلم أنى قتلته أولا .

فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال :

ـــ أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز .

فقام ابن عتيك يمشى لا يحس بالألم لما هو فيه من الاهتمام . ولما وصل إلى أصحابه وعاد عليه المشى أحس بالألم ، فحمله أصحابه حتى قدموا المدينة على النبى ـــ ﷺ ، فلما رآهم قال :

ـــ أفلحت الوجوه .

قالوا :

ـــ أفلح وجهك يا رسول الله .

وأخبروه بقتل ابن أبى الحقيق واختلفوا عنده ـــ ﷺ ـــ فى قتله كل منهم ادعاه ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ هاتوا أسيافكم .

فجاءوه بها فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس :

ـــ هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعان .

وقال حسان بن ثابت فى قتل سلام بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف :

لله در عصابة لاقيتَهم ... يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف

يسرون بالبيضِ الخفاف إليكمُ ... مرحا كأسد فى عرين مُغْرِف[1]

حتى أتَوْكم فى محل دیارِکم ... فسقوكمُ حَتْفا ببيض ذُفَّف[2]

مستنصرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكل أمر مجحف[3]

---

(١) البيض الرقاق : السيوف . مرحا : نشطا . العرين : غابة الأسد . ومغرف : ملتف الأغصان .

(٢) بيض ذفف : سيوف سريعة القتل .

(٣) مجحف : ذاهب بالنفوس والأموال .

- ١٠ -

جاء الليل وصلى المسلمون العشاء خلف رسول الله ـ ﷺ ، وانصرف الناس إلى دورهم ، ولكنهم لم ينصرفوا عن الله فقد صار الله فى وجدانهم يذكرونه قياما وقعودا وعلى جنوبهم . وفى جوف الليل راح المؤمنون والمؤمنات يدعون ربهم وقد تعلقت به أفئدتهم ، فالارتفاع إلى النبع الروحى وقرع أبواب الملكوت يملأ الصدور نورا على نور .

وراح رسول الله ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ يقول :

ـ سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت . أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه .

اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقل عثراتى واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوق ، وأعوذ بك أن أغتال من تحتى .

اللهم لا تؤمنى مكرك ، ولا تولنى غيرك ، ولا تنزع عنى سترك ، ولا تنسنى ذكرك ، ولا تجعلنى من الغافلين .

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

اللهم عافنى فى بدنى وعافنى فى سمعى وعافنى فى بصرى ، لا إله إلا أنت . اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم ، وشوقا إلى لقائك من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدى أو يعتدى على ، أو أكسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره .

اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة فى الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وحسن عبادتك ، وأسألك قلبا خاشعا سليما ، وخلقا مستقيما ، ولسانا صادقا ، وعملا متقبلا ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، فإنك تعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب .

اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير ، وعلى كل غيب شهيد .

اللهم إنى أسألك إيمانا لا يرتد ، ونعيما لا ينفد ، وقرة عين الأبد . اللهم إنى أسألك الطيبات ، وفعل الخيرات ، وترك المنكرات وحب المساكين . أسألك حبك ، وحب من أحبك ، وحب كل عمل يقرب إلى حبك وأن تتوب على وتغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون .

اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى ما كانت الوفاة خيرا لى . أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وكلمة العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، وأعوذ بك من

ضراء مضرة ، وفتنة مضلة .

اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين ، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة .

اللهم املأ وجوهنا منك حياء ، وقلوبنا منك فرقا ، وأسكن فى نفوسنا من عظمتك ما تذلل به جوارحنا لخدمتك ، واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك ، واجعلنا أخشى لك ممن سواك .

اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا ، وأوسطه فلاحا ، وآخره نجاحا . اللهم اجعل أوله رحمة ، وأوسطه نعمة ، وآخره تكرمة ومغفرة . الحمد لله الذى تواضع كل شيء لعظمته ، وذل كل شيء لعزته ، وخضع كل شيء لملكه ، واستسلم كل شيء لقدرته . والحمد لله الذى سكن كل شيء لهيبته ، وأظهر كل شيء بحكمته ، وتصاغر كل شيء لكبريائه .

اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم ، وبحلمك عنى اعف عنى إنك أنت الغفار الحليم ، وبعلمك بى ارفق بى إنك أنت أرحم الراحمين ، وبملكك لى ملكنى نفسى ولا تسلطها على إنك أنت الملك الجبار . سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت تحملت سوءا وظلمت نفسى ، فاغفر لى ذنبى ، إنك أنت ربى ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت . اللهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى . اللهم ارزقنى حلالا لا تعاقبنى عليه ، وقنعنى بما رزقتنى ، واستعملنى به صالحا تقبله منى . أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة فى الدنيا والآخرة ، يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة ، وهب لى ما لا يضرك ، وأعطنى ما لا ينقصك .

ربنا أفرغ علينا صبرك وتوفنا مسلمين . أنت وليى فى الدنيا والآخرة

توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة إنا هدنا إليك . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم . ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا . ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد .

كان يقوم الليل ويناجى ربه آناء الليل وأطراف النهار . وكانت عينه تنام ولا ينام قلبه فانكشف له الأمر وفاض على صدره النور ، فمن كان لله كان الله له ، وكان أسوة حسنة لأتباعه فكانت عائشة أم المؤمنين تدعو :

ـــ اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد ـــ ﷺ ، وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين .

وقال رسول الله — ﷺ — لفاطمة الزهراء سيدة نساء المؤمنين .

— يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولى: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لى شأنى كله .

وعلّم رسول الله — ﷺ — أبا بكر الصديق أن يقول :

— اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك ، وإبراهيم خليلك ، وموسى نجيك ، وعيسى كليمك وروحك ، بتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، وزبور داود ، وفرقان محمد ، وبكل وحى أوحيته . أو قضاء قضيته ، أو سائل أعطيته ، أو غنى أفقرته ، أو فقير أغنيته ، أو ضال هديته ، وأسألك باسمك الذى أنزلته على موسى ، وأسألك باسمك الذى بثت به أرزاق العباد ، وأسألك باسمك الذى وضعته على الأرض فاستقرت ، وأسألك باسمك الذى وضعته على السماء فاستقرت ، وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبال فرست ، وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك . باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر ، المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين ، وأسألك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار ، وعلى الليل فأظلم ، وبعظمتك وكبريائك ، وبنور وجهك الكريم ، أن ترزقنى القرآن والعلم به وتخلطه بلحمى ودمى وسمعى وبصرى ، وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين .

وقال — ﷺ — لبُريدة الأسلمى :

— يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن إياه ، ثم لم يُنسهن إياه أبدا ؟

— بلى يا رسول الله .

— قل اللهم إنى ضعيف فقوِّ فى رضاكَ ضعفى ، وأخذ إلى الخير

بناصيتي ، واجعل الإسلام منتهى رضاى . اللهم إنى ضعيف فقونى ، وإنى دليل فأعزنى ، وإنى فقير فأغننى ، يا أرحم الراحمين .

وراح أبو الدرداء يدعو بما علمه رسول الله — ﷺ :

— اللهم أنت ربى لا إله ألا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ما شاء الله كان وما يشأ لم يكن . أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم .

كانوا فى الليل يتوجهون بكل قلوبهم إلى الله فتهب عليهم نسائم الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين الأفئدة بلطف خفى من الله تعالى ، فيلمع فى القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف ، وتتلألأ فيها حقائق الأمور الإلهية . ولا غرو فقد كانوا يعيشون فى الله وبالله ولله . يدعونه مخلصين له الدين فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب .

١١

اجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدورون به ، وكان ذلك عيدا لهم فى كل سنة يوما ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا هم ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش ـــ وكانت أمة أميمة بنت عبد المطلب ـــ وعثمان بن الحويرث بن أسد وزيد بن عمرو بن نفيل ، ثم قال بعضهم لبعض :

ـــ تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض .

ـــ أجل .

ـــ تعلمّوا والله ما قومكم على شىء ! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ! ما حجر نُطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ! يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا فإنكم والله ما أنتم على شىء .

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب ، ومات قبل أن يؤمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بأن ينذر عشيرته الأقربين .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتوجه وولاه أمر مكة ، فلما جاءهم بذلك أنفوا أن يدينوا لملك وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى :

ـــ ألا إن مكة حى لقاح لا تدين لملك .

فلم يتم له مراده فعاد إلى قيصر وتنصر وحسنت منزلته عنده ، وكان

يقال له البطريق . ومات بالشام مسموما سمه عمرو بن جفنة الغسانى الملك .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة وقال :

ـــ أعبد رب إبراهيم .

وبادى قومه يعيب ما هم عليه ، وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول :

ـــ يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى . اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه .

ثم يسجد على راحلته . ومات زيد قبل أن يبعث رسول الله عليه السلام .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس وتزوج رملة بنت أبى سفيان زعيم مكة وسيد بنى أمية ، وكان الزفاف يليق بسليلة حرب بن أمية وسليل بنى أسد وبنى هاشم ، وما انقضت شهور حتى ذاع فى مكة نبأ اتصال محمد بن عبد الله بالسماء ونزول الوحى عليه ، فطغى هذا الحدث العظيم على كل الأحداث .

وانقسمت مكة إلى فريقين فريق آمن بالله ورسوله وفريق كفر بما جاء به ابن عبد الله ، وكان على رأس ذلك الفريق أبو سفيان بن حرب . وشرح الله صدر رملة للإسلام وألقى فى قلبها أنوار اليقين فآمنت برسالة السماء ، ودخل زوجها عبيد الله بن جحش فى دين الله .

وكاد أبو سفيان أن يجن لما اكتشف أن ابنته رملة صبأت عن دين قومها

وأنها قد تبعت دين أبى كبشة ، فغدا يحاول أن يثنيها عن عزمها ليمحو ما لحقه من خزى ، ولكنها ثبتت على دين محمد وعجز أبو سفيان عن أن يفتنها أمام إرادتها الصلبة التى زادها الإيمان قوة ومضاء .

ووثبت القبائل على من أسلم منها فاحتمل المسلمون ألوان العذاب وذاقوا مرارة الاضطهاد ، حتى إذا ما طفح الكيل فكروا فى الفرار بدينهم فاستأذنوا رسول الله فى الهجرة فأذن لهم أن يهاجروا إلى الحبشة ، فهاجر عبيد الله بن جحش فيمن هاجر وحمل زوجه رملة وكانت حاملا ، حتى إذا ما استقروا فى الحبشة وضعت رملة ما فى بطنها فكانت أنثى ، وكانت حبيبة بنت عبيد الله فكنيت بها فأصبحت تدعى أم حبيبة .

وكان المسلمون فى أرض الغربة يتزاورون ، فكانت أم حبيبة وأم سلمة وأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبى طالب ورقية بنت رسول الله — ﷺ — يجتمعن ويتذاكرن أيام مكة وفى القلوب حنين وفى العيون دموع وفى الحلوق غصص . وما كان يخفف عنهن أسى الغربة إلا إيمانهن العميق بأنهن على الصراط وأنهن يتحملن ما يتحملن فى سبيل الله ومرضاة لرب العالمين .

وراح عبيد الله يختلف إلى الرهبان والقساوسة ويطيل المكث معهم فكان يعجب بهم على مر الأيام ، وذات ليلة أدخلت أم حبيبة مخدعها فنامت فرأت عبيد الله بأسوأ صورة ، فقامت من نومها مفزوعة مبهورة الأنفاس ، ولم يسكن روعها أبدا فقد حفر الحلم المروع فى وجدانها حتى صار أصدق من الحقيقة وأعمق أثرا من الواقع الذى كانت تعيش فيه .

وفى الصباح جاءها تأويل ما رأت ، قال لها عبيد الله إنه ارتد عن الإسلام وإنه اعتنق المسيحية ، وحاول أن يردها عن الإسلام فأبت

وصبرت على دينها .

وكان لا بد من الفراق فاعتكفت أم حبيبة فى دارها لا تزور ولا تزار تمضى سحابة نهارها تمضغ أساها وتقوم الليل تناجى ربها وتبثه همومها وتشكو إليه حالها ، فهى لا تستطيع أن تعود إلى مكة ليفتنها أبوها عدو الإسلام اللدود عن دينها ، ولا تستطيع أن تهاجر إلى المدينة فهى لا تريد أن تكون كلا على زينب بنت جحش أخت زوجها عبيد الله .

وهزم الله الأحزاب وحده ونزلت بنو قريظة على حكم رسول الله — ﷺ ، وبلغه عليه السلام أن أم حبيبة بنت أبى سفيان المسلمة المؤمنة التى هاجرت فى سبيل الله إلى الحبشة تعيش فى الغربة وحدها بعد أن ارتد زوجها عن دينه ، فرأى أن يكرمها وأن يجزيها خيرا عن صبرها وعن تمسكها بأهداب دينها . فعزم على أن يتزوجها وأن يشرفها بأن تكون أما للمؤمنين .

كانت أم حبيبة قد تجاوزت الأربعين وما كانت رائعة الجمال ، ولكنه عليه السلام قد وطد العزم على أن يرفعها فوق مكانتها لو أنها ظلت على دين قومها واستقرت فى بيت أبى سفيان ، وإنه بذلك الزواج سيحقق إحدى الحسنيين : جدع أنف أبيها عدوه اللدود ، أو أن يلين قلبه الغليظ فينشرح صدره للإسلام .

وبعث رسول الله — ﷺ — فيها إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى ، فبينا كانت أم حبيب فى دارها تفكر فى وحدتها وفيما صار إليه أمرها بعد أن هاجر ابن خالها عثمان بن عفان إلى المدينة ، إذ برسول النجاشى جارية يقال لها أبرهَة كانت تقوم على ثيابه ودهنه تستأذن عليها ، فأذنت لها فقالت :

— إن الملك يقول لك إن رسول الله — ﷺ — قد كتب إلى أن أزوجكه .

فأحست أم حبيبة بالفرح يغمرها و لم تستطع أن تسيطر على عواطفها ، فقالت وهى متفرحة متهللة :

— بشرك الله بخير .

— يقول لك الملك وكّلى من يزوجك .

فأرسلت إلى خالد بن سعيد فوكلته ، وأعطت أبرهة سوارى فضة كانا عليها وخواتم فضة كانت فى أصابعها سرورا بما بشرتها .

فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن هناك من المسلمين يحضرون ، وخطب النجاشى بعد أن بايع عمرو بن العاص على الإسلام فقال :

— الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم . أما بعد فإن رسول الله — ﷺ — كتب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله عليه السلام ، وقد أصدقتها أربعمائة دينار .

ثم سكب الدنانير بين يدى القوم ، فتكلم خالد بن سعيد فقال :

— الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله — ﷺ — وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان فبارك الله لرسوله .

ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها ، ثم أرادوا أن يقوموا فقال النجاشي :

ـــ اجلسوا فإن سنة الأنبياء عليهم السلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج .

فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا . وغدا المسلمون الذين كانوا بالحبشة يتأهبون للهجرة إلى المدينة فقد استقر بها الإسلام ، وكانوا فى شوق إلى لقاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ والأحبة ، وكانت أم حبيبة أكثرهم شوقا ولهفة ، فما إن تدخل دور النبى عليه السلام حتى تصبح أم حبيبة أم المؤمنين ، وإنها لأمنية غالية قد نالتها بإيمانها وصبرها وإنه لشرف عظيم يتقاصر دونه كل شرف .

١٢

تأهب رسول الله ـــ ﷺ ـــ للخروج من داره فراح يقول :

ـــ اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر . اللهم إنى أعوذ بك من طبع يهدى إلى طمع ، ومن طمع فى غير مطمع ، ومن طمع حيث لا مطمع .

اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، ونفس لا تشبع . وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة فإنها بئس البطانة .

وخرج عليه السلام إلى أصحابه فبعث محمد بن مسلمة إلى القرطاء وهم بنو بكر بن كلاب فى ثلاثين راكبا ، فإذا برهبان الليل يصبحون فى غمضة عين فرسان النهار ، وأمره أن يسير الليل ويكمن النهار ، وأمره أن يشن عليهم الغارة ، فقد كان عليه السلام يبعث السرية فى إثر السرية إلى القبائل التى تتجمع لقتال المسلمين قبل أن تلم شملها ، وكانت مفاجأة الأعداء فى عقر دورهم تحبط كل عمل وتلقى الرعب فى قلوب أعداء الإسلام .

وسار محمد بن مسلمة الليل وكمن النهار ، وصادف فى طريقه ركبانا نازلين فأرسل إليهم رجلا من أصحابه يسأل من هم ؟ فذهب الرجل ثم رجع إليه فقال :

ـــ قوم من محارب .

فنزل قريبا منهم ثم أمهلهم حتى إذا بركوا الإبل حول الماء أغار عليهم فقتل نفرا منهم وهرب سائرهم ، واستاق نعما وشاء ولم يتعرض للنساء ، ثم انطلق حتى إذا كان بموضع يطلعه على بنى بكر بعث عابد بن بشير إليهم ، وخرج محمد بن مسلمة فى أصحابه فشن عليهم الغارة فقتل منهم عشرة واستاقوا النعم والشاء ، وأخذوا فيمن أخذوا ثمامة بن أثال الحنفى من بنى حنيفة وكان سيد أهل اليمامة وهم لا يعرفونه .

وانحدر محمد بن مسلمة والذين معه إلى المدينة فخمس رسول الله — ﷺ — ما جاء به وعدل الجزور بعشرة من الغنم ، وكان النعم مائة وخمسين بعيرا والغنم ثلاثة آلاف شاة .

وجيء بثمامة إلى رسول الله — ﷺ — فقال لهم :

— أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى فأحسنوا إساره .

فربط بسارية من سوارى المسجد ، فدخل — ﷺ — على أهله فقال :

— اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه .

وأمر له — ﷺ — بناقة يأتيه لبنها مساء وصباحا ، وما كان ذلك الطعام ليرضى سيد أهل اليمامة . وكيف يقع طعام الزاهدين عند من اعتاد أن ينحر كل يوم شاة موقعا من كفايته ؟!

وجاء إليه رسول الله — ﷺ — فقال :

— ما لك يا ثمام ، هل أمكن الله منك ؟

— قد كان ذلك .

واستمر ثمامة مربوطا بسارية من سوارى المسجد يرى صلاة المسلمين ويصغى إلى أحاديث رسول الله — ﷺ ، ويمتلئ عجبا باجتماع رسول الله

كل ليلة بأهل الصفة من فقراء المسلمين الذين انقطعوا للعبادة بالمسجد . إنه لا يأكل إلا معهم ويسبغ عليهم عطفه ويغمرهم بحنان لا يتدفق إلا من قلب كبير .

وصار رسول الله — ﷺ — يأيته فيقول :

— ما عندك يا ثمامة ؟

— يا محمد عندى خير : إن تقتل تقتل ذا كرم ، وإن تعفُ تعفُ عن شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

وكان أهل الصفة يلقون سمعهم إلى هذا الحوار فيقولون :

— نبينا — ﷺ — ما يصنع بدم ثمامة ، والله لأكلة جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة .

وانصرف عنه رسول الله — ﷺ ، وما كان عليه السلام يفكر فى أكلة جزور سمينة بل كان يحب أن يهدى الله سيد أهل اليمامة إلى الإسلام ، فاليمامة فى أرض اليمن كانت ريفا لأهل مكة إنما تمدهم بالحنطة ، فإسلام سيد اليمامة يهدد قريش بقطع الميرة عنهم .

ونقضى يومان والحوار دائر بين رسول الله عليه السلام وثمامة .

وبذور من الإيمان تلقى فى أعماق سيد أهل اليمامة وأحقاد الرجل تكشط برقة رسول الله — ﷺ ، ثم إن رسول الله — ﷺ — فى اليوم الثالث قال :

— أطلقوا ثمامة .

ثم التفت إلى ثمامة وقال :

— قد عفوت عنك يا ثمامة .

لم يطلب منه مالا بل أطلق سراحه دون مقابل وهو يعلم أن أهل اليمامة

أشد الناس بغضا له ولرسالته . إن سيد بني اليمامة مبهور بسماحة نبي الإسلام وكرمه . إنه قد سعد وهو في إساره بالحكمة التي كانت تتدفق من فم ابن عبد الله ... إنه استشعر كأن النور المنبعث من مسجد الرسول عليه السلام قد ملأ جوانحه وفاض ، فانطلق إلى ماء جار قريب من المسجد فاغتسل وطهر ثيابه ثم دخل المسجد وقال في انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وسالت عبرات رقيقة على لحيته ، ثم دنا من رسول الله عليه السلام وقال :

— يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىّ . والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلىّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلىّ . والله ما كان بلد أبغض إلىّ من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلىّ .

فلما أمسى جيء له بما كان يأتيه من الطعام فلم ينل منه إلا قليلا ولم يصب من حلاب الناقة إلا يسيرا ، فعجب المسلمون فقال رسول الله ﷺ :

— مم تعجبون ؟ أمن رجل أكل أول النهار في مِعَى كافر وأكل آخر النهار في مِعَى مسلم ؟ إن الكافر ليأكل في سبعة أمعاء وإن المسلم يأكل في معًى واحد .

تحرر قلب ثمامة فلم يعد مأخوذا بسحر الملموس والمرئى المسموع ، بل تعلم مراقبة الضمير فاكتسبت ذاته عمقا وخصبا وثراء فإذا بأنوار المعارف تشرق من باطن قلبه ، وإذا به يستشعر أنه قد اقترب من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة ، وأن الله افتتح عليه من مزايا لطفه ورحمته

المبذولة بحكم الجود والكرم . وقد تيقن بعد أن ذاق حلاوة الإيمان أن القلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله ، وأنها محرومة من الكشف عن باب الفوز الأكبر .

نهل ثمامة من معين النبوة فأصبح متفرحا بالله يعيش فى الله وبالله ومع الله ، قد امتلأ فؤاده بحب رسول الله — ﷺ — حتى إنه صار لا يطيق أن يفارقه . ولكن حتى متى يبقى سيد أهل اليمامة فى المدينة ؟ وإذا بقى فى المدينة أيحمل أمواله إليها ؟ إنه يرى أن عودته إلى اليمامة أكثر نفعا للإسلام من بقائه مع صحابة رسول الله — ﷺ . إنه هناك سيدعو قومه إلى دين الله وإنه ليرجو أن يشرح الله صدورهم للإسلام ، ولكنه رأى أن يستشير رسول الله عليه السلام قبل أن يتخذ قرارا ، فأتى النبى — ﷺ — وقال له :

— يا رسول الله إنى خرجت معتمرا وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة ، فإذا ترى ؟

فأمره أن يعتمر فامتطى راحلته وانطلق إلى مكة فإذا به يرى الكعبة بخياله وقد خلت من أصنام قومه ، إنها كعبة أبيه إبراهيم خليل الرحمن منارة التوحيد وأول بيت وضع للناس .

إنه حصل بالإسلام على شرف المعلومات وأمد قلبه بجنود العلم والحكمة والتفكر ، وسعد طوال الرحلة بمشاهدة ربه ومراقبته والنظر إلى وجهه الكريم . وتهلل بالفرح لما انجلى فى فؤاده حقيقة الحق فى الأمور كلها فهانت فى عينيه كل القوى الأرضية . واستصغر كل سلطان بعد أن عرف سلطان الله وحوله وقوته فعزم على أن يعلن إسلامه فى مكة معقل الشرك وحصن أعداء الإسلام الحصين .

وقدم بطن مكة ورأى الناس يطوفون بالحرم وقد امتلأ بالأصنام ونداءات الشرك ترتفع هنا وهناك ، فلبى بصوت جهورى :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وتعلقت أنظار سادات قريش بسيد أهل اليمامة وقد ملئت عجبا ، فما بال ثمامة لا يشرك فى تلبيته كما يشركون ؟ إن تلبيتهم كانت منذ تفتحت أعينهم على الدنيا : لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وقاموا إليه يناقشونه فى أمر هذه التلبية وكانت أول تلبية فى مكة يعلن فيها أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، واشتد الحوار وأعلن ثمامة على الملأ أنه قد أسلم وأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وثارت الدماء حارة فى العروق فأخذت قريش فقالوا :

— لقد اجترأت علينا ، أنت صبوت يا ثمامة .

ولم يحفل بثورتهم ، كان مطمئنا .. إنه عرف الهدى بعد الضلالة ، وتفتح قلبه على النور بعد الظلمات ، وذاق لذة الأنس بالله وحمل الأمانة والنظر إلى ملكوت السماء . كان على نور من ربه فقال وهو ثابت الجنان :

— أسلمت وتبعت خير دين ، دين محمد . والله لا يصل إليكم حبة من حنطة حتى يأذن فيها رسول الله — ﷺ .

وغضبوا غضبا شديدا فهذا القول يعلى شأن ابن أبى كبشة فى أرض عداوته ، ويفتن أناسا تميل قلوبهم إلى دين ابن عبد الله ، ويزيد فى هوة الشقاق الذى بدت ملامحه فى قريش ، فارتفعت أصوات حانقة تقول :

— اضربوا عنقه .

فقدموه ليضربوا عنقه فإذا هو ثابت كالطود ، وإذا بدهشة مشوبة بإعجاب قد ملأت العيون التى امتدت إلى سيد بنى اليمامة ، وإذا بذكريات خبيب وأتباع محمد الذين تلقوا الموت مستبشرين تعود إلى الأذهان ، وإذا بأسئلة حائرة تدور فى العقول .

— أكانوا يتلقون الموت فرحين لو كانوا يؤمنون بسراب ؟! وقال قائل منهم :

— دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة .

حقا إنهم يحتاجون إلى اليمامة فقد كانوا يعتمدون عليها فى ميرتهم فهى أرض الحنطة ، وإن قتل سيدهم حتى لو عرف أنه قد أسلم سيدفعهم إلى حبس الحنطة عنهم إن لم يثأروا لدمه .

فخلوا سبيله وما كان أمامهم إلا أن يفعلوا ، فخرج ثمامة إلى اليمامة فمنع قومه أن يحملوا إلى مكة شيئا فقد كان يعنى ما يقول عندما أعلنهم أنه لن يصل إليهم حبة من حنطة حتى يأذن فيها رسول الله — ﷺ .

وأضر بقريش الجوع بعد أن منع ثمامة عنهم ما كان يأتى من اليمامة ، وفكروا فى أن يبعثوا إلى رسول الله — ﷺ — كتابا يلتمسون فيه أن يأمر ثمامة بأن يخلى بينهم وبين ميرتهم ، ولكنهم رأوا فى ذلك إذلالا لهم ، فتواصوا بالصبر انتظارا للفرج . ومن أين يأتيهم ذلك الفرج بعد أن عادوا الله ورسوله ! وبعثوا إلى ثمامة يسألونه أن يعدل عن قراره فقال لهم :

— إنى أقسمت برب الكعبة لا يصل إليكم من اليمامة شىء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمدا عن آخركم .

إن ما يسألهم ثمامة إنما هو شىء قد رفضوه وخاضوا فى سبيله حروبا وفقدوا الآباء والأبناء والأحبة لكيلا يقروا بالإسلام ودعوة ابن عبد الله ،

أفيخضعون لضغط ثمامة دفعا للجوع ؟ إن المسلمين تحملوا الجوع أيام حصارهم فى شعب أبى طالب حتى أكلوا خشاش الأرض وهم ليسوا أقل إيمانا بآلهتهم من إيمان أصحاب محمد .

وصبروا على الجوع وراحوا يخلطون الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار ، إنه العلهز أسوأ الطعام . وما استطاعوا أن يحتملوا ما احتمل المسلمون أيام الحصار فكتبوا إلى رسول الله — ﷺ — وقد جللهم الذل واستشعروا الهزيمة فى أعماقهم :

« ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع . عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحث عليها ، وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضرّ بنا ، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلى بيننا وبين ميرتنا فافعل » .

فكتب إليه رسول الله — ﷺ — أن خلّ بين قومى وبين ميراتهم ، وحملت الحنطة من اليمامة إلى مكة ففرح الناس بها ، وقد فعل كرم محمد عليه السلام وشهامته فى قلوب المكيين الذين كان هواهم مع نبى الإسلام عليه السلام فعل السحر ، فقد زادت فى صدورهم دائرة النور وأصبحوا أكثر رغبة فى أن ينطلقوا إلى رسول الله — ﷺ — ليشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

١٣

كان أبو سفيان بن حرب وخالد بن الوليد وحكيم بن حزام وصفوان ابن أمية مجتمعين عند الحرم وقلوبهم شتى ، وإن كان كل تفكير هم يدور حول محمد بن عبد الله وما جاء به من دين . فأبو سفيان يجتر ذكريات مجده وما فعله لتكون له السيادة فى قومه ، إنه تزوج فى قبائل العرب والعشائر وأصهر بنيه لسادات القوم وأدخل بناته على ذوى الحسب والجاه حتى يكون الأصهار والأنسباء ذو عدد وذوى جاه وذوى قوة ليكسب بهم شيئا يضيف به سببا إلى الأسباب التى تمهد له السيادة والسلطان .

كانت زعامة قريش هدفه وكانت كل أمله ومحور تفكيره ومصدر أفعاله والمتحكمة فى كل تصرفاته وعلاقته بالناس . وكان يحسب أن صحبة أبيه حرب بن أمية لبشر بن عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ستعلى من شأنه فى أعين قومه . ولما قدم بشر إلى مكة وتزوج الصهباء بنت حرب أخته أثلج صدره فما من أحد غيره فى قومه قد ارتبطت الأسباب بينه وبين الملوك !

إنه سافر إلى فارس ودخل على كسرى وعاهد ملوك الحيرة وارتفع شأنه ، و لم يعد فى قريش من ينافسه الزعامة بعد أن مات أبو طالب والزبير ابن عبد المطلب وشيوخ الهاشميين . وقد تأكدت زعامته يوم أن أهدى ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة وأمر أن ينحرها أعز قريش ، إنها قدمت وهو عروس بهند بنت عتبة وبلغها ما قال ملك اليمن فقالت له :

ـــ لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التى لعلها أن تفوتك .

فقال لها :

ـــ يا هذه دعى زوجك وما يختاره لنفسه ، والله ما نحرها غيرى إلا نحرته .

وظلت النحائر فى عقلها حتى خرج فى اليوم السابع وكان ذلك بمثابة تتويجه والاعتراف بزعامته على قريش بلا منازع .

واطمأن إلى السؤدد والسلطان وظن أن الزعامة قد انتزعت من البيت الهاشمى لتستقر فى البيت الأموى ، حتى إذا ما كادت تثبت فى الضمائر هذه الحقيقة قام محمد بن عبد الله يدعو إلى دين جديد ويقول إنه نبى يأتيه الوحى من السماء ، فقام فى وجه دعوته يقاومه فى ضراوة فقد أحس أن شرف النبوة لا يمكن أن يدانيه شرف ، ولو أن هذه الدعوة قد بقيت فى الأرض فلن يدرك بيت ـــ مهما سما ـــ ذلك الشرف الذى ناله البيت الهاشمى ، فأقسم أن لا يؤمن به أبدا ولا يصدقه .

إنه يعلم أن محمدا صدوق لا يكذب ، ولكنه قد جاء أمرا لا يبقى معه شرف . فراح يقاوم دعوته ويؤلب سادات قومه وسفهاءها على الهاشمى الذى سينتزع منه الرياسة والشرف ، فما كان يستطيع بنشأته أن يتصور أن هناك ما وراء الملك وسلطان الأرض .

وأسلمت ابنته أم حبيبة فاستشعر مرارة الخزى والعار ، فدعوة محمد الهاشمى قد دخلت عقر داره ووجدت استجابة من إحدى فلذات كبده ، وزعزع ذلك إيمانه الواهى بعدالة قضيته فلم يشأ أن يخدع نفسه واعترف فى عين ذاته لذاته أنه يقاتل ابن عبد الله حمية وكراهة أن يذهب شرفه .

وهاجرت ابنته أم حبيبة مع من هاجر إلى الحبشة فعادت تؤكد أن حبها الله ورسوله يفوق حبها أهلها وعشيرتها . إنها تركت الأهل والأوطان فرارا

بدينها خشية الفتنة فأعلنت على الملأ أن ما جاء به محمد بن عبد الله يهون فى سبيله الآباء والأبناء ، فجللته مرة أخرى بالعار .

وكان القتال فى بدر وإذا بأبى جهل وعتبة وسادات قريش يلقون مصارعهم ، وإذا بهزيمة حماة البيت تنتشر فى القبائل ، وإذا بالحزن ينزل فى فؤاد أبى سفيان حتى ليكاد أن يمزقه . وفى ظلمات اليأس لمع بصيص من أمل ؛ ارتد عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة عن دين محمد واعتنق النصرانية دين الأحباش . إن هى إلا أيام حتى تعود أم حبيبة إلى دار أبيها باكية نادمة مستغفرة ، وستكون عودتها طعنه قاتلة للدعوة الجديدة . ولكن الأيام مرت والسنين كرت وأم حبيبة هناك فى الحبشة صابرة على دينها قد آثرت العزلة وقطعت عن قلبها جواذب الدنيا لتنجـذب إلى السماء .

وطاف بذهن أبى سفيان بن حرب ما كان بينه وبين محمد وصحبه يوم أحد فهمت نفسه أن تنشرح ، ولكن سرعان ما تذكر تلك الريح التى قلبت قدورهم واقتلعت خيامهم يوم الخندق وذلك الهمس الذى سرى فى ذلك اليوم بين الناس بأن إله محمد قد منعه ، فاضطرب نفسه وخفق قلبه واربد وجهه فغدا يتلفت بعيون زائغة هنا وهناك حتى لا يفطن جالسوه إلى ما يعانى من كرب .

وجاشت الذكريات فى وجدانه وكانت جميعها تخز نفسه وخزا أليما ، فقد أثارتها ابنته أم حبيبة بعد أن جاء من الحبشة من يخبره أن محمدا كتب إلى النجاشى أن يزوجه بنت أبى سفيان وأنها قد وكلت خالد بن سعيد ليزوجها من نبى الإسلام .

وتململ أبو سفيان فى مجلسه فلم يحتمل نار الغيظ التى اندلعت فى

جوفه ، وزاد فى حنقه أن الرسول الذى جاءه من الحبشة أخبره أن ابنته كادت تطير من الفرح لما علمت أن محمد بن عبد الله قد بعث يخطبها ، وأنها أعطت الجارية التى بشرتها سوارين ، وأنها قالت لها بعد أن قبضت الصداق : « كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدى شىء من المال ، وقد جاءنى الله عز وجل بهذا » . فأبت الجارية أن تأخذ شيئا وردت السوارين وقالت : « إن الملك أجزل لها العطاء وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا » .

أم المؤمنين ؟! ابنته أم حبيبة تصبح أما لأعدائه ؟ لقد دارت به الأرض لما بلغه النبأ وبذل جهدا عظيما ليبدو هادئا ، ولكن الكلمات فرت من بين شفتيه فقال :

ـــ هذا الفحل لا يجدع أنفه .

* * *

وشرد حكيم بن حزام يفكر وهو حزين ؛ إنه يخشى إن ظهر محمد أن تذهب دار الندوة مكرمة قريش ، إنه صاحبها وقد دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة و لم يدخلها أحد من قريش للمشورة حتى يبلغ أربعين سنة .

ورأى الناس يطوفون بالبيت العتيق فامتلأ فؤاده شفقة أن يأتى يوم ينقطع فيه الطواف حول البيت ، ولكن سرعان ما انقشع خوفه لما رن فى أعماق نفسه ما جاء فى قرآن محمد عن الحرم : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . إنه يوقر البيت وقد جعله قبلة أتباعه ، ولكنه يسفه الآلهة وسائلهم إلى الإله الأعظم .

أيريد محمد أن يكفروا بود وسواع ويغوث ويعوق ونسر واللات والعزى ومناة وهبل وإساف ونائلة ، وأن يؤمنوا بأن لهذا الكون العريض

إلها واحدا لا شريك له وأنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟! إنه لا يستطيع أن يؤمن أن الأجساد تبعث بعد أن تصبح ترابا وعظاما ، وراح ينشد مرثية أهل بدر :

فماذا بالقليب ـــ قليب بدر ـــ من « الشيزى » تكلل بالسنـام
يخبرنـا الـرسول : بـأن سنحيـا وكيـف حيـاة أصداء وهـام

إنه كان يحب محمدا زوج عمته خديجة ، وكان يهرع إلى دار الطاهرة سيدة نساء قريش ليلقى سمعه إلى الأمين قبل أن يزعم أن الخبر يأتيه من السماء ، أما بعد أن قال زوج عمته إنه رسول رب العالمين فقد ابتعد وتبرأ منه ، فما استطاع أن يؤمن أن الله يبعث بشرا رسولا .

* * *

وكان قلب صفوان بن أمية يطفح بالحقد على محمد ؛ إنه لا يستطيع أن ينسى أنه قد وتره وقتل أباه أمية بن خلف يوم بدر وقتل عمه أبىّ بن خلف يوم أحد ، ولن تخمد النار التى تتلظى فى أحشائه قبل أن يدرك منه ثأره ، فوطن النفس على محاربة محمد ولو لم يبق فى قريش على عداوته غيره .

كان يحز فى نفسه أن الإسلام أخذ يتفشى فى قريش وأن بعض الموتورين قد نسوا ثأرهم وخرجوا إلى المدينة وأتوا ابن أبى كبشة وأعلنوا إيمانهم برسالته ، وما كان بقادر على أن يتصور أن أنوار اليقين قد أشرقت فى قلوبهم . وكيف لمن أعمى الغضب بصيرته أن ينظر إلى ملكوت السماء ؟

١٤

جلس رسول الله ــ ﷺ ــ يحدث أصحابه فألقوا إليه السمع مستبشرين متفرحين فى الله ، فقد أصبحوا يعيشون مع الله وبالله وفى الله ، يستشعرون هدوءا نفسيا وإن كانت أفئدتهم ترتجف فرقا من خشية الله . فقد عرفوا لذة النظر إلى الله والأنس به وتصفية قلوبهم وتزكيتها وجلاءها بذكره ، ففاضت عليهم الرحمة وانشرحت صدورهم ، وأشرقت فيها الأنوار وانكشفت الأسرار وتألقت فيها حقائق الأمور ، فهم على نور من ربهم قد توكلوا على الله وكفى بالله وكيلا .

كانوا يعيشون فى فراغ دينى وفراغ سياسى ليس بينهم إلا الأحقاد والشحناء والبغضاء يخشون أن يتخطفهم الموت ، قد ران عليهم حزن أبدى ، تقشعر جلودهم كلما راودتهم فكرة الفناء ويزيد شقاوتهم ذلك النفور الشديد بين العقل والوجدان ويحرك شجن أصحاب الضمائر الحية منهم ذلك الظلم الذى ينزله الأقوياء بالضعفاء وهضم الأغنياء لحقوق الفقراء . فلما اصطفى الله رسوله وآتاه الحكمة والعلم والكتاب المنير ، وهداهم ربهم إلى الصراط المستقيم إذا بهم يتحررون من الخوف والقلق ورهبة الموت ، فالتعاليم التى تنزل على الرسول من السماء تؤكد لهم أن الدنيا دار ممر وأن الآخرة دار مقر ، فخضدت أشواك الموت وفتحت أبواب الخلود لشباب دائم قرير العين . وكبحت جماح الطغيان ، وبذرت فى سويداء القلوب الحب فحببت الأغنياء فى الفقراء وحببت الفقراء فى الأغنياء ، وقضت على ما كان يمكن أن ينشأ من صراع بين الطبقات .

وكان لهم فى رسول الله أسوة حسنة ؛ إنه يعمل ولكنه لا يعمل لجمع المال بل لإسعاد البشرية جمعاء ، لا فصل لعربى عنده على عجمى إلا بالتقوى . إذا ما حصل على أموال وكثيرا ما أفاء الله عليه فقد كان ينفقها على الفقراء والمساكين لا يدخل بيته إلا بعد أن يتخلص من كل صفراء وبيضاء عنده ، فضمرت النزعات المادية التى كانت تسيطر على المجتمع المكى والمجتمع اليثربى على السواء ، واشتدت الطاقات الروحية الإبداعية فاتسعت منابع الرحمة والعمل الصالح لوجه الله . وكانوا جميعا يعملون بعد أن لقنوا أن العمل عبادة ، ونصرة المظلوم عبادة ، ومساعدة الضعفاء عبادة ، وأن استقبال الناس بالبشر صدقة .

كانت ظلمات الجهل تجثم على يثرب ، وما كان يتنفس فيها إلا أساطير اليهود وبعض قشور من العلم الأول والكتاب الأول ، وكان العرب يرنون إلى ذلك العلم مبهورين . فلما جاء الرسول الكريم إلى المدينة ووضع أسس مجتمع جديد يشرع له رب العالمين إذا بمدينة الرسول تصبح مدينة مثالية تفوق كل المدن الفاضلة التى ما كان لها وجود إلا فى مخيلة طائفة من الفلاسفة الحالمين ، وإذا بملكوت الله الذى ابتهل السيد المسيح فى صلواته أن يأتى قد أصبح حقيقة واقعة فى الأرض يتنزل عليها العلم من العليم والحكمة من أحكم الحاكمين ؛ فإذا برعاة الإبل يتهيأون ليكونوا رعاة الشعوب .

وما كان يستمد سلطانه من ملك عظيم أو إمبراطور جليل بل من رب العالمين ، فكانت كلمته قانونا فما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، وكانت أفعاله سنة ، فهم يقرءون فى المساجد قول الله تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن

كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾(١) . وقد فجّر بأعماله ثورة اجتماعية تدعو إلى مكارم الأخلاق ، وبذر بذور الروحية التي كبحت جماح التحلل الاجتماعى ، وغرس فى النفوس دعائم قوية قادرة على حمل أمانة العمل على نشر دين عالمى رسالته إسعاد البشرية والأخذ بأيدى الناس من غياهب القلق والفناء إلى رحاب الطمأنينة والخلود .

إنه رأى سلمان الفارسى يوم أن كانوا يحفرون الخندق قد عجز عن تحطيم الكدية التى اعترضته فنزل ـ ﷺ ـ إليه وأخذ المعول من يده وضرب ضربة فكسر ثلثها ، وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن كالمصباح فى جوف ليل مظلم فكبر رسول الله وقال : أعطيت مفاتيح اليمن ، ثم ضرب الثانية فقطع ثاثا آخر فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : أعطيت مفاتيح الشام ، ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وبرق برقة فكبر وقال : أعطيت مفاتيح فارس . وقد بات أصحابه منذ ذلك الوقت يؤمنون أنهم ورثة الفرس والروم .

لقد انبثق من المدينة ضوء وكان رسول الله ـ ﷺ ـ وصحبه على ثقة بأن ذلك الضوء سيغمر العالمين ، ولكن جيران المدينة من مكيين وغطفانيين وأسديين ويهود يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . فكان عليه السلام لا ينتظر حتى يفجأه عدوه فى عقر داره ، بل يبعث السرايا شأن القائد المحنك الخبير ليشتت الجموع قبل أن تتحرك ، ويلقى الرعب فى قلوب أعدائه ، فما كان يؤمن بالسلام الموهوم وقد تعلم من القرآن أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض

---

(١) الأحزاب ٣٣ .

لفسدت الأرض .

صار المسجد ملاذ المؤمنين من الفراغ قد وجدوا فى تعاليم السماء خلاص نفوسهم البشرية ، وكان رسول الله عليه السلام يشعل طاقات إبداعية فى المجتمع الذى كان هاجعا من أمد قريب ، ويرشد الناس إلى الطريق لينكشف للناس باب الفوز الأكبر .

أصبحت القلوب صالحة صافية تطلب الحق قد حسنت صلاتها بالله وبالآخرين ، ولا جرم فرسول الله يعلمهم الجهاد فى الله ليهديهم الله سبله ويقول لهم على الدوام : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . فاستطاع أن يؤلف بين العقل والوجدان ، وأن يقضى على الشعور بالوحدة ، وأن يجعل للحياة هدفا أسمى من جمع المال وتغذية الحياة المادية وأمجاد الأرض .

وكان رسول الله — ﷺ — يحدث أصحابه والحزن يعتصر فؤاده ، فقد وجد على عاصم بن ثابت وأصحابه أصحاب الرجيع وجدا شديدا ، فقد بعثهم عيونا إلى مكة يتحسسون أخبار قريش ليأتوه بها وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى .

إن عمه العباس بن عبد المطلب كان يبعث إليه بأخبار قريش وكانت خزاعة تحمل إليه أنباء أعدائه ، ولكنه كان يبعث أصحابه ليعرف أخبار مكة التى أبت أن تخلى بينه وبين العرب .

وراح عاصم وأصحابه يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى إذا كانوا بالرجيع — وهى ماء لهذيل — نفر إليهم ما يقرب من مائة رام من بنى لحيان فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا نوى تمر أكلوه فى منزل نزلوه ، فلما أحس عاصم والذين معه باللحيانيين صعدوا فى جبل هناك فقال لهم اللحيانيون :

— انزلوا ولكم العهد أن لا نقتل منكم أحدا .

فقال عاصم :

— أما أنا فلا أنزل على ذمة وعهد كافر .

فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما وستة منهم ، ونزل إليهم ثلاثة على العهد وهم خبيب وزيد وعبد الله بن طارق ، فلما أمسكوهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوا خبيبا وزيدا وامتنع عبد الله وقال :

— هذا أول الغدر بعهد الله ، لا أصحبكم .

والتفت إلى القتلى وقال :

— إن لى بهؤلاء أسوة .

فعالجوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد ودخلوا بهما مكة فى شهر القعدة فباعوهما بأسيرين من هذيل كانا فى مكة ، فحبس خبيب وزيد إلى أن تنقضى الأشهر الحرم .

فلما انقضت الأشهر الحرم خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه فى الحل ، فلما قدم للقتل قال لهم : دعونى أصلى ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين وقال لهم : والله لولا أن تحسبوا أن ما بى من جزع لزدت . ثم صلبوه ليراه الوارد والصادر فيذهب بخبرها إلى الأطراف ثم قالوا له :

— ارجع عن الإسلام نخل سبيلك وإن لم ترجع لنقتلنك .

قال :

— إن قتلى فى سبيل الله لقليل ، اللهم إنه ليس هنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام فبلغه أنت عنى السلام وبلغه ما يصنع بنا .

كان رسول الله جالسا مع أصحابه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحى فسمعه أصحابه يقول :

ـــ وعليه السلام ورحمة الله وبركاته .

فلما سرى عنه ـــ ﷺ ـــ قال :

ـــ هذا جبريل عليه السلام يقرئنى من خبيب السلام ، خبيب قتلته قريش .

لم ينس نبى الإسلام عليه السلام ما لقى أصحابه من غدر بنى لحيان فأظهر أنه يريد الشام ، وعسكر لغرة هلال شهر ربيع الأول سنة ست من مهاجره فى مائتى رجل معهم عشرون فارسا واستخلف على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم ، ثم أسرع المسير حتى انتهى إلى بطن غُران وبينها وبين عُسفان خمسة أميال حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم ، فسمعت بهم بنو لحيان فهربوا فى رءوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد ، فأقام يوما أو يومين فبعث السرايا فى كل ناحية فلم يقدروا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عسفان ، ثم انصرف ـــ ﷺ ـــ إلى المدينة بعد أن غاب أربع عشرة ليلة وهو يقول :

ـــ آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء النظر فى الأهل والمال .

١٥

ركب أبو ذر راحلته وانطلق فى الفضاء العريض وقد خلف غفار وراءه . إنه خارج إلى مدينة الرسول وقد عزم على أن لا يفارق نبى الإسلام عليه السلام بعد أن فاته خير كثير ، فهو لم يخرج إلى مياه بدر مع البدريين ولم يشهد أول انتصار للمسلمين ، ولم يذب بسيفه عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوم أحد ، ولم يعمل فى الخندق مع العاملين . وإن ما نزل من القرآن فى هذه المواقف العظيمة يتراقص على شفتيه ويجعل الدموع تترقرق فى مقلتيه . وراح يرن فى وجدانه قول الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم » .

وراح أبو ذر يقلب وجهه فى معبد الله وهو مشدوه؛ كانت الروابى والهضاب وسفوح الجبال والشوامخ والشواهق قد كسيت بالنوار الأصفر، وزادها روعة تلك الفضة التى كانت تنسكب على الأرض من القمر الذى اكتمل بدرا، والسماء الصافية الزرقاء التى كانت تلثم عند الأفق البعيد البساط الأصفر الذى يموج باللجين، فامتلأت نفس أبى ذر نشوة، واستشعر أنه قريب من الله قربا بالمعنى والحقيقة والصفقة، وإذا به ينادى بكل وجوده : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾[1] .

* * *

---

(١) آل عمران ١٩١ .

وشرد أبو ذر يتذكر تلك الأيام التي كان يخرج فيها مع رفاقة من غفار ليشن الغارة على القوافل ويقطع الطريق ؛ إنه كان ينقض على المسافرين الآمنين انقضاض الليث على فريسته ، وكان الرفاق الذين يعيشون على السلب يغمرونه بالمديح ولكن كان بين جنبيه قلب متأهب لاستقبال النور ، فما إن مد عينيه إلى مواقع النجوم وفكر في سر السماوات والأرض حتى اهتدى إلى أن لهذا الكون ربا ، فهجر قطع الطريق وراح يصلي لله ويتوجه حيث وجهه الله ؛ قد استعد لمعرفة ربه بقلبه لا بجارحة من جوارحه .

وقد بلغه أن رجلا ظهر بمكة يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء وأن قومه كذبوه وآذوه ومنعوا الناس عنه فلا يمر به أحد إلا حذروه إياه ، فشد الرحال إلى الحرم ، وقاده علي بن أبي طالب إلى حيث كان رسول الله — ﷺ .

ورن في ضميره صوت النبي عليه السلام وهو يقرأ عليه القرآن ثم قوله له :

— ممن أنت يا أخا العرب ؟

— من غفار .

إنه ليرى وهو يخب على راحلته في سكون الليل وجه النبي عليه السلام وقد أشرق بابتسامة خفيفة وهو يرفع بصره فيه ويصوبه تعجبا لما كان يعلم من غفار ، وداعب أذنيه قول النبي عليه السلام :

— إن الله يهدي من يشاء .

— إن أحداث تلك الأيام قد حفرت في عين ذاته ؛ إنه شهد وهو مستريح الضمير أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وإن رسول الله —

ﷺ — قال له :

— يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل .

ولكنه كان واثقا بربه معتزاً بدينه فقال :

— والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم .

وخرج إلى المسجد فقال :

— يا معشر قريش إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

فقاموا إليه ومالوا عليه وضربوه ، وأقبل العباس فأكب عليه ثم أقبل على القوم فقال :

— ويلكم ! تقتلون رجلا من غفار وتجركم وممركم على غفار !

فأقلعوا عنه فذهب إلى زمزم وغسل عنه الدم ، وفى صبيحة اليوم التالى انطلق إلى الحرم ووقف وصاح بأعلى صوته :

— يا معشر قريش .. يا معشر قريش . إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فقاموا إليه وأشبعوه ضربا فخر مغشيا عليه ، وأقبل العباس يواسيه . العباس ؟! إنه فى حيرة من أمر هذا الرجل ، إنه يخف لتخليص المسلمين من أذى قريش ، وقد خرج مع ابن أخيه يوم العقبة ليأخذ له البيعة من الأنصار ، وإن الرسل لتمشى بينه وبين رسول الله عليه السلام بالأخبار . وقد نهى رسول الله عن قتله يوم بدر !

وراح أبو ذر يتذكر يوم جاء رسول الله — ﷺ — إلى غفار ، فقد خرج الناس لاستقبال الرسول الكريم ، فلما رآه أبو ذر هتف : « هو والله رسول الله » . فقال الجميع فى فرح : « جاء نبى الله » . وجعل الولائد

والصبيان والإماء يقولون : « هذا رسول الله قد جاء » .

ونزل رسول الله عن راحلته وسار أبو بكر معه ، وقد أقبل الناس يسلمون على النبي الحبيب وفى الوجوه استبشار وفى العيون عبرات وفى الصدور فرح فياض . وجلس الرسول عليه السلام وقام أبو بكر يذكر الناس ، ثم قرأ النبي القرآن وراح يدعو الناس إلى الإسلام فأقبلوا يبايعون .

وطلب خفاف بن رحضة الغفارى من النبى — ﷺ — أن يكتب كتابا لقومه ، فكتب عليه السلام لبنى غفار : أنهم من المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وأن النبى عقد لهم ذمة الله وذمة الرسول على أموالهم وأنفسهم والنصر على من بدأهم بالظلم ، وأن النبى إذا دعاهم لينصروه أجابوه وعليهم نصره إلى من حارب فى الدين ما بل بحر صوفة ، وأن هذا الكتاب لا يحول دون إثم .

ثم قال عليه السلام : « غفار غفر الله لها » .

ونامت غفار التى كانت تعيش على السطو وقطع الطريق فى رعاية الله ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

ولاحت المدينة لعينى أبى ذر فخفق قلبه شوقا ، إن هى إلا مرحلة حتى يدخل المدينة التى افتتحت بالقرآن وعمرت بالوحى والتنزيل وتردد بها جبريل وضجت جنباتها بالتقديس والتسبيح وانتشرت منها أنوار اليقين . إن بين ضلوعه لوعة وصبابة وتشوقا متوقد الجمرات للرسول ومدينة الرسول وأهلها الذين دعا لهم النبى — ﷺ — فقال : « اللهم بارك لهم فى مكيالهم وبارك لهم فى صاعهم ومُدِّهم » .

وورد أبو ذر المدينة فترجل ومشى باكيا فقد بلغ الانفعال غايته ، إنه

يرى مسجد الرسول وإن هى إلا أن يجتاز باب الرحمة حتى يرى محمدا الحبيب . وتقدم على استحياء ودلف إلى المسجد فإذا سوارى من جذوع النخل طرحت عليها العوارض والخصف والإذخر وإذا هو أقل من مائة فى مائة ، وراح يتلفت فى رهبة فإذا برسول الله ـ ﷺ ـ جالس فى مجلس المهاجرين عند الأسطوانة التى بعد أسطوانة التوبة إلى الروضة ، وهى عمود من عمد المسجد ارتبط فيه أبو لبانة لما خان الله ورسوله حتى تاب الله عليه .

ووجب قلب أبى ذر ، وسار وهو مأخوذ بروعة اللقاء حتى إذا قام على رأس الجالسين قال :

ـ السلام عليك يا رسول الله .

ورحب النبى عليه السلام بفتى غفار وجلس أبو ذر يصغى إلى سحر البيان حتى إذا حان أوان الصلاة قام بلال على منارة فى دار حفصة أم المؤمنين يؤذن، فأقبل الناس ليصلوا خلف رسول الله ـ ﷺ، وقام أبو ذر ليصلى أول صلاة مع نبى الإسلام والمهاجرين والأنصار .

وجاء الليل فانضم أبو ذر إلى أهل الصفة ، وكانوا قوما عاكفين على العبادة قد أعرضوا عن الدنيا وزينتها لا منازل لهم وما لهم مأوى غير المسجد ، يدعوهم الرسول إليه إذا تعشى فيفرقهم على أصحابه وتتعشى طائفة منهم معه ، وقد كان أبو ذر من هذه الطائفة .

وانكف الناس وطرح رسول الله ـ ﷺ ـ حصيرا وراء بيت فاطمة ووقف فى المحراب فكان يساره إلى باب عثمان ، وراح يصلى وأبو ذر يرقبه وقد ألقى إليه سمعه فإذا به عليه السلام يقرأ : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك

وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾(١) .

إن رسول الله عليه السلام يركع ويسجد بها طوال الليل حتى أصبح ، فقام أبو ذر إليه فقال :

ـــ يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع وتسجد بها .

فقال عليه السلام :

ـــ فإنى سألت الله الشفاعة فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عز وجل .

وصار أبو ذر يمضى فى المسجد النهار والليل ، يرى على بن أبى طالب وهو يقوم الليل عند الأسطوانة التى خلف أسطوانة التوبة ، فتوطدت بينهما الصداقة وكان حبهما لله وفى الله ، ويصغى إلى أحاديث رسول الله فيمتلئ حكمة ، ويشارك أبا بكر وعمر وعثمان وسلمان وسادات المهاجرين والأنصار مجالسهم فأشرقت أنوار المعرفة فى قلبه فإذا هو على نور من ربه .

وذات يوم دخل عمر المسجد وأبو ذر جالس وحده ، فقال عمر :

ـــ لم تجلس وحدك ؟

ـــ اجلس ! الصاحب الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من صاحب السوء ، ومملى الخير خير من مملى الشر ، والأمانة خير من الخاتم(٢) ، والخاتم خير من ظن السوء .

ونال أبو ذر الحظوة عند النبى ـــ ﷺ ، فكان عليه الصلاة والسلام

---

(١) المائدة ١١٨ .

(٢) أوهى أثر يظهر .

يتدثه إذا حضر ويتفقده إذا غاب . وذات يوم أتى أبو ذر رسول الله — ﷺ وهو نائم وعليه ثوب أبيض ، ثم أتاه وقد استيقظ ، فقال الرسول لما رأى أبا ذر :

— ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة .

— وإن زنى وإن سرق ؟

— وإن زنى وإن سرق .

— وإن زنى وإن سرق ؟

— وإن زنى وإن سرق .

— وإن زنى وإن سرق ؟!

— وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر .

١٦

خرجت قريش يوم الأحزاب وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فى بنى فزارة ، والحارث بن عوف بن حارثة المرى فى بنى مرة ، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع .

وكانت تتبع عيينة بن حصن عشرة آلاف فتاة فكان يعرف بالأحمق المطاع ، فلما اشتد حصار الأحزاب للمسلمين بعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة فى ذلك .

فلما أراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما ، فقالا له :

ـ يا رسول الله أمر تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟

ـ بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال سعد بن معاذ :

ـ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة

الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى[١] أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم :

ــ فأنت وذاك .

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال :

ــ ليجهدوا علينا .

وهزم الله الأحزاب وحده ، وفتح المسلمون قريظة ، ثم خرج عليه السلام إلى بنى لحيان يطلب بأصحاب الرجيع ، ثم قدم المدينة فلم يقم بها إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن فى خيل من غطفان على لقاح[٢] لرسول الله ــ ﷺ ــ بالغابة[٣] وفيها ابن أبى ذر وامرأته ليلى ، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فى اللقاح .

وغدا يريد الغابة سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى متوشحا قوسه ونبله ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس له يقوده . حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى بعض خيول عيينة والذين معه فأشرف فى ناحية سَلْع ثم صرخ :

ــ واصباحاه !

ثم خرج يشتد فى آثار القوم وكان مثل السبع حتى لحق بالقوم ، فجعل

---

(١) القرى : ما يصنع للضيف من طعام .

(٢) اللقاح : الإبل الحوامل ذات الألبان .

(٣) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام ، فيه أموال لأهل المدينة .

يردهم بالنبل ويقول إذا رمى :

ــ خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرُّضع[١] .

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربا ، ثم عارضهم فإذا أمكنه الرمى رمى ، ثم قال :

ــ خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرضع .

فيقول قائلهم :

ــ أوَ يُكعنا هو أول النهار .

وبلغ رسول الله ــ ﷺ ــ صياح ابن الأكوع ، فصرخ فى المدينة :

ــ الفزع الفزع ! يا خيل الله اركبى .

فترامت الخيول إلى رسول الله ــ ﷺ ، وكان أول من انتهى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ من الفرسان المقداد بن عمرو حليف بنى زهرة ، ثم كان أول فارس وقف على رسول الله ــ ﷺ ــ بعد المقداد من الأنصار عباد بن بشر بن وقش أحد بنى عبد الأشهل ، وسعد بن زيد أحد بنى كعب بن عبد الأشهل ، وأسيد بن ظهير أخو بنى حارثة بن الحارث ، وعكاشة بن مِحْصن أخو بنى أسد بن خزيمة ، ومُحْرز بن نضلة أخو بنى أسد بن خزيمة ، وأبو قتادة الحارث بن رِبْعى أخو بنى سلمة ، وأبو عياش وهو عبيد بن زيد بن الصامت أخو بنى زُريق ، فلما اجتمعوا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ أمر عليهم سعد بن زيد ثم قال :

ــ اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك فى الناس .

وقال رسول الله ــ ﷺ ــ لأبى عياش .

---

(١) الرضع : جمع راضع وهو اللئيم . والمعنى : اليوم يوم هلاك اللئام .

— يا أبا عياش لو أعطيت هذا الفرس رجلاً هو أفرس منك فلحق بالقوم ؟

— يا رسول الله أنا أفرس الناس .

ثم ضرب الفرس فوالله ما جرى به خمسين ذراعا حتى طرحه ، فعجب أن رسول الله — ﷺ — يقول لو أعطيته أفرس منك وهو يقول أنا أفرس الناس . فأعطى رسول الله عليه السلام فرس أبى عياش معاذ بن ماعص ، فخرج الفرسان فى طلب القوم حتى تلاحقوا .

وكان أول فارس لحق بالقوم محرز بن نضلة أخو بنى أسد بن خزيمة ، فوقف لهم بين أيديهم ثم قال :

— قفوا يا معشر بنى اللكيعة[1] حتى يلحق بكم من وراءكم من أدباركم من المهاجرين والأنصار .

وحمل عليه رجل منهم فقتله واستلب فرسه ، وتلاحقت الخيل فقتل أبو قتادة الحارث بن ربعى أخو بنى سلمة حبيب بن عيينة بن حصن وغشاه برده ثم لحق بالناس .

واستعمل رسول الله — ﷺ — على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم أقبل فى المسلمين فإذا حبيب مسجى ببرد أبى قتادة فقال الناس :

— إنا لله وإنا إليه راجعون . قُتل أبو قتادة .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— ليس بأبى قتادة ولكنه قتيل لأبى قتادة وضع عليه برده لتعرفوا أنه صاحبه .

---

(١) اللكيعة : اللئيمة .

وأدرك عكاشة بن محصن أوبارا وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد ، فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعا واستنقذوا بعض اللقاح .

وسار رسول الله — ﷺ — حتى نزل بالجبل من ذى قَرد وتلاحق به الناس ، فنزل رسول الله عليه السلام به وأقام عليه يوما وليلة ، وقال له سلمة بن الأكوع :

— يا رسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السرح وأخذت بأعناق القوم .

فقال له رسول الله — ﷺ — :

— إنهم الآن ليغبقون[1] فى غطفان .

فقسم رسول الله — ﷺ — فى أصحابه فى كل مائة جزورا وأقاموا عليها ، ثم رجع رسول الله — ﷺ — قافلا حتى قدم المدينة .

وأقبلت ليلى امرأة ابن أبى ذر على العضباء من إبل رسول الله — ﷺ — حتى أقبلت عليه فأخبرته كيف فرت من القوم فرغت ، قالت :

— يا رسول الله إنى قد نذرت لله أن أنحرها إن نجانى الله عليها .

فتبسم رسول الله — ﷺ — ثم قال :

— بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها ! إنه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا تملكين ، إنما هى ناقة من إبلى فارجعى إلى أهلك على بركة الله .

---

(١) يغبقون : يسقون اللبن بالعشى .

١٧

لما بنى رسول الله ـــ ﷺ ـــ مسجده بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل ، وكان لبيت عائشة مصراع واحد من صاج ، ولما تزوج رسول الله ـــ ﷺ ـــ حفصة بنت عمر بنى لها حجرة ما بين بيت عائشة إلى الباب الذى يلى باب النبى عليه السلام .

وتزوج عليه السلام زينب بنت خزيمة فبنى لها حجرة إلى جوار حجرة حفصة ، وماتت أم المساكين ، فلما تزوج رسول الله ـــ ﷺ ـــ أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب أسكنها حجرة أم المساكين ، فلما تزوج زينب بنت جحش بنى لها حجرة إلى جوار حجرات أمهات المؤمنين . وقد ضرب النبى ـــ ﷺ ـــ الحجرات ما بينه وبين القبلة والشرق إلى الشامى ولم يضربها فى غربيه . وكانت خارجة من المسجد مديرة به إلا من المغرب ، وكانت أبوابها شارعة فى المسجد على أبوابها مسوح من شعر أسود ، وذرع الستر ثلاثة أذرع فى ذراع .

وكان بيت فاطمة خلف بيت النبى ـــ ﷺ ـــ عن يسار المصلى إلى الكعبة ، وكان فيه خوخة إلى بيت النبى ـــ ﷺ . وقد مال إليها رسول الله عليه السلام وأحبها فكان يدخل عليها إذا عاد من سفره ويطيل المكث عندها قبل أن يدخل على أزواجه ، أو ابنته زينب التى عاشت معه سنين بعد أن تركت زوجها أبا العاص بن الربيع ، أو يذهب لزيارة أم كلثوم فى بيت زوجها عثمان بن عفان .

كانت فاطمة شديدة الاعتزاز بأبيها فكانت تتهلل بالفرح إذا ما سمعت

من قائل أن أبناءها أشبه بأبيها ، وكانت تتغنى بذلك إذا ما رقصت أحدهم أو داعبته ، فلم يكن أحب إلى قلبها من أن يقال لها إن أسباط رسول الله يشبهون رسول الله .

وكانت مفطورة على التدين ، ولا جرم فرسول رب العالمين وإمام المتدينين المتقين أبوها ، وأمها خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش وحاضنة الإسلام التي وهبت حياتها وأموالها لإعلاء كلمة الله وبزوغ أنوار اليقين من دارها ، فورثت عن نبى الإسلام إرهاف الحس الدينى، وعن حاضنة الإسلام عمق الإيمان ونصاعة التصديق الذى لا يشوبه شائبة من شك ، فنشأت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين .

دخل عليها رسول الله — ﷺ — فأكل عرقا فجاء بلال بالأذان فقام عليه السلام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقالت :

— يا أبه ! ألا تتوضأ ؟

— مم أتوضأ يا بنية ؟

— مما مست النار .

— أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟

وهمت أن أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء .

وأكرم رسول الله — ﷺ — فاطمة إكراما عظيما ، فقال أكثر من مرة فى أكثر من مناسبة :

— فاطمة سيدة نساء العالمين .

وقال إنها عديلة مريم بنت عمران ، وأنها إذا مرت فى الموقف نادى مناد من جهة العرش :

— يا أهل الموقف غضوا أبصاركم لتعبر فاطمة بنت محمد .

وما أكثر ما قال عليه السلام :

ـــ يؤذيني ما يؤذيها ويغضبني ما يغضبها ، وإنها بضعة مني يريبني ما رابها .

وقد أكل هذا التعظيم والتبجيل قلب عائشة بنت أبى بكر زوج النبى الأثيرة عنده ، ولم يخل قلب فاطمة من الضغن على بنت الصديق . وكان أول بدئه أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ تزوج عائشة عقيب موت خديجة فأقامها مقامها ، فكان ذلك بداية كدر ابنة خديجة وتغير قلبها على عائشة .

كانت فاطمة تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة ، ولما كانت النساء محدثات الليل فقد نجحت الزهراء فى أن تنقل ما فى قلبها إلى قلب زوجها على بن أبى طالب ، كانت تكثر الشكوى من عائشة حتى إنها طلبت ذات يوم من أبيها أن يسد الخوخة التى كانت بين بيته وبيتها حتى لا ترى عائشة ما يجرى فى دارها .

وكان جيران بيتها يأتين لزيارتها فكن ينقلن إليها كلمات عن عائشة ، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلن إليها كلمات عن فاطمة ، وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها كانت عائشة تشكو إلى أبيها لعلمها أنها لا تستطيع أن تشكو فاطمة إلى رسول الله عليه السلام ، فحصل فى نفس أبى بكر أثر ما .

وتزايد تقريظ رسول الله عليه السلام لعلى بن أبى طالب وتقريبه واختصاصه فأحدث ذلك حسدا له وغبطة فى نفس أبى بكر عنه وهو أبوها ، وفى نفس طلحة وهو ابن عمها ، وهى تجلس إليهما وتسمع كلامهما وهما يجلسان إليها ويحادثانها فأعدى إليها منهما كما أعدتهما .

وكان على عليه السلام ينفس على أبى بكر سكون النبى ـــ ﷺ إليه ،

وثناءه عليه ويحب أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين ، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده فتأكدت البغضة بين هذين الفريقين .

ثم كان من أمر القذف ما كان ، ولم يكن على عليه السلام من القاذفين ولكنه كان من المشيرين على رسول الله — ﷺ — بطلاقها تنزيها لعرضه من أقوال الشنأة والمنافقين . قال له لما استشاره :

— إن هى إلا شِسْع[1] نعلك .

وقال له :

— سل الخادم وخوفها وإن أقامت على الجحود فاضربها .

وبلغ عائشة هذا الكلام كله وسمعت أضعافه مما جرت عادة الناس أن يتداولوه فى مثل هذه الواقعة ، ونقل النساء إليها كلاما كثيرا عن على وفاطمة وأنهما قد أظهرا الشماتة جهارا وسرا بوقوع هذه الحادثة لها ، فتفاقم الأمر وغلظ .

ثم إن رسول الله — ﷺ — صالحها ورجع إليها ونزل القرآن ببراءتها ، فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قهر ويستظهر بعد أن غلب ويبرأ بعد أن اتهم من بسط اللسان وفلتات القول ، وبلغ ذلك كله عليا وفاطمة فاشتدت الحال وغلظت وطوى كل من الفريقين قلبه على الشنآن لصاحبه .

وذات يوم استدنى رسول الله عليا فجاء حتى قعد بينه وبينها وهما متلاصقان ، فقالت :

---

(١) الشسع : النعل التى تشد إلى زمامها .

— أما وجدت مقعدا لك إلا فخذى ؟

إنها لا تكنى عنه فهيجت ما فى نفس على .

وساير النبى عليه السلام عليا يوما وأطال مناجاته ، فجاءت وهى سائرة خلفهما حتى دخلت بينهما وقالت :

— فيم أنتما فقد أطلتما ؟

فغضب رسول الله — ﷺ — ذلك اليوم ، وغضب على ولا شك وإن كان قد كتم غضبه فى قلبه .

ثم اتفق أن فاطمة ولدت أولادا كثيرة بنين وبنات و لم تلد هى ولدا ، وأن رسول الله — ﷺ — كان يقيم بنى فاطمة مقام بنيه ويسمى الواحد منها « ابنى » ويقول :

— دعوا لى ابنى .. وما فعل ابنى ؟

كان ذلك القول يلسع قلب عائشة فقد حرمت الولد من البعل ، ثم رأت البعل يتبنى بنى ابنته من غيرها ويحنو عليهم حنو الوالد المشفق !

و لم تسغ عائشة مرارة الضرائر ، و لم تسترح من ألم حرمانها الأبناء ، و لم تعوضها كنيتها بأم عبد الله عن الحقيقة الأليمة التى كانت تتجرع غصصها كلما نظرت إلى أبناء الزهراء ، و لم تستطع معرفتها بأنها حبيبة رسول الله أن تمحق تلك الغيرة التى كانت تكابدها من بنت رسول الله عليه السلام ومن بعلها من الضرائر الجميلات وذوات الأحساب .

كانوا بشرا فكانت أفئدتهم تخفق بالغيرة وتشرق فى نفس الوقت بأنوار اليقين ، إنهم يجاهدون بالعبادات لتصفية القلوب وتزكيتها وجلائها ومحو الصفات المذمومة ، فكانوا كثيرا ما يرتفعون ليطرقوا أبواب ملكوت السماوات ولكنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من آدميتهم وما توسوس به

نفوسهم .

كان رسول الله — ﷺ — قدوتهم وكانوا جميعا يحاولون أن يترسموا خطاه ، ولكن أين هم ممن اصطفاه ربه ليبلغ رسالته ويكون أسوة حسنة للمؤمنين ؟ إنهم تعلموا من رسول الله عليه السلام الخير كله ، وإن عبد الله ابن عمر يتبع آثار النبى — ﷺ — فى منازله فهو ينظر ماذا يفعل عليه السلام فى كل أمر ليحاكيه ، وأين صلى ليصلى فى ذات المكان ، وأين وقف يدعو ربه فيقف خاشعا يدعو الله ، وأين جلس يناجى الرحمن فيجلس فى نفس المكان للمناجاة .

ورأى ابن عمر فى نومه كأن بيده قطعة من إستبرق وكأنه لا يريد مكانا من الجنة إلا طارت به إليه ، ورأى كأن اثنين أتياه وأرادا أن يذهبا به إلى النار فتلقاهما ملك فقال :

— لا تُرع .

فخليا عنه .

فذهب إلى أخته حفصة أم المؤمنين وقد وجب قلبه وقص عليها رؤياه وهو يرجو أن تعرف أخته من رسول الله — ﷺ — تأويل ما رأى ، فقصت حفصة على النبى — ﷺ — رؤياه فقال رسول الله — ﷺ — :

— نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل فيكثر .

ولم يدع ابن عمر بعدها قيام الليل فى حله ولا ترحاله .

١٨

كانت المدينة تشرق كل صباح ومساء بوحى السماء ، وكان رسول الله ــ ﷺ ــ منارة النور قد التف حوله رجال يقتبسون منه العلم والحكمة وأضواء الهداية إلى الطريق . وما كانوا رجالا ضعافا يفرون من قيظ الحياة إلى الدعة والطمأنينة والهدوء ، بل كانوا سادات فى قريش وصفوة المدينة التى فتحت أبوابها طائعة لتستقبل الرسول الكـريم فى ترحيب وتهليل ، بعد أن فتح القرآن المجيد أفئدتهم لما ألقوا إليه أسماعهم وقد برأت من الحسد نفوسهم ، ورجالا فقراء فى أسمال بالية ولكـن بين جوانحهم قلوبا كبيرة تهفو إلى أنوار اليقين . وكانوا جميعا على استعداد لأن يجودوا بأرواحهم وأموالهم وأن يقفوا فى وجه الدنيا بأسرها فى سبيل إعلاء كلمة الحق ، فى وقت كان رسول الله عليه السلام يقول لهم لا أملك لكم نفعا ولا ضرا ولا أدرى ما يفعل بى ولا بكم .

تنازل أبو بكر الصديق عن طيب خاطر عن كل ما كان ينتظره من مجد إذا ما قبل أن يكون سيد بنى تيم بعد أن هلك عبد الله بن جدعان ، وآثر أن يتبع النور وأن ينفق كل ما جناه من تجارته فى سبيل إشراق النور . إنه ما إن ألقى سمعه إلى القرآن حتى انهملت عيناه وتسربل بالخشوع وارتدى بالحزن وتلألأت فى قلبه الأنوار ، فهجر كل مجد ليقفو أثر مجد الله ، فكان الصاحب الأمين ورفيق الهجرة ، وقد جعل حركاته فى تقوى الله ، وجعل الله ثقته ورجاءه فأصبح من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون .

وكان عمر بن الخطاب جبار الجاهلية يصب جام غضبه على المسلمين ، وذات يوم أقسم بآلهته وكل عزيز لديه أن يقتل الصابئ الذى فرق بين الناس فخرج يريد رسول الله عليه السلام ، وفيما هو منطلق والشرر يقدح من عينيه قال له قائل قوم بيتك قبل أن تسفك دم نبى الإسلام عليه السلام . فلما علم أن أخته قد أسلمت ذهب إلى بيت ختنه سعيد بن زيد فسمع همهمة فدخل غاضبا كالعاصفة يسأل عن هذه الهمهمة ، ويضرب أخته ويضرب زوجها . ولما يسيل الدم من رأس أخته تقول فى شجاعة المؤمنين إنها كانت تقرأ القرآن ، فيطلب الصحيفة ليقرأ فيها فتقول له إنه نجس وأن عليه أن يتطهر قبل أن يمس كلام الله . ويخضع الجبار لامرأة مسلمة منحها الإسلام مضاء عزيمة انهارت أمامها عزيمةابن الخطاب ، ودخل ليتطهر ثم خرج يقرأ فى الصحيفة آيات الذكر الحكيم فإذا بدواء القرآن يشفى داء قلبه ، وإذا بالكفر يتبخر من نفسه ، وإذا بجذور الضلال تقتلع من أعماقه ، وإذا بالغى يجتث من عين ذاته ، وإذا بالزيت الذى فى مشكاة قلبه يضىء ويصبح نورا على نور ، فيخرج من دار أخته يسأل عن رسول الله ﷺ — لا ليهريق دمه بل ليعلن إسلامه وتصديقه لرسالة الرسول ويصغى إلى الذكر الحكيم ، فقد هدى إلى الصراط المستقيم .

وكان عثمان بن عفان يغدو ويروح بين أسواق الروم وأسواق الفرس وأسواق العرب ليجمع الأموال التى يشرف بها الرجال فى قريش ، وقد صار من أغنياء الأمويين يعيش فى أمن ودعة وسلام . ولكن ما إن مس أذنيه القرآن المجيد حتى تفتح له فؤاده وانشرح له صدره فآمن برسالة النبى عليه السلام وهانت الدنيا فى عينيه ، وذاق حلاوة الإيمان والأنس برب العالمين ، وتحمل اضطهاد عمه الحكم بن العاص فى صبر حتى إذا ما نفد

صبره هاجر إلى الحبشة فرارا بدينه وقد ترك أمواله وهجر تجارته ورحمة ربك خير مما يجمعون .

وتفتح قلب الصبى على بن أبى طالب على القرآن العظيم فعلم أنه الناصح الذى لا يغش ، والهادى الذى لا يضل ، والمحدث الذى لا يكذب . وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان : زيادة فى هدى أو نقصان من عمى ، وعلم أنته ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى ، فاستشفه من أدوائه ، واستعان به على لأوائه ، وكرس حياته ليكون ربيبه ، واستعد ليبذل روحه فى سبيله .

وبلال بن رباح عبد بنى جمح الحبشى يصغى ذات يوم إلى رسول الله عليه السلام وهو يتلو بعض ما أنزل إليه من ربه ، فإذا بنور الله يستقر فى سويداء قلبه فينقلب العبد الذليل إلى حر طليق وإن كان لا يزال فى الأرض من طبقة العبيد . إنه فى قرارة نفسه قد خلع كل عبودية إلا عبوديته لله وحده ، فلما عرف إسلامه وعذب أشد العذاب كان نشيده : أحد .. أحد ، وصبر على العذاب حتى إن ساداته فى الأرض راحوا يلتمسون منه أن يذكر آلهتهم بكلمة خير ليطلقوه فكان يقول : إن لسانى لا يحسنه .

كانت آيات الله البينات النور الذى اتبعه ، الفصل بين الضلال والهدى ، فلم يغفل منذ أن أسلم عن قراءة القرآن صباحا ومساء فأحيا موات قلبه وأكسب ذاته عمقا وخصبا وثراء ، وبات لا يخشى العالم ، وكيف يخشى الناس وهو يحس بكل وجوده أنه مع الله وأن الله معه ؟!

وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، شباب قريش وفخر بيوت شرفها ما إن أعاروا رسول الله عليه السلام سمعهم وأنصتوا إلى كلام الله حتى انبلجت لقلوبهم

الحقيقة فأشرقت بالأنوار ، وهجروا كل مباهج الدنيا فى سبيل وجه الله ، وعكفوا على قراءة القرآن ففاضت عيونهم بالدمع و لم يروا أن أحدا أوتى أفضل مما أوتوا ، فصبروا فى الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وضحوا بالأموال وراحة البال فى سبيل سعادة البشر .

وكان مصعب بن عمير أعطر أهل مكة ، ما من فتى بمكة أنعم عند أبويه منه . كان مدللا يرفل فى الحرير ولكنه كان يهاب أمه خناس بنت مالك فقد كانت صاحبة شخصية قوية ترهب كل الناس .

وسمع مصعب أن محمد بن عبد الله يدعو فى دار الأرقم إلى دين جديد فذهب إلى الصفا واستأذن فى الدخول فأذن له ، فجلس يصغى إلى ما يقرأ رسول الله عليه السلام من آيات الله البينات ، فإذا بفؤاده يتألق بالنور ، وإذا بصدره ينشرح للإسلام ، فيبسط يده ليبايع رسول الله عليه السلام — ويعلن وهو متفرح فى الله إسلامه .

ومنذ ذلك اليوم لم يستطع صبرا عن رسول الله عليه السلام فكان يأتيه ليلقى إليه سمعه ليسعد بعذوبة القرآن . فأمسى يقوم الليل إذ النــاس نائمون ، ويصوم النهار إذ الناس مفطرون ، ويغمره الحزن إذ النـاس يفرحون ، ويجهش بالبكاء إذ الناس يضحكون ، ويمتلئ بالخشوع إذ الناس يختالون .

وأبصر به عثمان بن طلحة وهو يدخل خفية إلى دار الأرقم ، ثم رآه يصلى مع المسلمين فطار إلى أم مصعب وألقى إليها نبأ إسلام ابنها فثارت وحاولت أن تثنى ابنها عن الدين الذى دخل فيه ، ولكن محاولاتها باءت بالإخفاق فما كان القلب الذى عرف النور ليرضى بالعودة إلى الظلمات ، فاستعانت خناس بنت مالك بعشيرتها وحبست ابنها فى ركن من الدار إلى

أن يعود الصابىء إلى دين آبائه وقومه .

واشتد إيذاء قريش للمسلمين ففروا بدينهم إلى الحبشة ، وغافل مصعب أمه وحراسه ولحق بإخوانه المهاجرين وقد خفف من لوعته على فراق الأهل والأوطان أنسه بالله وتلاوته القرآن العظيم .

وعاد بعض مهاجرى الحبشة إلى مكة وعاد مصعب مع العائدين ، ودخل على أمه وهو يرجو أن يشرح الله صدرها للإسلام فراح يتلو عليها القرآن . ولكن لا تعمى العيون ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور فأصرت على الكفر والضلال .

و لم يقنط فقال لها وهو يحاورها :

ــ يا أمه ، إنى لك ناصح وعليك شفوق فاشهدى أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

فلجت فى الكفر وأعرضت عنه فآثر مصعب نور الله على حياة الدعة ورغد العيش، فتركها وخرج وهو سعيد بما يحمل من قرآن عظيم، وانطلق إلى يثرب ليفقه الأنصار الذين بايعوا رسول الله عند العقبة فى الدين.

وجاء أبو ذر من غفار يسعى إلى مكة ليقابل ذلك الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء . فما إن ألقى سمعه إلى نبى الإسلام عليه السلام وهو يتلو بعض آيات الذكر الحكيم حتى أشرق النور فى فؤاده وانشرح صدره وانكشف له سر الملكوت . إنه جاء يطلب الهداية فعاد إلى غفار وهو يحمل النور ويتلو ما حفظ من الكتاب المنير ، فطوبى لأمة ينزل عليها هذا ! وطوبى لأجواف تحمل هذا ! وطوبى لألسنة تنطق بهذا !

وقدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة وكان رجلا شريفا شاعرا لبيبا ، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له :

— يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

فما زالوا به حتى أجمع أن لا يسمع منه شيئا ولا يكلمه حتى حشا فى أذنيه حين غدا إلى المسجد قطنا فرقا من أن يبلغه شىء من قوله وهو لا يريد أن يسمعه ، فغدا إلى المسجد فإذا رسول الله — ﷺ — قائم يصلى عند الكعبة فقام منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يُسمعه بعض قوله فسمع كلاما حسنا فقال فى نفسه :

— واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

فمكث حتى انصرف رسول الله — ﷺ — إلى بيته فاتبعه ، حتى إذا دخل بيته دخل عليه فقال :

— يا محمد إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكر سُف[1] لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعته قولا حسنا ، فاعرض على أمرك .

فعرض عليه رسول الله — ﷺ — الإسلام وتلا عليه القرآن فأحس كأن الجهل الذى ران على قلبه قد كشط ، وأنه ينظر إلى ملكوت السماء بعد أن هبت عليه نسائم الألطاف . إنه وهو الشاعر اللبيب لم يسمع قولا

---

(١) بقطن

قط أحسن مما يتلوه رسول الله عليه السلام فأسلم وشهد شهادة الحق ورجع إلى دوس ليفتحها للإسلام بالقرآن المجيد .

ولقى رسول الله — ﷺ — عند العقبة رهطا من الخزرج فقال لهم :

— من أنتم ؟

— نفر من الخزرج .

— أمن موالى يهود ؟

— نعم .

— أفلا تجلسون أكلمكم ؟

— بلى .

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فأحسوا كأنما جعل الله لهم نورا يمشون به فى النـاس ، فصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا :

— إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله — ﷺ — ودعوهم إلى الإسلام وتلوا عليهم القرآن ، فأشرقت أنوار المعارف فى قلوبهم وارتفعت عنها الحجب بلطف من الله تعالى فامتلأت صدورهم بأنوار اليقين ، وفشى الإسلام فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله — ﷺ — .

قام محمد بن عبد الله — ﷺ — فى مكة وحده أعزل من كل سلاح إلا سلاح القرآن ، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويتلو

عليهم ما أنزل عليه من ربه ، فلما سمع أولو الألباب آيات الله البينات فاضت عليهم الرحمة وأشرق النور فى أفئدتهم وتلألأت فيها حقائق الأمور فأعرضوا عن زخرف الحياة الدنيا وأقبلوا بكنه الهمة على الله فكانوا لله وكان الله لهم .

فتح عليه السلام القلوب المغلقة بالقرآن ، وما إن سمعت المدينة آيات الذكر الحكيم حتى فتحت أبوابها للوافد الكريم خاتم المرسلين . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون * هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

---

(١) الحشر ٢١ — ٢٤ .

١٩

كان رسول الله ــ ﷺ ــ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . إنه منح من السخاء والجود ما فاق به كل جواد ، وقد فتح الله له حصون اليهود وأنفله قوافل قريش فما اقتنى دينارا ولا درهما . لا يأكل إلا الغليظ من الطعام ولا يلبس إلا الخشن ويصبر على الجوع .

وكان ــ ﷺ ــ إذا سئل وهو مُعدِم وعد لم يرد وانتظر ما يفتح الله . إنه كان جالسا فى مسجده فجاء رجل إليه يسأله ولم يكن عنده ما يعطيه فقال :

ــ اجلس سيرزقك الله .

ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهما :

ــ اجلسا .

وجلس الرجال الثلاثة وقد مالت الشمس للغروب ، فجاء رجل بأربع أواق فأعطاه إياها وقال :

ــ يا رسول الله هذه صدقة .

فدعا الأول فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية ، وبقيت معه أوقية واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد . فلما كان الليل دخل بيت عائشة ووضع الأوقية تحت رأسه وفراشه عباؤه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلى ، فقالت له عائشة :

ــ يا رسول الله حل بك شىء ؟

ــ لا .

— فجاءك أمر من الله ؟

— لا .

— إنك صنعت منذ الليلة شيئا لم تكن تفعله .

فأخرج الأوقية وقال :

— هذه التي فعلت بي ما ترين ، إني خشيت أن يحدث أمر من الله و لم أمضها .

و لم تعجب عائشة فهي تعرف إرهاف حسه و كرمه وجوده وخشيته من الله ، إنه يقول :

— أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن ترك دينا فعلى ، ومن ترك مالا فلورثته .

و كان أصحابه يحبونه حبا يفوق حبهم أهليهم وأبناءهم ، ويطيعونه طاعة لم ير ملك ولا حاكم مثلها من رعاياه و شعبه مهما بلغ حب الشعب إياه ، ولا جرم فقد كان رسول الله ﷺ — على خلق عظيم يأتيه الوحي من السماء . و لم يمنع ذلك الحب والتبجيل أصحابه من أن يسألوه عن أشياء التماسا لطمأنينة النفوس . قالت له الأنصار يوم بدر وقد نزل بمنزل لم يستصلحوه :

— أنزلت هذا المنزل عن رأي رأيت أم بوحي أوحي إليك ؟

قال :

— بل عن رأي رأيته .

قالوا :

— إنه ليس لنا بمنزل ، ارحل عنه .

ورحل عنه ونزل إلى حيث أشار أصحاب المكيدة والحرب .

وقال له سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يوم الخندق وقد عزم على مصالحة غطفان ببعض تمر المدينة .

ـــ قالا :

ـــ لا والله لا نعطيهم منها تمرة واحدة وأيدينا فى مقابض سيوفنا !

ولم يغضب لأنهما خالفا رأيه وما أشار به بل نزل على مشورتهما وهو راضى النفس ، حتى جاء الله بالنصر .

وكان عليه السلام يمقت الظلم فيقول : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة . وكان يقول : الظلم ظلمات يوم القيامة .

إنه عليه السلام سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال :

ـــ إنما أنا بشر وإنه يأتى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها .

وعلى الرغم من مقته للظلم والظالمين فإنه كان يحب أن يخرج الناس عن ظلمهم فيقول :

ـــ من كانت له مَظلَمة لأحد من عرضه أو شىء فليتحلّله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم . إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه .

وكان ـــ ﷺ ـــ يتلو ما أنزل إليه من ربه : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون

فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور * ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾(١) .

وكان عليه الصلاة والسلام يحاول بكل ما أوتى من عزم أن يعطى كل ذى حق حقه وأن يرسى فى الأرض أسس العدل ، فقد كان للأشعث بئر فى أرض ابن عم له فاختصما إلى رسول الله عليه السلام ، فقال — ﷺ — لأشعث :

— شهودك ؟

— ما لى شهود .

— فيمينه .

قال أشعث :

— يا رسول الله إذًا يحلف .

وخشى رسول الله عليه السلام أن يحلف معدان بن الأسود ابن عم أشعث يمينا فاجرة يذهب بها حق صاحب الحق ، فقال :

— من حلف على يمين يقتطع بها مال امرىء هو عليها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان . فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾(١) .

ولم يكن عليه السلام يقف عند حقوق الناس بل كان يحض على توفير حقوق الأبدان بله الآبار والطرق والأرضين . كان يقول : إن لبدنك

(١) الشورى ٤٠ — ٤٤ .

(٢) آل عمران ٧٧ .

عليك حقا . وقال للأنصار :

ـــ إياكم والجلوس على الطرقات .

فقالوا :

ـــ ما لنا بد ، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها .

ـــ فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها .

ـــ وما حق الطريق ؟

ـــ غضن البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

وكان ـــ ﷺ ـــ يقول : إماطة الأذى عن الطريق صدقة .

وجلس ذات يوم يحدث أصحابه قال :

ـــ بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل :

« لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى » .

فنزل البئر فملأ خفه ماء فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له .

قالوا :

ـــ يا رسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرا ؟

ـــ فى كل ذات كبد رطبة أجر .

وكان أصحاب الرسول عليه السلام يزرعون الأرض بالثلث والربع والنصف ، فقال النبى ـــ ﷺ :

ـــ من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسك أرضه .

وكان عليه السلام يحض أصحابه على العمل فيقول : إن الإنسان

ليؤجر إن قامت الساعة وفى يده عمل فأتمه . ويقول : إن الإيمان هو العمل ، بل ذهب إلى أن الإنسان يعمل فى الآخرة . إنه كان يوما يحدث وعنده رجل من أهل البادية فقال :

ــ إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع فقال له : ألست فيما شئت ؟ قال : بلى . ولكنى أحب أن أزرع . فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال ، فيقول الله تعالى : دونك يابن آدم فإنه لا يشبعك شىء .

فقال الأعرابى :

ــ والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا فإنهم أصحاب زرع ، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع .

فضحك النبى ــ ﷺ .

وإنه ــ ﷺ ــ جاء ليتمم مكارم الأخلاق ، فكان يوصى الإنسان بوالديه إحسانا . وقد سأله ذات يوم عبد الله بن مسعود كاتم سره :

ــ أى العمل أحب إلى الله ؟

ــ الصلاة على وقتها .

ــ ثم أى ؟

ــ ثم بر الوالدين .

ــ ثم أى ؟

ــ الجهاد فى سبيل الله .

وجاء رجل إلى رسول الله عليه السلام فقال :

ــ يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟

ــ أمّك .

— ثم من ؟

— أمّك .

— ثم من ؟

— أمّك .

— ثم من ؟

— ثم أبوك .

وقال رجل للنبى — ﷺ :

— أجاهد .

— لك أبوان ؟

— نعم .

— ففيهما فجاهد .

وقال رسول الله — ﷺ :

— إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه .

— يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟

— يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه .

وقال رسول الله — ﷺ — لأصحابه :

— ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟

— بلى يا رسول الله .

— الإشراك بالله وعقوق الوالدين .

وكان متكئا فجلس فقال :

— ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور .

فما زال يقولها حتى قيل لا يسكت .

وجاءت إلى أسماء بنت أبى بكر أمها وكانت مشركة ، فذهبت أسماء إلى رسول الله — ﷺ — فقالت :

— آصلها .

— نعم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾(١) .

وجاء أعرابى إلى النبى — ﷺ — وكان عنده الحسن بن على ، فقبل رسول الله عليه السلام الحسن فقال الأعرابى :

— تقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم .

فقال النبى — ﷺ — :

— أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟

وكان عليه السلام يرى أن حسن العهد من الإيمان . إنه كان يذكر خديجة بنت خويلد حاضنة الإسلام على الدوام . وكان إذا ذبح الشاة يهدى أحباءها منها حتى إن عائشة أم المؤمنين كانت تقول :

— ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، وقد هلكت قبل أن يتزوجنى بثلاث سنين لما كنت أسمعه يذكرها .

وكان عليه السلام يقول :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله

---

(١) الممتحنة ٩ .

واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت .

ويقول :

— والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن .

قيل :

— من يا رسول الله ؟

— الذى لا يأمن جاره بوائقه .

وقال عليه السلام :

— ما زال يوصيني جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

وكان يعلم أصحابه أن الكلمة الطيبة صدقة ، وأن الله يحب الرفق فى الأمر كله ، وأن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، ولم يكن عليه السلام فاحشا ولا متفحشا وكان يقول :

— إن من أخيركم أحسنكم خلقا .

واستأذن رجل على النبى — فلما رآه قال :

— بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة .

فلما جلس تطلّق النبى — ﷺ — فى وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة :

— يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ، ثم تطلّقت فى وجهه وانبسطت إليه .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا عائشة متى عهدتنى فحاشا ؟ إن شر الناس منزلة يوم القيامة من

تركه الناس اتقاء شره .

كان عليه السلام أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم النبى — ﷺ — قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول :

— لن تراعوا ، لن تراعوا .

وهو على فرس لأبى طلحة عرى ما عليه سَرْج فى عنقه سيف ، فقال :

— لقد وجدته بحرا(١) .

وما سئل عليه السلام عن شىء قط فقال لا ؛ فقد جاءت امرأة إليه ببردة فقالت :

— يا رسول الله أكسوك هذه .

فأخذها النبى — ﷺ — محتاجا إليها فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال :

— يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها .

— نعم .

فلما قام النبى — ﷺ — لامه أصحابه قالوا :

— ما أحسنت حين رأيت النبى — ﷺ — أخذها محتاجا إليها ثم سألته إياها ، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئا فيمنعه .

— رجوت بركتها حين لبسه النبى — ﷺ — لعلى أكفن فيها .

وخدم أنس النبى — ﷺ — فما قال له أف ! ولا لم صنعت ؟ ولا ألا صنعت ؟ وكان عليه السلام فى مهنة(١) أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى

---

(١) أى واسع الجرى مثل البحر .

(٢) خدمة .

الصلاة ، وكان يقول :

ـــ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، حتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وكان ينهى أصحابه عن الظن فيقول :

ـــ إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

وكان عليه السلام متواضعا لله وأشد الناس خشية لله ، وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، فإذا رأى شيئا يكرهه عرف فى وجهه ، وكان يقول :

ـــ الحياء لا يأتى إلا بخير .

وقد مر على رجل وهو يعاتب أخاه فى الحياء يقول :

ـــ إنك لتستحى ، قد أضر بك .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ دعه فإن الحياء من الإيمان .

وكان عليه السلام يحب التخفيف واليسر على الناس ، وقد قالت عائشة أم المؤمنين :

ـــ ما خير رسول الله ـــ ﷺ ـــ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه فى شىء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها الله .

وكان يقول :

ـــ يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا .

وبال أعرابى فى المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به ، فقال لهم رسول الله — ﷺ :

— دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا[١] من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين .

وأخبر عليه السلام أن عبد الله بن عمرو يقوم الليل ويصوم النهار ، فدخل عليه فقال :

— ألم أُخبَر أنك تقوم الليل وتصوم النهار !

— بلى .

— فلا تفعل ، قم ونم وصم وأفطر ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزورك[١] عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا .

وكان عليه السلام يقول :

— ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس .

مر رجل على رسول الله — ﷺ — فقال لرجل عنده جالس :

— ما رأيك فى هذا ؟

— رجل من أشراف الناس ، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع .

فسكت رسول الله — ﷺ ، ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ :

— ما رأيك فى هذا ؟

— يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا حرى إن خطب

---

(١) أى لزائرك وضيفك .

ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا .

وبينا الصحابة جلوس مع النبى — ﷺ — فى المسجد دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم :

— أيكم محمد ؟

والنبى — ﷺ — متكئ بين ظهرانيهم فقالوا :

— هذا الرجل الأبيض المتكئ .

فقال له الرجل :

— ابن عبد المطلب .

فقال له النبى — ﷺ — :

— قد أجبتك .

— إنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة ، فلا تجدْ علىَّ فى نفسك .

— سل عما بدا لك .

— أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟

— اللهم نعم .

— أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة ؟

— اللهم نعم .

— أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟

— اللهم نعم .

— أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فنقسمها على فقرائنا ؟

— اللهم نعم .

— آمنت بما جئت به .

وأتى عتبان بن مالك ، وهو من أصحاب رسول الله — ﷺ — ممن شهد بدرا من الأنصار ، رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله قد أنكرت بصرى وأنا أصلى لقومى ، فإذا كانت الأمطار سال الوادى الذى بينى وبينهم لم أستطع أن آتى مسجدهم فأصلى بهم ، ووددت يا رسول الله أنك تأتينى فتصلى فى بيتى فأتخذه مصلى .

فقال له رسول الله — ﷺ — :

— سأفعل إن شاء الله .

فغدا رسول الله — ﷺ — وأبو بكر حين ارتفع النهار ، فأستاذن رسول الله — ﷺ — فأذن له ، فلم يجلس حين دخل البيت ، ثم قال :

— أين تحب أن أصلى من بيتك ؟

فأشار له إلى ناحية من البيت ، فقام رسول الله — ﷺ — فكبر ، فقاموا فصفهم فصلى ركعتين ثم سلم .

وحبسوه على خزيرة[1] صنعوها له ، فجاء فى البيت رجال من أهل الدار ذوو عدد فاجتمعوا فقال قائل منهم :

— أين مالك بن الدُّخْشن ؟

فقال بعضهم :

— ذلك منافق لا يحب الله ورسوله .

فقال رسول الله — ﷺ — :

---

(١) الحساء من الدسم والدقيق .

— لا تقل ذلك ، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله ؟

— الله ورسوله أعلم ، فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين .

قال رسول الله — ﷺ :

— فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله .

كان رقيق القلب على خلق عظيم فتعلقت به القلوب وهفت إليه :
﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾[1] .

---

(١) آل عمران ١٥٩ .

٢٠

كان القرآن المجيد ينزل على رسول الله — ﷺ — فيشرع للناس عباداتهم وسلوكهم ويقود حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ويغرس فى نفوسهم عقيدة سمحة تحكم الوجدان وواقع الحياة ، فصار الدين نبض المدينة وروح مجتمعها وباعث نشاطها الحى الخلاق .

وصار القرآن مصدر كل حركة والإشعاع الذى تقتبس منه الأفئدة النور الذى يرشدها إلى طريق الرشاد فى الدنيا والآخرة : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما * وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾[١] .

وأصبح القانون الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو الشريعة التى يتبعها المسلمون ، فإذا بالمجتمع القبلى الذى كان يسوده الفردية والتباغض والتشاحن يغدو أمة متماسكة انبعثت فى أبنائها يقظة روحية ويقظة فكرية فتحت القلوب لأنوار اليقين ، فظهرت ينابيع الحكمة فى الأفئدة على الألسن وفى السلوك .

---

(١) الأحزاب ٣٥ — ٣٦ .

وقد نجح وحى الله فى أن يكون فى بضع سنين مجتمعا متكاملا غاية التكامل ناضجا غاية النضج ، لم تعرف له طفولة أو شباب بل فحولة بلغت غاية رشدها العقلى ورشدها الروحى . ولا غرو فما كان مجتمعا من صنع البشر يحتاج فى تطوره إلى أجيال وقرون بل كان من صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون .

عدّل كتاب الله المناخ التفكيرى للمؤمنين وقضى على كل صراع بين منطق البيئة وشريعة الله لمن شاء أن يستقيم . كانت يثرب موئل صاحبات الرايات الحمر وكان شباب الجزيرة العربية وشيوخها الماجنون يشدون إليها الرحال لينعموا بالبغايا من سادات الأوس والخزرج وبنات اليهود ، فنزل القرآن الكريم يحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فاقتلعت ثقيفة صاحبات الرايات الحمر واجتثت من المدينة عادة إكراه السادات إماءهم على البغاء رجاء عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم .

وكانت القوافل تأتى بالخمور من الشام وما كان مجلس من مجالس العرب يخلو من الشراب ، وكان شعر الشعراء حتى المسلمين منهم يفيض بالخمريات ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[1] . كسر المسلمون دنان الخمر وأهريقت فى الطريق فجرت فى طرقات المدينة أنهارا ، وحرمت على المؤمنين .

وكانت البيئة تحتقر المرأة لا تستنكر وأدها صغيرة ولا طردها من البيت

---

(١) المائدة ٩٠ .

زوجة فى المحيض : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم *يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[١] . فجاء القرآن ليرد للمرأة كرامتها فى عالم لا يعرف لها كرامة : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾[٢] . ولم يكن لها حق الملك ولا التصرف فيما تملك ، وما كانت تورَّث فما كانت تقاتل فى سبيل شرف القبيلة فجاء الكتاب المنير ليقرر لها حقوقا رغم أنف العرف والتقاليد وما جبلت عليه البيئة : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾[٣] .

وكان الكرم للزهو والفخر والأحاديث والذكر وما كان ينبع من وجدان حى ، وما كان الأغنياء يتصورون أن للفقراء حقا معلوما فى أموالهم ، وما خطر لهم على قلب أن الأموال التى يخزنونها مال الله وأنهم مستخلفون فيها ، فجاء القرآن يشرع لهم فى أعز ما يملكون ، فى زينة الحياة الدنيا ، فقبلوا ما جاء من عند الله طائعين دون صراع بين الطبقات ودون حمامات من الدم لانتزاع الحقوق : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دُولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾[٤] .

وقد حضهم رسول الله — ﷺ — على العمل وفتح لهم أبواب التجارة

---

(١) النحل ٥٨ — ٥٩ .
(٢) النساء ٧ .
(٣) آل عمران ١٩٥ .
(٤) المائدة ٥ .

وقال : تسعة أعشار الرزق فى التجارة فترك لهم حرية العمل دون أن يخشى استبداد الأموال فى تسيير دفة الحكم ، فقد نظم الله للمجتمع العملاق الذى أقامه فى المدينة طريقة التصرف فى ثمرة العمل ، فزين للمسلمين الإنفاق : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾(١) . ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾(٢) .

ووعد الذين يكنزون الذهب والفضة بعذاب أليم : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾(٣) .

وفرض على الأغنياء الزكاة : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾(٤) . ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾(٥) ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾(٦) ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾(٧) .

وإن الله قد أوحى إلى رجال المدينة الفاضلة التى أقامها فى الأرض فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾(٨) . ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾(٩) .

---

(١) إبراهيم ٢١ (٢) البقرة ٢١٩ . (٣) التوبة ٢٤ — ٢٥
(٤) التوبة ١٠٢ (٥) الأعلى ١٤ . (٦) فاطر ٦٨ .
(٧) النور ٣٧ — ٣٨ (٨) الأنبياء ٧٣ (٩) النور ٢١ .

وشرع نظام التوريث لتفتيت الثروات لكيلا يتكدس المال فى أيدى قلة من الأغنياء فينعطل عن تأدية رسالته : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما * ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين مضار وصية من الله والله عليم حليم * تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾(١) .

وكان منطق البيئة أن تكون الكلمة العليا لزعيم القبيلة يحكم فى الناس حسب هواه أو حسب العرف والتقاليد إن أراد أن يعرف عنه العدل بين الناس ، فجاء الإسلام وركنه الأول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فبدأ بنفى الربوبية عن كل خلقه ليثبتها لله وحده فصار للناس

---

(١) النساء ١١ — ١٤ .

إله واحد وسيد واحد له وحده حق التشريع ورسم منهج الحياة لعباده ؛ وشهادة أن محمدا رسول الله هى شهادة تصديق بأن الأوامر والنواهى التى جاءت فى القرآن العظيم هى من عند الله ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾(١) . فلم يكن منطق البيئة ليحول بين شهادة الحق وأفئدة الناس فتحرروا من اتخاذ بعضهم لبعض أربابا و لم يشهدوا إلا بربوبية الله وحده لا شريك له .

وكانوا ينظرون إلى ساداتهم نظرة إجلال وإكبار يقيسون عظمتهم بمقدار ما عندهم من أموال أو لهم من نفوذ ، حتى إذا ما نزل القرآن على رسول الله ــ ﷺ ــ أظهروا العجب . ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾(٢) .

وكانت البيئة لا تقر زواج العبد من سيدة شريفة ، وكانت ترى فى مثل ذلك الزواج ثلما للشرف وجرحا للكرامة وعارا تحمله الأجيال ، ولما كان رب الناس خالق البشر يريد أن يرسى قواعد حقيقة أن الناس سواسية وأنهم لآدم وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فقد أمر رسوله أن يزوج ابنة عمته زينب بنت جحش الشريفة التى تزهو بنسبها إلى عبده زيد ابن حارثة . فلما أرسل عليه السلام إلى أهلها يخطبها لزيد غضبت وغضبوا فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾(٣) . فقالت زينب سمعا وطاعة لله ولرسوله ،

(١) التوبة ٢١ . (٢) الزخرف ٣١ ــ ٣٢ (٣) الأحزاب ٣٦ .

وتزوجت زينب بنت جحش الشريفة ذات الحسب من زيد بن حارثة مولى رسول الله — ﷺ — فكسرت تقليدا جائرا يحط من كرامة الإنسانية ، وأخذت بيد الإنسان لترفعه إلى قمة البشرية .

وكانت البيئة تنفر أشد النفور من زواج السيد من مطلقة من تبناه ، وقد تبنى رسول الله — ﷺ — زيدا وزوجه ابنة عمته بأمر الله ، وإن زيدا يأتيه يطلب منه أن يطلق زوجته فكان رسول الله عليه السلام يقول له :

— أمسك عليك زوجك .

وكان الله يريد أن يغسل ضمائر المؤمنين مما وقر فيها من عادات الجاهلية وأن يعيد للبشرية كرامتها وأن يكافئ زينب بنت جحش على طاعتها لأوامر الله ورسوله فأنزل : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾[1] .

جاء الإسلام يمحو آثار شطط الجاهلية من النفوس ثم يساير الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، وما كان ليلقى بالا لمنطق البيئة إذا ما كان ذلك المنطق يتعارض مع الفطرة بل كان يجتث من نفوس المؤمنين كل عرف أو عادة أو تقليد يحط من شأن البشرية بأمر سماوى . فلم يعد لأحد فى الإسلام من أمر بل لله الأمر جميعا ، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم .

---

(١) الأحزاب ٣٧ .

وقد شرع الله للمسلمين ما وصى به كل المؤمنين فى كل العصور ، فلم تكن تعاليم الله تعرف التطور فالعبادة ثابتة ثبات الإله والعقيدة ثابتة والقيم الأخلاقية ثابتة . وقد قال عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب * وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب * فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير * والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد * الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب * يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد * الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾(١) .

كان محمد — ﷺ — خاتم النبيين أمره الله أن يبلغ رسالته وأنزل عليه قرآنا كتب الله على نفسه أن يحفظه بعد أن ضيع الناس كل ما نزل على الرسل من ربهم : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٢) . وقد جعل الله صحابة محمد من خير البشر ليحفظوا فى صدورهم كتابه حتى

---

(١) الشورى ١٢ — ١٩ .   (٢) الحجر ٩ .

يحين وقت التدوين : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾(٣) .

---

(١) آل عمران ١١٠ ــ ١١١ .

٢١

تحقق كيان الإنسان فى المدينة وأشرقت فيها الأنوار ، وقد عميت عنها قلوب القبائل المجاورة لها وحسبت أن نور الله إن هو إلا ثورة على معتقدات الآباء وتسفيه أحلامهم حق عليهم إخمادها ، فكانت تلك القبائل تحاول أن تجمع الجموع لتشن هجوما على الصابئين . ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يبعث السرايا قبل أن يتمكن أعداؤه من أن يتجمعوا ليلقى الرعب فى قلوبهم صيانة لذلك المجتمع الناشئ الذى سيحمل الأمانة إلى العالمين .

بلغ رسول الله ـ ﷺ ـ أن بنى أسد قد جمعوا جموعهم عند ماء الغمر ليسيروا إلى المسلمين فلم ينتظر عليه السلام حتى يفجئوه فى عقر داره ، فوجه إليهم عكاشة بن محصن الأسدى فى أربعين رجلا ، فخرج يسرع فى السير إلى أن وصل إلى ماء الغمر فوجد القوم علموا بهم فهربوا .

و لم يجد عكاشة والذين معه فى دارهم أحدا ، فبعث عكاشة شجاع بن وهب طليعة يطلب خبرا ويرى أثرا ، فانطلق شجاع ثم عاد يخبر أنه رأى أثر نعم قريبا . فانطلقوا حتى وجدوا رجلا نائما فسألوه عن خبر الناس فقال :

ـ وأين الناس ؟ لقد لحقوا بعليات بلادهم .

ـ فالنعم ؟

ـ معهم .

فضربه أحدهم بسوط فى يده فقال :

ـ تؤمنونى على دمى وأطلعكم على نعم لبنى عم لى لم يعلموا بمسيركم

إليهم ؟

— نعم .

فأمنوه فانطلقوا معه ، فأمعن فى الطلب حتى خافوا أن يكون ذلك غدرا منه لهم فقالوا له :

— والله لتصدقنا أو لنضرب بن عنقك .

— تطلعون عليهم من هذا المحل .

فلما طلعوا منه وجدوا نعما روائع فأغاروا عليها فاستاقوها فإذا هى مائة بعير . وشردت الأعراب فى كل وجه و لم يطلبوهم وانحدروا إلى المدينة بتلك الإبل وقدموا على رسول الله — ﷺ — و لم يلقوا كيدا .

وفى شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجره بلغه — ﷺ — أن بنى ثعلبة وبنى عوال من ثعلبة يجمعون جموعهم ليغيروا على أطراف المدينة ، فبعث محمد بن مسلمة فى عشرة نفر ليتحسسوا الأخبار ، فلما بلغوا ذا القَصَّة وهى موضع قريب من المدينة نزلوا ليبيتوا ليلتهم ، فكمن القوم وهم مائة رجل لمحمد بن مسلمة وأصحابه وأمهلوهم حتى ناموا وأحدقوا بهم فما شعروا إلا وقد خالطهم القوم ، فوثب محمد بن مسلمة فصاح فى أصحابه :

— السلاح .. السلاح .

فوثبوا وتراموا فى جوف الليل ساعة ، ثم حمل القوم عليهم بالرماح فقتلوهم . ووقع محمد بن مسلمة جريحا فضربوا كعبه فلم يتحرك فظنوا موته فجردوه من الثياب وانطلقوا ، ومر بمحمد وأصحابه رجل من المسلمين فقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

فلما سمعه محمد بن مسلمة بسترجع تحرك له فأخذه وحمله إلى المدينة ، فعند ذلك بعث رسول الله — ﷺ — أبا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا إلى مصارعهم فلم يجدوا أحدا ووجدوا نعما وشاء فانحدروا بها إلى المدينة .

وأجدبت بلاد بنى ثعلبة وأنمار ووقعت سحابة بالمراض إلى تَغْلَمين ، والمراض على ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فسارت بنو محارب وثعلبة وأنمار إلى تلك السحابة واجتمعوا أن يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى بهيفا على سبعة أميال من المدينة ، فبعث رسول الله — ﷺ — أبا عبيدة فى أربعين رجلا من المسلمين حين صلوا المغرب ، فمشوا ليلتهم حتى وافوا ذا القصة فى عماية الصبح فأغاروا فأعجزوهم هربا فى الجبال . وأصاب أبو عبيدة رجلا واحدا فأسلم فتركه ، وأخذ نعما من نعمهم فاستاقه ورثة[١] من متاعهم وقدم المدينة بذلك ، فخمسه رسول الله — ﷺ ، وقسم ما بقى عليهم .

وكان بنو سُلَيم حلفاء قريش لا ينفكون عن جمع الجموع لشن الغارات على أطراف المدينة ، وكانت منازهم فى عالية نجد بالقرب من خيبر وكانوا يعيشون على الغارات والغنائم . ففى شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة بعث رسول الله ﷺ — زيد بن حارثة إلى بنى سليم ، فسار هو ومن معه حتى ورد الجموم ناحية بطن نخل عن يسارها ، وبطن نخل من المدينة على أربعة برد ، فأصابوا عليه امرأة من مزينة يقال لها حليمة ، فدلتهم على محلة من محال بنى سُلَيم فأصابوا فيها نعما وشاء وأسرى فكان فيهم زوج حليمة المزينة . فلما قفل زيد بن حارثة بما أصاب وهب رسول الله — ﷺ —

---

(١) الرثة : سقط المتاع .

للمزنية نفسها وزوجها ، فقال بلال بن الحارث المازنى فى ذلك :

لعمرك ما أخنى المسول ولا ونت

حليمة حتى راح ركبهما معا

وبلغ رسول الله أن عيرا لقريش قد أقبلت من الشام ، فبعث زيد بن حارثة فى سبعين ومائة راكب ليعترضها ، وكان فيها أبو العاص بن الربيع شاردا يفكر فى زوجه زينب بنت محمد التى فرق بينه وبينها الإسلام . ست سنوات قد مضت مذ آخر مرة رأى فيها امرأته يوم أن خرجت بعد أن عاد من الأسر فى بدر .

* * *

إنه ليذكر والأسى يملأ قلبه يوم أن جاءه أشياخ قريش وساداتها بعد أن زعم محمد أن الخبر يأتيه من السماء وقالوا له :

ـــ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش .

فقال لهم :

ـــ لا والله إنى لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

إن المشهد لا يزال حيا فى وجدانه وإن الدموع لتبلل روحه كلما تذكر زينب ، فهو يحبها بكل مشاعره ونبض حياته .

ولولا أن تعيره قريش لهاجر إليها وترك تجارته وأمواله .

إنه وقع فى الأسر يوم بدر فجاء أخوه عمرو بن الربيع فى فدائه فقال لحمية :

ـــ بعثتنى زينب بنت محمد بهذا فى فداء زوجها أخى أبى العاص بن الربيع .

كانت قلادة خديجة وهبتها ابنتها ليلة زواجها ، قلادة غالية حبيبة ما إن رآها رسول الله — ﷺ — حتى خفق قلبه رقة ورحمة ، إنها ذكرته بحاضنة الإسلام وسيدة نساء قريش وبعثت فى نفسه أحب ذكريات حياته ، فقال فى صوت مشحون بالانفعال :

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا .

وهز تأثر نبى الإسلام عليه السلام قلوب المؤمنين فقالوا :

— نعم يا رسول الله .

وعاد ابن هالة بنت خويلد أخت خديجة أم المؤمنين إلى مكة ليرسل زينب مع زيد بن حارثة ورفيق له ليصحباها إلى أبيها بالمدينة ...

وأحاط زيد بن حارثة والذين معه بعير قريش فلم ير القرشيون إلا أن يسلموا أنفسهم وتجارتهم لأصحاب محمد وكان فيها فضة كثيرة لصفوان ابن أمية وأن يحقنوا دماءهم ، فقد كانوا أهون من أن يقاتلوا رجالا قد أطلت من أعينهم المنون فساروا مطأطئى الرءوس يرجون عدل محمد — ﷺ .

وراح أبو العاص بن الربيع يفكر وهم منطلقون إلى المدينة ، فهناك زينب حبيبة الفؤاد من يهفو إليها كل كيانه فاختلطت المشاعر فى جنبات صدره . إنه لا يدرى أيحزن أم يفرح ؟ أيقطب الجبين أم تفتر عن فمه ابتسامة ؟ أيسير الهوينى أم يطير على جناح الشوق إلى الحبيبة ؟

إنه يعرف أين تعيش فيا طالما سأل عنها كل من زار المدينة من أصحابه ، إنها هناك فى دور محمد وإن قلبه سيرشده إليها دون رسول . ولاحت لعينيه المدينة ومسجد النبى وقد ألحقت بها دور نسائه وإن كان الظلام يلف كل شىء ، فقد صار يرى بعين بصيرته ويسمع بوجدانه حفيف أمانيه .

وترامى فى جنبات المدينة صوت بلال وهو يؤذن بالفجر فخف زيد بن حارثة والذين معه ليصلوا خلف الرسول وتركوا عير قريش فى حراسة عدد قليل من المسلمين ، فراح أبو العاص بن الربيع يتلفت ثم انسل فى عماية الصبح إلى دور الرسول ـ ﷺ .

ووقف عليه السلام فى المحراب واصطف المسلمون خلفه ، فلما دخلوا فى الصلاة إذا بصوت زينب يدوى فى المسجد ويهتك السكون :

ـ أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

وقضيت الصلاة وسلم رسول الله ـ ﷺ ـ وأقبل على الناس وقال :

ـ هل سمعتم ما سمعت ؟

ـ نعم .

ـ أما والذى نفسى بيده ما علمت بشىء من هذا .

ثم انصرف ـ ﷺ ـ فدخل على ابنته وقال :

ـ قد أجرنا من أجرت . المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم ..

وسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه ، فصمت عليه السلام قليلا ثم قال :

ـ أى بنية ، أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له .

كانت مسلمة وكان مشركا وقد حرم الله نكاح المؤمنات على المشركين . وراح كل منهما يرنو إلى الآخر وفى القلب شوق وفى الصدر لوعة لا يحول بينها وبينه إلا حد الله ، ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾[1] .

---

(١) الطلاق ١ .

وخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى السرية وقال لهم :

— إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالا . فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى فاء عليكم فأنتم أحق به .

— بل يرد عليه ما أخذ منه .

وردت إلى أبى العاص بن الربيع أمواله فخرج إلى مكة وهو يذكر ما قيل له فى المدينة ، قال له قائل : يا أبا العاص إنك فى شرف من قريش وأنت ابن عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فهل لك أن تسلم فتغنم ما معك من أموال أهل مكة ؟

أجل ، إنه ابن عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهو يلتقى معه فى جده عبد مناف ، وهو زوج ابنته . ولكن ما قيل له لم يكن ليتفق مع من قال فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : إنا صاهرنا أبا العاص فنعم الصهر وجدناه . إنه عرف فى قومه بالأمين كما عرف عليه السلام بذلك من قبل فما كان ليقبل ما عرض عليه فقال :

— بئسما أمرتمونى ، أفتتح دينى بالغدر وعدم الوفاء !

واحتل كل وجدانه ما لقيه من محمد — صلى الله عليه وسلم — ، إن ما عومل به ما كان ليخطر له على قلب ، أكرم أهل البيت مثواه ، قالوا له قولا لينا وقال له عليه السلام قولا معروفا أضاء بالأنوار سويداء فؤاده ، إنه يحس بكل كيانه أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — أشعل سراج عقله وأرشده إلى الطريق .

إنه رأى فى المدينة الشرف والكرامة والرفعة والسمو الروحى ونور الله. قد أذهله ما صار إليه مستضعفو مكة بالأمس فقد أصبحوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار ، تتلألأ فى وجوههم الأنوار ، تعرف فيها نضرة النعيم . إن

كل شيء يسير فى يسر ولين بينا حاسة الشرف تهدر كالوحش الضارى فى مكة وإن كانت كل الأفعال لا تمت إلى الشرف ؛ غضب هادر ودماء تسيل وقسوة تملأ القلوب والفساد قد استشرى فى سادات مكة ، إن محمد بن عبد الله قد أخرج قومه من الظلمات إلى النور .

ودخل أبو العاص بن الربيع أم القرى وطاف بالبيت العتيق وهو يستشعر كأنما خلق خلقا آخر . هانت فى عينيه آلهة آبائه وأجداده ، رآها لأول مرة حجارة لا تملك لنفسها نفعا أو ضرا فإذا بنفسه تتقاصر ، وإذا بعرق الخجل يتفصد من كل كيانه ، وإذا به يجاهد لتسمو روحه فوق كل ما حوله من ماديات لتقرع أبواب الملكوت لعل نسائم الألطاف تهب وتنكشف الحجب عن قلبه .

وذهب إلى أهل مكة وقد استوى بصره وأرشد إلى الطريق فأدى كل ذى حق حقه ، ثم قام فقال :

ـــ يأهل مكة هل بقى لأحد منكم مال لم يأخذه ؟ هل وفت ذمتى ؟

ـــ اللهم نعم ، فجزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيا كريما .

فقال وهو متفرح فى الله :

ـــ إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعنى عن الإسلام عنده إلا خشية أن تظنــوا إنى إنما أردت أن آكل أموالكم .

ثم خرج إلى المدينة منشرح الصدر لا يطمع فى مال ولا سلطان ولا جاه بل يريد وجه الله ، إنه يريد نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر فيها ، إنه فى شوق إلى الله بعد أن ذاق حلاوة الإيمان . فمن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك

بقى من المحرومين .

إنه يسير فى معبد الله يفكر فى جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه فصار ذلك ألذ عنده من كل نعيم . وبات يستشعر أنه لا يزاحم الناس فى دنياهم ولو اهتدى أهل الأرض جميعا ما زاحموه فى لذته بل زادت لذته بمشاركتهم له فى الأنس بربه ، وإنه ليحس أنه تحرر من كل شر ، من عبودية الأهواء والغرائز والجهل . إن ذاته قد تحررت مذ أن عرف ما يريد وماذا يريد واتضحت له حقيقة الطريق .

أشرق وجوده بالاندماج فى الوجود بكل حريته ، وأضحى ثابت الجنان ثبات الأرض التى تطويها راحلته ، يحس من أعمق أعماق ذاته وجود قوة متعالية ترعاه وتحميه وتبارك خطاه ما دام يشتد على الصراط المستقيم .

كان جوهر وجوده الإنسانى يتألق بالأنوار ، إنه اعتنق الإسلام بعد تدبر وتأمل وتفكير ، اعتنقه بمحض حريته بعد أن تخلص من ربقة ما ورثه من سخافات ، ومن الضرورة العمياء التى فيها يغلب الانفعال على الفعل ، واهتدى إلى أن الفضيلة علم والرذيلة جهل والحكمة معرفة قوانين الوجود والعمل على أن تطابق الإرادة الباطنية تلك القوانين .

إنه يحس لأول مرة وفاقا بين قلبه وعقله وهداية إلى محبة الناس أجمعين ، وأن الحياة دون الله لا معنى لها ، وأن ملكوت الله هو ميدان العمل المثمر الوحيد . كانت حياته قبل أن يشرق فؤاده بالأنوار ضياعا فأصبحت له رسالة ألا وهى الارتفاع بالنفس البشرية إلى النبع الروحى مصدر كل سعادة وإلهام .

وبلغ المدينة وقد محق كل زائف فى نفسه وثبت الحق وتلقى الضياء الربانى ، فاتجه إلى دور الرسول عليه السلام فاستقبل بالترحاب . وكانت زينب بنت نبى الإسلام عليه السلام أكثر الناس فرحا بعودة أبى العاص بن الربيع بعد أن أرشد إلى الطريق وتلقى الحكم من السماء وأصبح من الراشدين .

٢٢

تولى هرقل حكم الإمبراطورية الرومانية فأهمل روما واستقر فى بيزنطة وخاض غمار معارك رهيبة مع دولة الفرس ، فبعد أن نهب الساسانيون بيت المقدس وغزوا مصر استطاع هرقل أن يكر عليهم وأن يطردهم من الأراضى التى استولوا عليها ، ومنذ ذلك الوقت صار هرقل ينتقل بين قصوره فى بيت المقدس والقسطنطينية فازدهرت الحضارة فى الشام وفى بصرى خاصة واصطبغت بالصبغة الهيلينية(١) .

وكان هرقل قاسيا مع اليهود يضطهدهم أشد الاضطهاد مذ تلك النبوءة القائلة بأن الإمبراطورية سيدمرها شعب مختون . ولم يصل إلى هرقل أن محمدا ـ ﷺ ـ يوم كان المسلمون يحفرون الخندق كان قريبا من سلمان الفارسى وهو يضرب فى ناحية من الخندق فغلظت عليه صخرة ، فلما رآه يضرب ورأى شدة المكان عليه نزل عليه السلام فأخذ المعول من يده فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى ، فقال سلمان :

ـ بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟

قال عليه السلام :

---

(١) اليونانية والرومانية .

ــ أوَ قد رأيت ذلك يا سلمان ؟

ــ نعم .

ــ أما الأولى فإن الله فتح عليَّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح عليَّ بها المشرق .

إن رسول الله ــ ﷺ ــ والمسلمين مذ ذلك الوقت وهم يتطلعون إلى الشام ، وما كان عليه السلام لتشغله الأحداث المحلية عما يجرى فى بلاد الشام وبلاد الفرس وأرض اليمن ، فقد كان يبعث رجالا من أصحابه إلى تلك البلاد ليعودوا إليه بأنبائها .

كانت العلاقات طيبة بين دحية الكلبى وهرقل فقد كان دحية تاجرا يجوب الآفاق ، وكثيرا ما ذهب بتجارته إلى بصرى وبيت المقدس ، وكان يدخل على هرقل يقدم إليه الهدايا ويعود من عنده بالدمقس وأجود أنواع الحرير .

وأسلم دحية وأصبح صحابيا جليلا ، وكان جبريل كثيرا ما يأتى رسول الله عليه السلام فى صورته ، فلما أراد نبى الإسلام ــ عليه صلوات الله وسلامه ــ أن يعرف ما يجرى فى الشام بعث دحية الكلبى إلى هرقل بغير كتاب ، فدخل دحية على هرقلا فاستقبله بالترحاب وأجازه بمال وكساه .

وأقبل دحية من عند قيصر يحمل الهدايا وتجارة كانت له ، حتى إذا كان بواد يقال له شنان أغار عليه الهنيد بن عارض وابنه عارض بن الهنيد الضُّلعيّان(١) فى ناس من جذام يحسمى فقطعوا عليه الطريق وأخذوا ما

---

(١) الضليع : بطن من جذام .

معه ، فلم يتركوا عليه إلا الخلق من الثياب .

كان رهط رفاعة بن زيد قد أسلموا وأجابوا رسول الله — ﷺ ، وكانت منازلهم قريبة من المكان . فلما سمعوا بما حاق بدحية نفروا إلى الهنيد وابنه وفيهم من بنى الضُّبيب النعمان بن أبى جعال حتى لقوهم فاقتتلوا .

وانتمى قرة بن أشقر الضُّفارى ثم الضلعى فقال :

— أنا ابن لُبنى .

ورمى النعمان بسهم فأصاب ركبته وقال :

— خذها وأنا ابن لُبنى .

ثم استنقذوا لدحية متاعه ، وقدم دحية على رسول الله — ﷺ — فأخبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة فى خمسمائة رجل وردَّ معه دحية ، فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل من بنى عذرة ، فأقبل بهم حتى هجم بهم مع الصبح على القوم فأغاروا عليهم فقتلوا فيهم فأوجعوا ، وقتلوا الهنيد وابنه وأغاروا على ماشيتهم ونعمهم ونسائهم فأخذوا ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومن النساء والصبيان مائة .

ولما سمع بنو الضُّبيب بما صنع زيد ركبوا وجاءوا إليه ، وقال له رجل منهم :

— إنا قوم مسلمون .

فقال له زيد :

— اقرأ أم الكتاب .

فقرأها ولم يصدقه زيد .

كان رفاعة بن زيد الجذامى قد أسلم فى نفر من قومه فرحلوا إلى رسول

الله ـــ ﷺ ـــ ، وأخبروه بما فعل بهم زيد ، وقال رفاعة :

ـــ يا رسول الله لا تحرم علينا حلالا ولا تحل لنا حراما .

فقال عليه السلام :

ـــ كيف أصنع بالقتلى ؟

ـــ أطلق لنا من كان حيا ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين .

ـــ صدق .

فقالوا :

ـــ ابعث لنا رجلا لزيد .

فبعث ـــ ﷺ ـــ معهم عليا كرم الله وجهه يأمر زيدا أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم ، فقال علي :

ـــ يا رسول الله إن زيدا لا يطيعني .

فقال صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ خذ سيفي هذا .

فأخذه وتوجه ، فلقي علي كرم الله وجهه رجلا أرسله زيد مبشرا على ناقة من إبل القوم ، فردها علي كرم الله وجهه على القوم وأردفه خلفه .

ولقي زيدا فأبلغه أمر رسول الله ـــ ﷺ ، وعند ذلك قال له زيد :

ـــ ما علامة ذلك ؟

ـــ هذا سيفه ـــ ﷺ .

فعرف زيد السيف وصاح بالناس فاجتمعوا فقال :

ـــ ما كان معه شيء فليرده ، فهذا سيف رسول الله ـــ ﷺ .

٢٣

كانت المدينة تنصهر لتكون عاصمة دولة عالمية تقوم عل دين يدعو إلى وحدانية الله ويتفق مع منطق الحياة ويقود إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، فبينا وحى السماء ينزل على الأرض يرشد الناس إلى علاقتهم بالله وعلاقة بعضهم ببعض وينظم حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ بما وهبه الله من حذق سياسى ونبل وسماحة وكرامة يعنى بتربية النفوس وتربية الخيل ليعد جيشا يرهب به عدو الله وعدو الإصلاح المنشود للبشر .

إنه غزا القلوب بأمانته وخلقه العظيم وفتح الأفئدة بالقرآن المجيد والتف حوله خير البشر من المهاجرين والأنصار ، ولكن أعداء الإصلاح الذين يخشون أن تدول دولتهم وأن تزول منافعهم تحالفوا ليطفئوا نور الله ، فكان على قائد النهضة الجديدة أن يدافع عن مدينته الفاضلة التى وجدت على الأرض بتأييد من الله ، فراح يعد الرجال إعدادا روحيا وإعدادا عسكريا ليذبوا عن النور الذى هبط عليهم من السماء ويستشهدوا طائعين فى سبيله .

قد نجح رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى غرس الفضائل فى النفوس ، وألزم المؤمنين بالصدق والعفة والوفاء والإخاء وإفشاء السلام والمحبة ورعاية الحقوق والاهتمام بأمور المسلمين ، فقال عليه السلام : « من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس من الإسلام فى شىء » . فكان المسلم للمسلم ناصحا أمينا يؤثره على نفسه ولو كانت به خصاصة .

وعلّم عليه السلام أتباعه أن يدعوا الناس إلى ما فيه صلاحهم باللين متبعين شرع الله الذى شرع لهم : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾(١) . ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾(٢) .

وقد تعلم المسلمون من القرآن الكريم ومن الرسول العظيم أن لا إكراه فى الدين ، فلم تتحرك جيوش المسلمين و لم تبث السرايا لإرغام الناس على الدخول فى دين الله بل للدفاع عن النفس وقهر الظلم والفتن : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾(٣) .

بل لقد تعلم المسلمون من القرآن المجيد أن يبروا من ليس على دينهم وأن تكون الصلات بينهم طيبة ما داموا لا يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾(٤) .

وتعلم المسلمون من وحى الله أن خير الأمور الوسط ، وأن لا خير فى التزمت ، ولا خير فى التحرر والانطلاق بلا حدود ، وأن الله قد جعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾(٥) .

أقام سلمان الفارسى أياما مع أبى الدرداء فى دار واحدة ، وكان أبو

---

(١) النحل ١٢٥ (٢) فصلت ٣٤ (٣) البقرة ١٩٣

(٤) الممتحنة ٨ — ٩ . (٥) البقرة ١٤٣ .

الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار ، وكان سلمان يأخذ عليه ذلك التطرف فى العبادة . وذات يوم حاول سلمان أن يثنى أبا الدرداء عن الصوم المتصل فى غير رمضان ، فقال له أبو الدرداء :

ــ أتمنعنى أن أصوم لربى وأصلى له ؟

فقال له سلمان :

ــ إن لعينيك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا ، صم وأفطر وصل ونم .

فبلغ ذلك رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

ــ لقد أُشبع سلمان علما .

وكان عليه السلام يحض أصحابه على أن يطلبوا العلم أينما كانت منابعه : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أينما وجدها » . وأن يأمروا بالعدل والإحسان . ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾(١) . ويقول عليه السلام ناصحا : « أحسن إلى من أساء إليك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، تكن مؤمنا حقا » .

إنه عليه السلام ينفث الروح الإسلامية فى أصحابه ، يبين حق الله وحق المجتمع وحق الراعى وحق الرعية فيقول : « إن الله يرضى لكم ثلاثة : أن لاتعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تُناصحوا من ولاه أمركم » . ويرشد أصحابه إلى ما أمر به الله لتسود العدالة والعلاقات الطيبة بين الناس : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا

---

(١) النحل ٩٠ .

تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾[١] .

وكانت السياسة التى ينبغى أن يسير عليها ولاة المسلمين ترسم فى المدينة الفاضلة توضحها آيات الله البينات وسنة الرسول عليه السلام ، فعلى الحاكم أن يبحث عن أصلح الناس للعمل ليقلده دون النظر إلى مودة أو قرابة : « من وَلِىَ من أمر المسلمين شيئا فولَّى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله » . ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق فى الطلب بل قد يكون ذلك سبب منعه ، فقد دخل قوم على رسول الله فسألوه ولاية فقال :

ــ إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه .

ولا يجوز للحاكم أن يعدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لقرابة بينهما أو ولاء أو صداقة أو موافقة فى مذهب أو طريقة أو جنس ، أو لرشوة يأخذها من مال أو منفعة ، أو لعداوة بينهما ، فإن فعل فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما نهى عنه أحكم الحاكمين : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[٢] .

وكان عليه السلام يحدث أهل الصفة كل ليلة يرشدهم إلى الطريق . إنه راح ذات ليلة يحدث أبا ذر عن الولاية على المسلمين فقال له :

ــ إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها .

وقال عليه السلام :

ــ إذا ضيعت الأمانة انتظر الساعة .

---

(١) المائدة ٢ (٢) الأنفال ٢٧ .

قيل :

ـــ يا رسول الله وما إضاعتها ؟

ـــ إذا وسد[١] الأمر إلى غير أهله .

وقال عليه السلام :

ـــ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والولد راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، والعبد راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

ولم يكتف عليه السلام بذلك بل قال :

ـــ ما من راع يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لها إلاّ حرّم الله عليه رائحة الجنة .

وترجع الأمانة إلى خشية الله وألا يشترى بآياته ثمنا قليلا وترك خشية الناس ، وقد شرعها الله لكل حكم على الناس : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[٢] .

وكان عليه السلام يقدم فى إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع وإن كان بين المسلمين من هو أصلح منه فى الأمانة والصدق . وقد نهى عليه السلام أبا ذر عن الإمارة والولاية فقال له :

---

(١) وسد الأمر إلى فلان : أسند إليه القيام بتصريفه .

(٢) المائدة ٤٤ .

— يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمّرن على اثنين ولا تولّيَن مال يتيم .

ويقدم فى ولاية القضاء الأعلم الأتقى الأكفأ ويقول : « إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل عند حلول الشهوات » .

وكان يحض أصحابه على العدل : « أحب الخلق إلى الله إمام عادل وأبغضهم إليه إمام جائر » . وكان يقول سبعة يظلهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه :

— أهل الجنة ثلاثة : سلطان مُقسط ، ورجل رحيم القلب بكل ذى قربى ومسلم ، ورجل غنى عفيف متصدق :

— وكان القرآن الكريم يهذب النفوس لتقوى على أن تنهض بصالح الأعمال : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على

صلاتهم يحافظون * أولئك فى جنات مكرمون ﴾(١) .

وقال النبى — ﷺ — : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، و لا تخن من خانك » .

وقال عليه السلام : « المؤمن من أمنه المسلمون على دمائهم وأموالهم . والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » .

وراح عليه السلام يضع أسس جباية الخراج والعشور والصدقات وعلاقة الإمام بالناس ، ويحذر أصحابه و الأجل دون الأمل ، وأن لا عمل بعد الأجل ، فيزين لهم مبادرة الأجل بالعمل ، ويقول : « إذا أراد الله بقوم خيرا استعمل عليهم الحلماء ، وجعل أموالهم فى أيدى السمحاء . وإذا أراد الله بقوم بلاء استعمل عليهم السفهاء ، وجعل أموالهم فى أيدى البخلاء . ألا من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فى حوائجهم رفق الله به يوم حاجته ، ومن احتجب عنهم دون حوائجهم احتجب الله عنه دون خلته وحاجته » .

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شىء قدير ﴾(٢) . وكان عليه السلام يضرب للفارس ثلاثة أسهم سهمان لفرسه وللراجل سهم ، تنرغيبا للناس فى ارتباط الخيل فى سبيل الله ، فقد كانت الفرسان السلاح

---

(١) المعارج ١٩ — ٣٥ . (٢) الأنفال ٤١ .

الذى يقود إلى النصر .

وكان الخمس مردودا على المحتاجين ، وما كان عليه السلام يدخل داره قبل أن ينفق آخر ما معه من صفراء وبيضاء. وكان يقسم الخمس على خمسة أسهم : لله وللرسول سهم ، ولذى القربى سهم ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم .

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دُولة بين الأغنياء منكم ﴾[1] .

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[2] .

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾[3] .

صار الفىء بين هؤلاء جميعا تقسم عليهم الأموال المتداولة ، أما الأرضين فقد ترك للإمام أن يتصرف فيها بما يحقق مصالح المسلمين فى أيامه ومن بعده .

وراح عليه السلام ينظم الصدقات فقال : « فى كل أربعين شاةً شاة إلى

---

(١) الحشر ٧ (٢) الحشر ٨ — ٩ . (٣) الحشر ١٠ .

مائة وعشرين ، فإذا زادت فشاتان إلى مائتين ، فإذا زادت فثلاث شياه إلى ثلاثمائة ، فإذا زادت ففى كل مائة شاة شاة . وليس فيها شيء حتى تبلغ المائة .

وفى خمس من الإبل شاة ، وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمس وعشرين بنت مخاض إلى خمس وثلاثين ، فإن زادت ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين ، فإن زادت ففيها حقة إلى ستين ، فإن زادت ففيها جذعة إلى خمس وسبعين ، فإن زادت ففيها حقتان إلى عشرين ومائة ، فإن زادت على مائة وعشرين ففى كل خمسين حقة وفى كل أربعين بنت لبون ، ولا يجمع بين متفرق ، ولا يفرق بين مجتمع ، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بالسوية» .

وكان عليه السلام يرسم سياسة تحصيل الصدقات والزكاة ويحرض المسلمين على دفعها « .. ما مانع الزكاة بمسلم ، ومن لم يؤدها فلا صلاة له » . وقال عليه السلام : « العامل على الصدقة بالحق كالغازى فى سبيل الله » . فالذى يجمع الصدقة دون أن يغل منها شيئا يكون فى مثل الجهاد ، فعليه السلام يرغب الناس فى العمل فى جباية الصدقات ولكنه لا يترك لهم الحبل على الغارب بل يشحذ ضمائرهم ويخوفهم الله ، فقد بعث عبادة بن الصامت على الصدقة فقال له :

ـــ اتق الله يا أبا الوليد ، لا تجيء يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك له رُغاء[1] أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثؤاج .

ـــ يا رسول الله إن هذا لهكذا ؟

---

(١) الرغاء:صوت البعير ، والخوار : صوت البقرة ، والثؤاج:صوت الشاة .

ــ إى والذى نفسى بيده إلا من رحم الله .

ــ والذى بعثك بالحق لا أتأمر على اثنين أبدا .

وكان عليه السلام لا يحب أن ينفر الناس ، فإنه عليه السلام بعث رجلا ليأخذ من الناس الصدقة لما أنزل عليه أن يأخذ منهم الصدقات ليطهرهم ويزكيهم بها ، فقال له :

ــ لا تأخذ من حزرات[١] أنفس الناس شيئا ، خذ الشارف[٢] والبكر وذات العيب .

فذهب الرجل يجمع الصدقات حتى جاء إلى رجل من أهل البادية ، فذكر له أن الله تعالى أمر رسوله ــ ﷺ ــ أن يأخذ الصدقة من الناس يزكيهم بها ويطهرهم بها ، فقال له الرجل :

ــ قم فخذ .

فذهب فأخذ الشارف والبكر وذات العيب فقال له الرجل :

ــ والله ما كان فى إبلى أحد قط يأخذ شيئا لله قبلك . والله لتختارن .

أمر ــ ﷺ ــ بأخذ الشارف والبكر وذات العيب ولكن الرجل فى البادية بعد أن أشرق فى قلبه نور اليقين أبى إلا أن يحتسب وأن يجود بأطيب ما عنده راضية نفسه ، فقد نجح الإسلام فى أن يعلم الناس أن : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ● الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ● قول معروف ومغفرة خير من صدقة

---

(١) حزرات : خيار أموال الناس . (٢) الشارف : المسنة .

يتبعها أذى والله غنى حليم * يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين * ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾[١] .

لما نزلت آية الصدقة جاء رجل فتصدق بصاع فقال بعض الناس :

ـــ إن الله لغنى عن صاع .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال :

ـــ يا رسول الله مالى ثمانية آلاف جئتك بنصفها فاجعلها فى سبيل الله ، وأمسكت نصفها لعيالى .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت .

وتصدق عاصم بن عدى بن العجلان بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع من تمر .

وقال :

ـــ يا رسول الله بت ليلتى أجرّ بالجرير أحْبُلا حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما لأهلى وأتيتك بالآخر .

فأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن ينثره فى الصدقات ، فلمزهم[٢] المنافقون وقالوا :

---

(١) البقرة .

(٢) اللمز : العيب والاشارة بالعين ونحوها .

— ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن الله ورسوله غنيان عن صاع أبى عقيل ولكنه أحب أن يزكى نفسه .

فلم يترك الله المنافقين ليعيثوا فسادا فى المدينة التى تتهيأ لتكون عاصمة خير أمة أخرجت للناس ، بل أنزل على رسوله آيات تفضحهم وتسد عليهم سبل الفساد وينذرهم بالعقاب : ﴿ الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾(١) .

وكان — ﷺ — لا يفرق بين القوى والضعيف عندما يقسم الغنائم بين الذين شهدوا الوقعة ، فإن سعد بن أبى وقاص الزهرى رأى له فضلا على من دونه فقال :

— يا رسول الله ، الرجل يكون حامية القوم يكون سهمه وسهم غيره سواء ؟

— ثكلتك أمك ابن أم سعد . وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟

إنه يجاهد الظلم الواقع من الولاة والظلم الواقع من الرعية ، هؤلاء يأخذون ما لا يحل وهؤلاء يمنعون ما يجب . وقد قال — ﷺ — : « هدايا الأمراء غُلول » وقال : « مطل الغنى ظلم » . وقال : « من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له عليها هدية فقبلها فقد أتى بابا عظيما من أبواب الربا » . و « السُّحت(٢) أن يطلب الحاجة للرجل فيقضى له فيهدى إليه فيقبلها » .

---

(١) التوبة ٧٩ .

(٢) السُّحت : الحرام .

وكان عليه السلام يرى أن تبليغ السلطان حاجة الناس وسيلة من وسائل كف الظلم عنهم وعمل يؤجر المرء عليه ، فقد قال : « أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » .

وما ضرب رسول الله — ﷺ — بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا نيل منه شىء فانتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله ، فإن انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله . إنه لا يقبل شفاعة فى حد من حدود الله ، ويقول : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضارَّ الله فى أمره ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال فى مسلم دَيْن ما ليس فيه حبس فى ردعة[1] الخبال حتى يخرج مما قال » . قيل : « يا رسول الله وما ردعة الخبال ؟ » قال : « عصارة أهل النار » .

وقال أصدق القائلين : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل[2] منها وكان الله على كل شىء مُقيتا ﴾[3] .

وكان نبى الإسلام عليه السلام إذا بعث أميرا على سرية أو جيش أو فى حاجة لنفسه أوصاه بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيرا ، ثم يقول :

---

(١) الردعة : للطين .

(٢) النساء ٨٥ — الكفل : الضعف من الأجر أو الإثم .

(٣) مقيتا : شهيدا وحفيظا ومقتدرا .

ـــ اغزوا باسم الله وفى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا .

وكان يمقت العصبية ودعوى الجاهلية ، وقد قيل له :

ـــ أمن العصبية أن ينصر الرجل قومه فى الحق ؟

ـــ لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه فى الباطل . مثل الذى ينصر قومه فى الباطل كبعير تردى فى بئر فهو يجر بذنبه .

كان الفلاسفة يطلقون لأخيلتهم العنان ويتصورون مدنا فاضلة لم تخرج عن دائرة الأحلام وما كانت تلك المدن لتحقق العدالة المطلقة للبشر ، فقد عوملت النساء معاملة السائمة فى بعض تلك الجمهوريات وظل العبيد يرسفون فى قيود الرق ، فما كان الفلاسفة الذين هوموا فى الخيال بقادرين على أن يتخلصوا مما كانت عليه الدنيا فى أيامهم وما أقرته من نظم ظالمة ، ولم يجد الضعفاء مكانا آمنا فى تلك المدن التى شيدت فى الهواء . وقد عجز المفكرون الحالمون عن أن يضيقوا الهوة السحيقة بين الفقراء والأغنياء أو أن يحققوا التوافق بين العقل والفؤاد . ولكن مجتمع المدينة كان مجتمعا حقيقيا لا أثر للوهم فيه ، يسير على منهج إلهى لا يغفل لحظة عن فطرة الإنسان وقدرته وواقع الحياة ، لا يكلف الله فيه نفسا إلا وسعها ، ويفتح الأبواب أمام الناس ليجاهدوا فى سبيل الهدى والسمو حتى يقرعوا أبواب الملكوت : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾(١) .

إنه مجتمع قد بين أركانه من فطر الناس وترك للجهد البشرى أن يحقق بناء ذلك المجتمع فى حدود طاقته وبعون الله ، فالله قد شرع لهذه الجماعة

---

(١) العنكبوت ٦٩ .

وبين لهم الطيب والخبيث وزين لهم الإيمان والسير فى طريق الله على هدى نور الله ، ليتحرروا من عبودية الناس وليعبدوا الله وحده . وقد أرسل إليهم رسولا منهم ليكون لهم أسوة حسنة وليأخذوا ما جاءهم به ولينتهوا عما نهاهم عنه ، وكان رسول الله — ﷺ — على علم بأوامر الله ونواهيه : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾(١) . وكان على علم بطبيعة النفس البشرية ، فلم يكلف الناس شططا، بل كان اليسر سبيله فأخذ بيد هذه الجماعة وفجر جميع ما فيهم من طاقات بناءة وقوى خيرة وحررهم من ربقة الشهوات المدمرة فتسنم بهم قمة البشرية ، ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾(٢) .

---

(١) الجاثية ١٠٨ . (٢) آل عمران ١٠٤ .

٢٤

كان عليه السلام ينام على فراش من أدم حشوه ليف ، وإذا بصوت بلال ينساب فى الفجر نديا يدعو الناس إلى الصلاة ، فقام ـ ﷺ ـ وإذا بشفتيه تتحر كان بذكر الله فما كان يجلس ولا يقوم إلا بذكر الله تعالى ، وتوضأ ثم راح يسرح لحيته بمشط ، ثم خرج ليؤم المسلمين وقد أرخى لعمامته عذبة بين كتفيه ، وكان يلبس قميصا ارتفع إلى نصف ساقيه وكمه إلى الرسغ . وأقبل على مسجده المسلمون من عالية المدينة ومن سافلتها وهم يسبحون الله وقام الجميع للصلاة ، فوقف أهل الصفة فى مكانهم خلف المصلين فقد كانوا حرس رسول الله ـ عليه صلوات الله وسلامه .

وقضيت الصلاة فجلس عليه السلام عند أسطوانة المهاجرين والتف حوله أبو بكر وعمر وعلى وعثمان وزيد بن حارثة وعمار ، وراح الحسن والحسين يغدوان بين أبيهما وجدهما العظيم والمهاجرون والأنصار يداعبونهما وقد تفتحت لهما القلوب ، ولا جرم فهما سبطا رسول الله الحبيب .

وراح عليه السلام يعطى كل من جالسه حقه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، وجاء إليه رجال يسألونه حاجاتهم فلم يردهم إلا بها أو ما يسرهم من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء ؛ مجلسه حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع عنده الأصوات .

كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ القلب

ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهى ولا يخيب فيه مؤمله ، قد تطهر من ثلاث : المراء والإكثار وما لا يعنيه .

وكان لا يذم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرتجى ثوابه . إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رءوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده ، إن تكلم أنصتوا له حتى يفرغ ، وكان لا يقطع على أحد حديثه ، وكان يقول فى السراء :

— الحمد ﷺ المنعم المتفضل .

وكان يقول فى الضراء :

— الحمد لله على كل حال .

وكان يسلم على العبيد والإماء والصبيان ، وكان يمازح الصغير ويلاعب الوليد ويمازح العجوز ولا يقول إلا حقا . جاءته امرأة فقالت :

— يا رسول الله احملنى على جمل .

فقال عليه السلام :

— إنما أحملك على ولد الناقة .

— لا يطيقنى .

— لا أحملك إلا على ولد الناقة .

— لا يطيقنى .

فقال لها الحاضرون :

— وهل الجمل إلا ولد الناقة ؟

وجاءت له امرأة أخرى فقالت :

— يا رسول الله زوجى مريض وهو يدعوك .

— لعل زوجك الذى فى عينه بياض .

فرجعت وفتحت عين زوجها فقال لها :

ـــ ما لك ؟

ـــ أخبرني رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن فى عينك بياضا .

ـــ وهل أحد إلا وفى عينه بياض ؟

وقالت له امرأة أخرى :

ـــ يا رسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة .

ـــ يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز .

فبكت المرأة فقال لها :

ـــ أما قرأت قوله تعالى : ﴿ إن إنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا ﴾[1] .

وكان أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ يضحكون والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى ، وكان نعيمان من أولع الناس بالمزاح والضحك ، وكان رسول الله عليه السلام يرى فعاله ويسمع أقواله فيفتر ثغره عن الابتسام .

وكان ـــ ﷺ ـــ يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويقول :

ـــ لو دعيت إلى كراع لأجبت .

وكان يخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويركب الحمار ردفا ، ويرقع الثوب ، ويطحن مع الخادم ويأكل معه ، ويحمل بضاعته من السوق ، ويصافح الغنى والفقير ، ويخالط أصحابه ويحادثهم ويمازحهم ، ويلاعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، وما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته

---

(١) الواقعة ٣٥ ـــ ٣٧ .

إلا قال : لبيك .

ودخل عليه صلوات الله وسلامه عليه رجل فقام بين يديه فأخذته رعدة من هيبته ، فقال له :

ـــ هون عليك فإنى لست بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة .

إنه أوتى جوامع الكلم وإنه يحدث أصحابه ليفقههم فى دينهم وينير لهم الطريق ، إنه يقول :

ـــ أتانى جبريل فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، واحبب ما شئت فإنك مفارق ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس .

وكان يعلم أن الطمع وطول الأمد مفسدة للناس ، فكان يعظ أصحابه ليزهدهم فى الدنيا فيقول :

ـــ ابن آدم عندك ما يكفيك ، وأنت تطلب ما يطغيك، ابن آدم لا بقليل تقنع ، ولا بكثير تشبع ، ابن آدم إذا أصبحت معاف فى جسدك آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فعلى الدنيا العفاء .

وكان على الدوام يرشدهم إلى مكارم الأخلاق فما أرسل إلا ليتمم مكارم الأخلاق ، فيقول :

ـــ اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط . وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من الخيلة ولا يحبها الله . وإن امرؤ شتمك وعيرك بأمر

ليس هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه ، ودعه يكون وباله عليه وأجره لك ، ولا تسبنَّ أحدا .

اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .

اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة .

اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة .

إذا أتاك الله مالا فلير أثره عليك ، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا ، ولا يحب البؤس ولا التباؤس .

إذا أتى علىَّ يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله تعالى ؛ فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم .

وكان أبو بكر وعمر عن يمينه وعن يساره ، وكان عليه السلام يقول لهما :

ـــ الحمد لله الذى أيدنى بكما .

وكانا إذا اجتمعا فى مشورة ما خالفهما ، فأبو بكر لا يريد من دنياه إلا إعلاء كلمة الله ، إنه يخشى على رسول الله ـــ ﷺ ـــ أكثر مما يخشى على نفسه ، فهو لما رأى القافة[1] وفتيان قريش بسهامهم وسيوفهم وقوفا على فم الغار عند الهجرة اشتد حزنه وقال :

ـــ إن قتلت فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت يا رسول الله هلكت الأمة .

---

(١) القافة : قصاصو الأثر .

فقال له عليه السلام :

ـــ لا تحزن إن الله معنا .

وأنزل الله سكينته عليه وهاجر مع رسول الله عليه السلام إلى المدينة وشهد معه المشاهد كلها ، وسمع الناس وهم يتلون ما نزل فيه من القرآن فاغرورقت عيناه بالدموع ، وكان يطرق حياء كلما سمع رسول الله عليه السلام يمتدحه ، قال عليه السلام :

ـــ ما أحد عندى أعظم من أبى بكر ، واسانى بنفسه وماله وأنكحنى ابنته .

فكاد الصديق يذوب حياؤه . إنه أنفق أمواله فى سبيل الله وفى نصرة رسوله حتى إن نبى الإسلام عليه صلوات الله وسلامه قال :

ـــ إن من أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوّة الإسلام .

ولا غرو فقد قال عليه السلام فيه :

ـــ مثل أبى بكر مثل اللبن فى الصفاء ، ومثل أبى بكر كالغيث أينما وقع نفع .

وقال :

ـــ ما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر .

فبكى أبو بكر وقال :

ـــ هل أنا ومالى إلا لك يا رسول الله ؟

كان أبو بكر وعمر وزيرى رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ، وكان رسول الله عليه السلام يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ، فلم يرفع أحد منهم بصره إلا أبو بكر

وعمر فإنهما كانا ينظران إليه ويتبسمان إليه ويتبسم إليهما .

كان أبو بكر يجلس إلى جوار رسول الله فيبدو كأنه ملك فى زى مسكين ، وكان عمر بن الخطاب يجلس إلى جوار النبى عليه السلام كأنه جبل ، إنه مع الحق حيث كان . وقد قال فيه عليه السلام :

ـــ عمر معى وأنا مع عمر ، والحق مع عمر حيث كان .

إنه قال يوم أن أسلم :

ـــ يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟

ـــ بلى والذى نفسى بيده ، إنكم على الحق إن متم وإن حييتم .

ـــ يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟

ـــ يا عمر إنا قليل وقد رأيت ما لقينا .

ـــ والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان .

ثم خرج فى صفين حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر له كديد ككديد الطحين حتى دخلوا المسجد ، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، فسماه رسول الله ـــ ﷺ ـــ يومئذ الفاروق .

إنه كلما تذكر أنه كان يصارع الفتيان فى سوق عكاظ ويمشى إلى صاحبات الرايات الحمر بكى ، وكان يدنى يده من النار ويقول :

ـــ يا بن الخطاب هل لك على هذا صبر ؟

ويبكى فقد أرهف الإسلام شعوره حتى إنه كان إذا أعجبه شىء من ماله تصدق به ، وكان كثيرا ما يتصدق بالسكر فقيل له فى ذلك فقال :

ـــ إنى أحبه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما

تحبون ﴾[1] .

إن جبار الجاهلية قد سما حتى رفعت الحجب بينه وبين الملكوت لما ألقى الله فى قلبه أنوار اليقين . وقد كان الصديق والفاروق مستشارى نبى الإسلام وقد قال عليه السلام فيهما :

ـــ أبو بكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر .

وكان عثمان بن عفان من حواريى رسول الله ـــ ﷺ ، ولما زوجه رسول الله عليه السلام بنته أم كلثوم قال لها :

ـــ إن بعلك أشبه الناس بجدك إبراهيم عليه السلام وأبيك محمد .

ودخل عثمان على النبى عليه السلام وركبته بادية ، فغطى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ركبته فقيل له :

ـــ دخل عليك أبو بكر وعمر وعلى فلم تغطها .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ إنى لأستحيى ممن استحيت منه الملائكة .

وكان يقال له ذو النورين لأن النبى ـــ ﷺ ـــ زوجه ابنته رقية فلما ماتت زوجه أم كلثوم .

وكان شديد الحياء حتى إنه ليكون فى البيت والباب مغلق عليه فما يضع الثوب عنه عند الغسل ليفيض الماء ، ويمنعه الحياء أن يقيم صلبه .

وكانت عيره تأتى من الشام وهى ألف بعير موسوقة برا وزيتا وزبيبا فيتصدق بها ويدخل بيته يأكل الخل والزيت ، وكان إذا مر على مقبرة بكى حتى تبتل لحيته .

---

(١) آل عمران ٩٢ .

وكان على بن أبى طالب ربيب النبى عليه السلام لا يفارق مجلسا من مجالس الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه . إنه يتلقى منه العلم ويحاول أن يقفو أثره فى مكارم أخلاقه وكرمه وتواضعه . كان يصلى الظهر ذات يوم فى مسجد الرسول فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئا ، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال :

ـ اللهم اشهد أنى سألت فى مسجد نبيك محمد ـ ﷺ ـ فلم يعطنى أحد شيئا .

كان على فى الصلاة راكعا فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيها خاتم ، فأقبل السائل فأخذه من خنصره وذلك بمرأى من النبى ـ ﷺ ، فرفع رسول الله ـ ﷺ ـ طرفه إلى السماء وقال :

ـ اللهم إن أخى موسى سألك فقال : ﴿ رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى يفقهو قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى ﴾(١) فأنزلت عليه قرآنا : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما ﴾(٢) . اللهم وإنى محمد نبيك وصفيك ، اللهم فاشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واجعل لى وزيرا من أهلى عليا اشدد به ظهرى .

فما استتم دعاءه حتى نزل عليه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال :

ـ يا محمد اقرأ : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾(٣) .

---

(١) طه ٢٥ ـ ٣١ (٢) القصص ٣٥ . (٣) المائدة ٥٥ .

وكان يقول :

— مفتاح الجنة الصبر . مفتاح الشرف التواضع . مفتاح الكرم التقوى . من أراد أن يكون شريفا فليلزم التواضع . لا شرف لبخيل ، ولا همة لمهين ، ولا كنز أغنى من القناعة ، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت .

إنه نام فى فراش النبى — ﷺ — وقد اجتمعت قريش على قتل النبى عليه السلام ، يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ، وقد حارب يوم بدر أعداء الله فى شجاعة نادرة ، وقد أصابه يوم أحد ست عشرة ضربة ، وقتل يوم الخندق عمرو بن عبدود.إنه فارس بالنهار راهب بالليل جمع بين فصاحة اللسان وبتر الحسام .

وكان على يعرف مكانته فى قلب ابن عمه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وكان يعرف حب رسول الله للزهراء فقال له ذات يوم :

— يا رسول الله أينا أحب إليك أنا أم فاطمة ؟

قال :

— فاطمة أحب إلى منك ، وأنت أعز على منها .

وكانت عائشة أم المؤمنين تقول :

— ما رأيت أحدا أشبه سمتا ولا هديا ولا حديثا برسول الله — ﷺ — من فاطمة ، وفى قيامها وقعودها .

كانت سيدة نساء المسلمين وكانت صالحة تقضى نهارها وليلها فى العبادة ، وكانت الأموال تأتى إلى أبيها وإلى زوجها من فىء الله فلا يدخلان دورهما قبل أن ينفقا فى سبيل الله ما ساقه الله إليهما . فكانت فى غاية من ضيق العيش لتكون أسوة لفقراء المهاجرين والأنصار وتنبيها للغافلين على

أن الدنيا ليست مطمع نظر الكاملين .

دخل عليها ذات يوم زوجها على بن أبى طالب وهى تطحن فقال لها :

— قد جاء أباك خدم كثير فاذهبى فاستخدميه .

ثم أتيا إليه جميعا فاطمة أحب أهله إليه وعلى بن أبى طالب من سأل الله أن يشدد به أزره ، فقالت فاطمة :

— يا رسول الله لقد طحنت حتى كلت يدى ، وقد جاءك الله بسعة فاخدمنا .

فقال :

— والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونها من الجوع .

وكانت عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم سلمة بنت زاد الركب وزينب بنت جحش فى دور النبى يتلقين عنه العلم . وما كان أحد أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، ولو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبى — ﷺ ، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل .

كان عليه السلام يعلم رجال المهاجرين ونساءهم ورجال الأنصار ونساءهم كيف تكون الحياة الفاضلة على الأرض ، ويشرح لهم المنهج الدينى للحياة ، ويغير بالقدوة الحسنة والوصايا الطيبة نفوسهم ، فقد أنزل عليه : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] . إنه يجاهد الضعف البشرى والهوى البشرى فى نفوس الناس لتكون كلمة الله هى العليا فتتحقق فى الأرض عدالة السماء .

إنه يغرس فى أصحابه القيم التى تقوم عليها الحياة ، ويرسم لهم المنهج

---

(١) الرعد ١١ .

الذى يحقق كرامة الإنسان ويمنحه حريته ويطلقه من العبودية لغير الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[(١)] .

إنه يضع الأساس السليم لقيام نظام للحياة البشرية على دعائم طبيعية يقوم عليها صرح سعادة الناس فى الدنيا والآخرة محققا غاية الوجود الإنسانى ، فهو لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى من لدن خالق الوجود العليم بحقيقة الوجود وبحقيقة الإنسان .

إنه يقود الفطرة البشرية لتتناسق مع ناموس الوجود ، وإنه ليرشد البشر إلى التوافق مع الكون حتى لا يحطم الإنسان على صخرة العناد والضياع ، ويشقى فى تيه القلق والشك ، ويتمزق فى فيافى الحيرة ، ويتردى فى مهاوى الاضطراب .

إنه يملأ النفوس بالعزة والكرامة ومكارم الأخلاق ، ويرحمها من ذلك الخواء المرير المدمر ، ثمرة المتاع الحسى وفراغ الحياة والعقم الروحى والأخلاق المتحررة المتحللة التى تجد لذتها فى أحضان الرذيلة لحظات ، ثم تصبح أسيرة الأهواء والشرور والآثام .

إنه ينقل البشرية من وادى الدموع ، من أرض الضياع ، من دنيا الشقاء ، من كهوف الخوف ، إلى رفرفات الطمأنينة ، وطيبات السعادة ، وصراط السلام ، إنه يحطم الحواجز النفسية بين الإنسان وبين الله . إنه يعد رعاة الإبل ليكونوا رعاة الشعوب وفى قلوبهم نور وفى أيديهم كتاب منير .

---

(١) المائدة ٨ .

٢٥

الروح الإسلامية تسرى فى المدينة ، وصحابة الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ ينظرون إليه بعيون مفتوحة ويلقون إليه آذانا واعية . فهو المصطفى لهداية البشرية ، والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، والقدوة التى يقتدى بها الذين يريدون أن يسيروا فى طريق الفكرة الإسلامية الصحيحة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فمحمد رسول الله ـــ ﷺ ـــ يفيض عليهم كل يوم من إنسانيته ، ويلقنهم دروسا فى نظافة الحياة الزوجية وفى سمو الأبوة ، وفى رأفة الحاكم وعدله وحزمه ، وفى عدالة القاضى ، وفى براعة القائد ، وفى كفاح المجاهد ، وفى خشوع المتعبد ، وفى مزج الدنيا بالآخرة وربط الأرض بالسماء ، فقد جعل العمل عبادة والعبادة عملا ووحد بين الفكر والوجدان ، فأصبح أصحابه يسيرون بأجسامهم على الأرض وأرواحهم متعلقة بالسماء .

وكان رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ لا يغفل عن حماية المدينة حتى لا تسنح للكافرين فرصة أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فكان إذا سمع بأن قبيلة تجمع الجموع لتغير على المدينة لا ينتظر حتى ينحدر الحانقون إليه ويثخنوا فى أصحابه ، بل كان يبعث إليهم السرايا ليلقى الرعب فى قلوبهم ويشتت شملهم ، وقد جاء الخبر إلى رسول الله عليه السلام أن أم قرفة تسبه وأنها تحرض بنى فزارة على قتاله ، فلما تيقن ـــ صلوات الله وسلامه عليه الخبر ـــ بعث أبا بكر الصديق إلى فزارة .

كانت أم قرفة فى شرف من قومها وكان يعلق فى بيتها خمسون سيفا

كلهم لها محرم ، وكان لها اثنا عشر ولدا ومن ثم كانت العرب تضرب بها المثل فى العزة فتقول :

ـــ لو كنت أعز من أم قرفة ؟!

وكان لها ابنة من أحسن العرب أفاض الناس فى وصف حسنها ، وكانت ذات جمال حقا إلا أن قلبها كان يمتلئ حقدا على نبى الإسلام عليه السلام مثل قلب أمها . ولا غرو فقد كانت الأم تغذى ابنتها بكراهية الإسلام وأهله .

وخرج أبو بكر الصديق والذين معه إلى بنى فزارة بوادى القرى ، حتى إذا صلوا الصبح أمرهم فشنوا الغارة فوردوا الماء ، فدار قتال بين أبى بكر والمسلمين وبين بنى فزارة ، وامتلأت جنبات الوادى بالتكبير وسقط الفزاريون صرعى . فلما رأت أم قرفة أن الدائرة تدور على قومها أخذت ابنتها والذرارى وراحوا يهرولون نحو الجبل .

ورأى مسلمة بن الأكوع الطائفة التى ولت الأدبار فخشى أن يسبقوه إلى الجبل فأدركهم ورمى بسهم بينهم وبين الجبل . فلما رأوا السهام وقفوا فدنا مسلمة منهم فإذا بأم قرفة عليها قشع من أدم (فروة خلقة) معها ابنتها من أحسن العرب ، فجاء بهم يسوقهم إلى أبى بكر فنفله ابنتها .

وعادت السرية بالأسرى إلى المدينة وما كشف مسلمة لبنت أم قرفة ثوبا . وذكر له ـــ ﷺ ـــ جمالها فتذكر أسيرا مسلما كان فى أيدى قريش فطافت بذهنه فكرة أن يسأل مسلمة أن يهب له المرأة فيبعث بها إلى قريش ليفدى الأسير المسلم الذى كان فى أيدى المشركين .

والتقى عليه السلام بمسلمة بن الأكوع فى السوق فقال له :

ـــ يا مسلمة ما جارية أصبتها ؟

ـــ يا رسول الله جارية رجوت أن أفدى بها امرأة منا فى بنى فزارة .

وانصرف رسول الله عليه السلام يفكر ، إن مسلمة يريد أن يفدى امرأة من أهله ببنت أم قرفة وهو يريد أن يفدى بها أسيرا مسلما بين يدى قريش ، وراح يقارن بين الفداءين فرجحت كفة فداء أسير مكة ، والتقى رسول الله فى السوق بابن الأكوع فقال له :

ـــ يا مسلمة هب لى المرأة لله أبوك .

ـــ هى لك يا رسول الله .

فبعث بها رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى مكة ففدى بها ذلك الأسير .

وقال عليه السلام لعبد الرحمن بن عوف :

ـــ تجهز فإنى باعثك فى سرية من يومك هذا ومن الغد إن شاء الله تعالى .

ثم أمره أن يسرى من الليل إلى دومة الجندل فى سبعمائة ، فراحوا يتجهزون وعسكروا خارج المدينة ، فلما كان وقت السحر جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدى بك .

وسار عبد الله بن عمر ليسمع وصية رسول الله ـــ ﷺ ـــ لعبد الله بن عوف ، فما كان عبد الله يحب أن يفوته فعل أو قول لمحمد ـــ صلوات الله عليه وعلى آله ، فإذا فتى من الأنصار أقبل يسلم على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ثم جلس فقال :

ـــ يا رسول الله أى المؤمنين أفضل ؟

ـــ أحسنهم خلقا .

ـــ وأى المؤمنين أكيس ؟

ــ أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم له استعدادا قبل أن ينزل بهم ، أولئك الأكياس .

ثم سكت الفتى فأقبل رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

ــ يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا نزلت بكم ــ وأعوذ بالله أن تدركوهن :

بانه لن تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا .

وما نقص المكيال والميزان فى قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات وشدة المؤنة وجور السلطان لعلهم يذكرون .

وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ولولا البهائم لم يسقوا .

وما نقض قوم عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذ ما كان فى أيديهم .

وما حكم قوم بغير كتاب الله إلا جعل الله تعالى بأسهم بينهم .

وكان على رأس عبد الرحمن بن عوف عمامة غليظة فنقضها رسول الله ــ ﷺ ــ بيده ثم عممه بعمامة سوداء وأرخى بين كتفيه منها أربع أصابع أو نحوا من ذلك ، ثم قال :

ــ هكذا يا بن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف .

ثم أمر بلالا أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه ، وقام ــ ﷺ ــ فحمد الله ثم صلى على نفسه ثم قال :

ــ اغز باسم الله وفى سبيل الله ، فقاتل من كفر ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدا فهذا عهد الله وسنة نبيكم فيكم .

ثم قال — صلى الله عليه وسلم — له :

— إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم .

وسار عبد الرحمن بن عوف ومن معه إلى دومة الجندل ليدعو أهلها إلى الإسلام ، إلى نور الله ، إلى المبادئ السامية التى اعتنقها من قبل دومة بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ، تلك المبادئ التى طمستها أساطير الشعوب .

وكان الأمل يراود عبد الرحمن فى أن يستجيبوا لدعوة الحق فقد اعتنق ملكهم النصرانية من قبل لما اتضحت له أن ما تدعو إليه المسيحية أسمى من الجاهلية التى رانت على ملكه ، فمثل ذلك الرجل الذى يبحث عن الحقيقة دون تعصب لمعتقدات الآباء من اليسير أن يتفتح فؤاده لنور الحق .

وقدمت سرية عبد الرحمن بن عوف دومة الجندل فذهب إلى قصر ملكهم الأصبغ بن عمرو الكلبى وهو يتلفت . كانت مدينة حصينة كأنها قلعة فى الصحراء . إنها شهدت معارك طاحنة بين بنى إسماعيل والأشوريين ، وإن السبعمائة الذين معه لا قدرة لهم على دك حصون المدينة فما جاء ليغزو الحصون بل ليغزو القلوب ، فإذا ما نجح فى أن يفتح أفئدة الناس فما أيسر أن تدين له المدينة كلها بالولاء .

واجتمع الأصبغ بن عمرو الكلبى وحاشيته ورجال دينه بعبد الرحمن بن عوف وصحابة الرسول عليه السلام ، وعرض عبد الرحمن على القوم الإسلام فاحتقنت الوجوه بالدم وزمجرت الثورة فى الصدور ، وقال قائل فى غضب :

— ليس بيننا وبينكم إلا السيف .

ولم ينفعل عبد الرحمن وجعل يسرد على مسامعهم مبادئ الإسلام فإذا

بملكهم الأصبغ بن عمرو الكلبي يمتلئ بنفس الشعور الذى امتلأ به النجاشي لما قرأ عليه جعفر بن أبي طالب القرآن . إنه يحس فى أعماقه أن ما جاء به محمد عليه السلام وما جاء به السيد المسيح من مشكاة واحدة .

وأرخى الليل ستره والحوار دائر بين أتباع محمد وأتباع المسيح والأصبغ ابن عمر الكلبي يصغى وقد انفعل بأقوال الرجال الذين جاءوا من المدينة وأعجب بفعالهم ، فما شغلتهم المناقشات عن ذكر الله .

وفى اليوم التالى انعقد المؤتمر الدينى : أصحاب محمد عليه السلام يتلون القرآن العظيم فيهز القلوب ويجعل الدموع تفيض من الأعين ، ويشرحون مبادئ العقيدة السمحة فإذا بها عقيدة ميسرة تحض على مكارم الأخلاق وتأخذ بيد الناس إلى قمم البشرية .

ودخل الملك الأصبغ بن عمرو الكلبي لينام ولكن النوم جافاه فآيات الله البينات تدوى فى عين ذاته وتشغله عن النوم : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾(١) ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين * أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون * واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾(٢) .

---

(١) المائدة ١٠٥ (٢) البقرة ٤٠ — ٤٦ .

وظلت الآيات تتردد فى نفسه وهو شارد يفكر فيحس أن ما سمعه فى يومه قد أنار له الطريق وأرشده إلى السبيل ، وأنه ولا ريب الدين الذى دعا إليه كل الرسل والأنبياء ، وأنه الحنيفية السمحاء . وفى ظلمات الليل رأى بعين بصيرته أنوارا تبهر كل الأنوار ، أنوار تستقر فى الفؤاد وتنعكس منه لتفيض على الوجود ضياء ربانيا يغمر عالم الملكوت ، يشاهد به ما وراء الحواس .

وفى اليوم التالى عاد عبد الرحمن بن عوف وقلة من أصحابه إلى قصر الملك ، وجاء الملك ورهبانه وخاصته وكان متطلق الوجه يرنــو إلى المسلمين فى عطف بعد أن استقر فى وجدانه أنهم حزب الله .

وراح المسلمون يقرءون القرآن فأطرق الأصبغ بن عمرو الكلبى ينصت فيستشعر كأن القراءة تنسكب فى قلبه بالأنوار ، وأطبق الرهبان الشفاه فقد ألقوا السمع إلى ابن عوف وهو يرتل القرآن ترتيلا فيمس فى نفوسهم أوتار الإيمان ، ومات الجدل بعد أن جاءهم برهان من ربهم فما يقصه القرآن من أنباء الرسل ومن أنباء ما قد سبق قد ثبت الإيمان فى قلوبهم ، فما كان لبشر مهما تفقه فى الدين أن يكون عنده كل هذا العلم ، إنما العلم عند الله وإنما محمد نذير مبين .

وقال الملك الأصمغ بن عمرو الكلبى فى انفعال شديد وقد كسا الإيمان وجهه :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وتهللت وجوه المسلمين بالبشر وخفقت القلوب بالفرح ، وراح الرهبان ينطقون شهادة الحق فظفرت الدموع من أعين عبد الرحمن بن عوف والذين معه ، فقد كان إسلام القوم أحب إليهم من قتالهم والانتصار عليهم وأسر الذرارى وسوق النعم . فقد بعث محمد عليه السلام هاديا و لم

يبعث جابيا .

وأسلم الأصبغ بن عمرو وأسلم معه ناس كثيرون من قومه ، وأقر من أقام على كفره بإعطائه الجزية عن يد وهم صاغرون .

وأرسل عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله — ﷺ — يخبره بإسلام القوم فانشرح صدره عليه السلام ، فقد كان يسره أن يدخل الناس فى دين الله ، ولكن إسلام الأصبغ بن عمرو الكلبى كان شيئا آخر له خطره فقد أصبحت قلعة حصينة فى طريق الشام والعراق يخفق فى جنباتها نور الله ، وستكون دومة الجندل نقطة ارتكاز عندما يأتى ذلك اليوم الذى يتحقق فيه وعد الله بأن يرث المسلمون ملك الفرس وملك الروم .

وأراد رسول الله — ﷺ — أن يشد الأواصر بين أصحابه وبين الكلبيين ، فكتب عليه السلام إلى عبد الرحمن بن عوف أن تزوج بنت الأصبغ ، فلما جاء إليه الكتاب لم يتردد فقد قال له عليه السلام يوم بعثه : « إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم » وها هو ذا عليه السلام يبعث إليه بكتاب يأمره فيه بأن يتزوج بنت الأصبغ ، ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا ﴾(١) .

وتزوجها عبد الرحمن بن عوف وهى أول كلبية نكحها قرشى ، ومكث فى دومة الجندل وقد هدى الله به أقواما ، ثم قدم بها المدينة وقد ربط الأسباب بين دومة الجندل والمدينة .

---

(١) الأحزاب ٣٦ .

٢٦

كان على بن أبى طالب ربيب رسول الله ـــ ﷺ ـــ يتلقى عنه الحكمة والعلم ويتخذه أسوة ، وكان ابنه الحسن يدعوه أبا الحسين ويدعوه الحسين أبا الحسن ويدعوان رسول الله ـــ ﷺ ـــ أباهما ، وكناه رسول الله عليه السلام أبا تراب فكانت من أحب كناه إليه ، وكان يفرح إذا دعى بها ، وقال له رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ أنت يعسوب(١) الدين والمال يعسوب الظَّلمة .

وهاجرت أمه فاطمة بنت أسد مع المهاجرين وكان رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله ـــ يكرمها ويعظمها ويدعوها أمى ، وأوصت إليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها وصلى عليها ونزل فى لحدها واضطجع معها فيه بعد أن ألبسها قميصه ، فقال له أصحابه :

ـــ إنا ما رأيناك صنعت يا رسول الله بأحد ما صنعت بها ؟

فقال :

ـــ إنه لم يكن أحد بعد أبى طالب أبرَّ بى منها .

لم ينس رسول الله ـــ ﷺ ـــ صنيع أبى طالب به ، وإنه ليذكر على الدوام تلك الأيام التى كفله فيها عمه بعد موت جده عبد المطلب ، وكلما نظر إلى على كرم الله وجهه تذكر أيام أن وقف أبو طالب إلى جواره يشد أزره ويمنع عنه أذى قريش ويقول له : قل ما أحببت . وإن لم يدخل فى دين

---

(١) اليعسوب : ذكر النحل وأميرها .

الله .

لم يعترض عمه على إسلام على بل قال له اتبعه فإنه يدعوك إلى مكارم الأخلاق . وكان على فى حجره عليه السلام فصار له أبا روحيا ينهل من علمه أشرف العلوم ويقتبس منه الفضائل وسحر البيان ، ويقتدى به فى شجاعته وسخائه وجوده ، فرسول الله عليه السلام رئيس الفضائل وينبوعها ، كل من برزغ فيها بعده فمنه أخذ وله اقتفى وعلى مثاله احتذى .

كان على الشجاع الذى ما فر قط ولا ارتاع من كتيبة . ولا بارز أحدا إلا قتله ، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى الثانية ، كانت ضرباته وترا . وكانت العرب تفتخر بوقوفها فى الحرب فى مقابلته ، وكان رهط قتلاه يفتخرون بأن قاتل الأحبة على كرم الله وجهه ، قالت أخت عمرو ابن عبد ود ترثيه :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبدا ما دمت فى الأبد
لكن قاتله من لا نظير له وكان يدعى أبوه بيضة البلد

ما صارع أحدا قط إلا صرعه ، وكان يصوم ويطوى ويؤثر بزاده وفيه أنزل : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾[1] .

وكان يسقى بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى ثخن جلده ، ويتصدق بالأجر ويشد على بطنه حجر ، إنه على الخلق الذى يحبه الله السخاء والوجود ، ما قال لا لسائل قط .

وكان أحلم الناس عن ذنب بعد رسول الله عليه السلام وأصفحهم عن

---

(١) الإنسان ٨ — ٩ .

مسىء ، لا تصدر أفعاله إلا عن الدين والورع ، ولا جرم فهو ريان على الدوام من حكمة ينبوع الحكمة وموارد علم رسول الله عليه — صلوات الله وسلامه .

وكان سيد المجاهدين ، قُتل فى غزوة بدر سبعون من المشركين قتل علىّ نصفهم . وجدل صناديد قريش فى أحد ، وترك عمرو بن عبد ود فارس قريش يوم الخندق كأمس الدابر . وكان لا يجارى فى الفصاحة ولا يبارى فى البلاغة ، وكان طلق المحيا دائم البشر لين الجانب شديد التواضع ، ولا غرو فهو يرى إمام المتواضعين ينام على الحصير ، وكان مُهابا .

ما شبع من طعام قط ، وكان أخشن الناس مأكلا وملبسا يأتدم إذا ائتدم بخلّ أو ملح ، فإن ترقى عن ذلك فبعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل ، وكان يأبى أن يجعل بطنه مقابر الحيوان !

كان يحفظ القرآن وكان من أسدّ الناس رأيا وأصحهم تدبيرا ، متقيدا بالشريعة لا يرى خلافها ، خشنا فى ذات الله ، زوجته سيدة نساء العالمين ، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . إنه قرة عين رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، ولكنه عليه السلام لم يبعده عن المخاطر بل كان يدفعه إلى الجهاد فى سبيل الله ، فخاتم الأنبياء كان على اليقين من أن المرء لن يصيبه إلا ما كتب الله له .

كانت خيبر تغلى بالحقد على نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه لما أجلى بنى قينقاع وبنى النضير عن المدينة نزل أغلبهم على يهود خيبر ، ولما أصدر سعد بن معاذ حكمه فى بنى قريظة بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء قُتل حُيى بن أخطب سيد بنى النضير فيمن قتل ، فكان بنو النضير يتحرقون شوقا إلى الثأر من صيادى

اليهود .

كان اليهود فى خيبر يعلمون أنهم أهون من أن يشنوا حربا على المسلمين ، وكانوا يرون أن تأليب القبائل عليهم هو الوسيلة التى تمكنهم من الثأر من قتلة الأحبة .

ولكن ذكرى خروج ساداتهم إلى قريش لتزيين قتال المسلمين كانت تؤرقهم ، فلم تتمكن جيوش الأحزاب من استئصال شأفة أعدائهم بل كانت وبالا على حيى بن أخطب وعلى بنى قريظة بله على اليهود أجمعين ، فلم يعد لهم حصون ولا معاقل ولا آطام فى المدينة ، فرأوا أن يستعينوا بجيرانهم وأن يشنوا على المسلمين هجوما على غرة فتكون لهم المبادرة فيحققون ما عجزوا عن تحقيقه فى كل ما سبق من تدبير .

أرسلوا رسلهم إلى بنى سعد بن بكر بفدك فراحوا يفاوضونهم على أن يمدوهم برجال لحرب المسلمين على أن يجعلوا لهم تمر خيبر فى تلك السنة ، فأسال العرض لعاب بنى بكر فقبلوه وراحوا يعدون العدة للسير مع يهود خيبر إلى المدينة ، وهم يحلمون بهزيمة المسلمين وقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبى الذرارى، والنساء .

وبلغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن لبنى سعد جمعا يريدون أن يمدوا به يهود خيبر ، فبعث ربيبه الحبيب على بن أبى طالب فى مائة رجل ليهاجموا ذلك الجمع فى عقر دارهم ليشتتهم ويلقى الرعب فى قلوبهم قبل أن يتدفقوا على مدينة الرسول .

سار على فى مائة رجل من أصحاب الرسول فى شعبان سنة ست من الهجرة إلى بنى سعد بن بكر بفدك وكان بينها وبين المدينة ست ليال ، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى لا يحسوا بخروجه ، إلى أن نزل برجاله محلا

بين خيبر وفدك ، فوجدوا به رجلا فسألوه عن القوم فقال :

ـــ لا علم لى .

فشدوا عليه فأقر أنه عين لهم خرج يتنسم الأخبار وقال :

ـــ أخبركم على أن تؤمنونى .

فأمنوه فدلهم فأغاروا عليهم وأخذوا خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد بالذرارى والنساء . فعزل على رضى الله عنه صفى[(١)] رسول الله ـــ ﷺ : لقوحا تدعى الحفدة[(٢)] ، ثم عزل الخمس لله ورسوله وقسم الباقى على أصحابه .

وامتلأت المدينة بالبعير والشاء ، وكان نصيب الله ورسوله الخمس : مائة من الإبل وأربعمائة شاة وإنها لشىء كثير لو أمسكها عليه السلام لأغنته ، ولكنه وزعها جميعا على فقراء المسلمين . ولم يدخل على كرم الله وجهه على زوجه وأبنائه إلا بعد أن تصدق بنصيبه كله على الفقراء والمساكين ، فقد كان له فى رسول الله أسوة حسنة ، فهو يرجو الله واليوم الآخر .

---

(١) الصفى : ما يختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة .

(٢) الحفدة : السريعة .

٢٧

كانت قريش تتأهب لرحلة الصيف وكان سادات قريش يجتمعون فى دار الندوة وفى الحرم وتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، فأبو سفيان بن حرب زعيم القافلة كان كسير القلب فقد جاءته الأنباء بأن ابنته أم حبيبة قد ركبت السفينة لتنطلق مع المسلمين الذين كانوا فى الحبشة إلى المدينة ؛ إنها ستزف إلى محمد عدوه اللدود وإن هذه الزيجة لتزلزل الأرض تحت قدميه .

وكان يزيد فى قلقه أنه خارج إلى الشام فى رحلة طويلة وسيغيب عن مكة شهورا لا يدرى ما قد يقوم به ابن عبد الله ، فمذ أن أخفقت الأحزاب فى القضاء على ابن أبى كبشة وحزبه فالإسلام يزحف فى كل مكان ، ومحمد يضرب أعداءه كلما فكروا فى أن يجمعوا له الجموع فهو يسير إليهم ويشتتهم قبل أن يتحركوا لقتاله . فمن يدرى قد يزحف محمد إلى مكة فى غيابه ويضع يده على قلب جزيرة العرب النابض فيصبح زعيم العرب بلا منازع ، ويعلو بيت بنى هاشم بينا يصير بيت بنى أمية فى الظل .

كانت الزعامة هى شغل أبى سفيان الشاغل وكانت الدنيا هدفه ، إنه لا يريد أن يصدق أن محمدا ـــ صلوات الله عليه وسلامه ـــ رسول من عند الله وإن كان يعلم أنه صدوق لا يكذب ، وأنه قاتله حتى لا يفقد مكانته فى قريش فقد جاء محمد أمرا لا يبقى معه شرف فقاتله حمية وكراهة أن يذهب بشرفه .

وكان حكيم بن حزام قد أشرف على الستين . إنه ولد قبل قدوم أصحاب الفيل وهو يعقل حين أراد عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله حين

وقع نذره ، وشهد مع أبيه الفجار ، وقتل أبوه حزام بن خويلد فى الفجار الآخر . وكان حكيم يكنى أبا خالد وكان له من الولد عبد الله وخالد ويحيى وهشام ، وأمهم زينب بنة العوام بن خويلد . كان صاحب دار الندوة وكان شريفا فى قومه ، وإن ذلك الشرف أسدل غشاوة على عين بصيرته فلم ير النور الذى بهر عمته خديجة بنت خويلد حاضنة الإسلام وأم المؤمنين ، والزبير بن العوام ، وسادات قريش من المهاجرين .

إنه كان يعجب فى نفسه من تلك المكانة التى بلغها الفتى زيد بن حارثة فى الدين الجديد ، إنه اشتراه بضاعة من سوق عكاظ ووهبه لعمتـه خديجة ، فلما تزوجت محمد بن عبد الله وهبته له فتبناه ابن عبد الله ، وكان ذلك شيئا يفوق تصور حكيم بن حزام .

كان حكيم يحسب أن أمر الغلام اليفعة[1] الذى اشتراه بأربعمائة درهم سيقف عند حد التبنى ، وما خطر له على قلب أن الرجل القصير الآدم أفطس الأنف قد يأتى يوم يتزوج فيه من عقيلة من عقيلات بيوت الشرف فى مكة .

إنه لما سمع أن زيد بن حارثة تزوج زينب بنت جحش ، وأن المسلمين يقولون إن ذلك الزواج قد جاء الأمر به من فوق سبع سموات كاد يطيش لبه ، فقد كان يرى أن الفتى أهون من ذلك ، وأن محمد بن عبد الله قد وصم أشراف قريش بعار لن تمحوه الأيام ، فسادة قريش كانوا يعتقدون أنهم خلقوا من طينة أشرف من طينة العبيد بله من كل البشر !

وكان حكيم شارد اللب فقد كانت مخاوف أبى سفيان تراوده ؛ فمن

---

(١) اليفعة : الغلام راهق العشرين من عمره .

يدرى قد يفجأ ابن عبد الله أم القرى بالهجوم وهم غائبون عنها ؟!

ومر به رجل وهو يشرف على وضع بضاعته على ظهور الإبل فقال له :

ـــ ما المال يا أبا خالد ؟

قال :

ـــ قلة العيال .

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يستشعر فى قرارة نفسه قرب هبوب عاصفة على بيت الله . كان أخا رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الرضاعة ، أرضعته حليمة أياما ، وكان يألف ابن عمه ، فلما بعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ عاداه وهجاه وهجا أصحابه ، فمكث ما يقرب من عشرين سنة مناصبا لرسول الله العداء لا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله ـــ ﷺ .

كان أبو سفيان بن الحارث شاعر البيت الهاشمى بعد الزبير بن عبد المطلب وأبى طالب ، وكان ككل الشعراء معجبا بشعره فلما أنزل على ابن عمه القرآن المجيد تحرك حسده . فما يتلوه عجب لا هو بالشعر ولا هو بزمزمة الكهان ، إنه يعرف طريقه إلى قلوب الناس . فعادى ابن عمه حتى لا يذهب مجد الشعر والشعراء ، ولج فى العداوة لما سخر القرآن بالشعر والشعراء . كان كل ما يشغله مجده ، وكان كأبى سفيان بن حرب يعرف أن ما جاء به ابن عمه لا يبقى معه شرف .

وكان العباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد يتشاوران فهما شريكان فى التجارة ، ويقرضان بنى ثقيف أموالا بالربا ، وكان العباس يكتم إسلامه وكان يتعامل بالربا فى حرمه بعد الإسلام .

وكان العباس أكثر سادات قريش المجتمعين عند الحرم اطمئنانا . إنه

يرى انتشار الإسلام فى القبائل فيثلج ذلك صدره ، وقد استشعر بالفرح لما هاجر نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم إلى المدينة ليعلن إسلامه .

كان نوفل يكنى أبا الحارث بابنه الحارث ، وكان أسن من أسلم من بنى هاشم ، وكان أسن من عميه حمزة والعباس وأسن من إخوته ربيعة وأبى سفيان وعبد شمس بن الحارث .

أسر نوفل بن الحارث ببدر فقال له رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ افد نفسك يا نوفل .

قال :

ـــ مالى شىء أفدى به يا رسول الله .

ـــ افد نفسك برماحك التى بجدة .

ـــ أشهد أنك رسول الله .

وأسلم نوفل بن الحارث وكان شريك العباس وكانا متفاوضين فى المال متحابين . فلم يحزن العباس لهجرة نوفل بل شكر الله أن هداه للإسلام ، ولولا أنه فى مكة يتحسس الأخبار لرسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ لهاجر إلى المدينة ، فهناك الأحبة زوجه أم الفضل وابنه عبد الله .

وكان ربيعة بن الحارث أسن من عمه العباس بسنين . إنه لم يحضر بدرا مع المشركين ، كان غائبا بالشام . ثم قدم بعد ذلك على رسول الله ـــ ﷺ ـــ مهاجرا أيام الخندق ، وقد تهلل العباس بالفرح لإسلامه وإن أخفى سروره بين جنبيه .

وكان عقيل بن أبى طالب فيمن أسر يوم بدر وكان لا مال له ، وقال رسول الله عليه السلام فى ذلك اليوم :

ـــ انظروا من ههنا من أهل بيتى من بنى هاشم ؟

فجاء على بن أبى طالب عليه السلام فنظر إلى العباس ونوفل وعقيل ثم رجع فناداه عقيل :

ـــ يا بن أم على ، أما والله لقد رأيتنا .

فجاء على إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله رأيت العباس ونوفلا وعقيلا .

فجاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى قام على رأس عقيل فقال :

ـــ أبا يزيد قتل أبو جهل .

قال عقيل :

ـــ إذا لا تنازع فى تهامة إن كنت أثخنت القوم وإلا فاركب أكتافهم .

كان العباس يحب ابن أخيه نبى الإسلام عليه السلام ، وقد آمن برسالته وإن أخفى ذلك عن قومه وبقى بينهم يعد عليهم حركاتهم وسكناتهم ويبعث بها إلى رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه .

وكان يعلم أن خزاعة مسلمهم وكافرهم يحبون محمدا عليه السلام ، فكان يجد فيهم خير عون على تبليغ رسالته إلى المدينة ، إنه وهب لابن أخيه مولاه أبا رافع وقد هاجر أبو رافع إلى المدينة بعد بدر ، وشاهد مع الرسول ـــ ﷺ ـــ أحدا والخندق والمشاهد كلها .

كان العباس مطمئن الفؤاد بينا كان شريكه خالد بن الوليد قلقا يشترك فى حروب قريش ضد رسول الله ـــ ﷺ ـــ بروح القائد الحربى ، فهو فارس قد تخلق بأخلاق الفرسان ، إذا خاض غمار معركة لم يكن له هم إلا أن ينتصر ، ولكنه إذا ما فكر فى الانقسام الذى طرأ عل المخزوميين بعد أن جاء الإسلام كانت الحيرة تتجاذبه لا يدرى أى الفريقين على صواب .

كان أبوه الوليد بن المغيرة يلقى سمعه إلى رسول الله عليه السلام وكان يعجب بالقرآن ، وقد اتهمه سادات قريش أكثر من مرة بأنه صبأ ودخل فيما جاء به محمد بن عبد الله ، ولكن أباه مات على دين آبائه فصار خالد لا يدرى أكان أبوه على حق لما مال إلى الإسلام أم كان على حق لما مات على دين الآباء والأجداد ؟

وكثيرا ما كان خياله يسرح فى المخزوميين الذين هاجروا إلى المدينة لينضووا تحت راية الإسلام ؛ خرج مسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد مهاجرين إلى محمد فطلبهم ناس من قريش ليردوهم فلم يقدروا عليهم ، فلما كانوا بظهر الحرة انقطعت أصبع الوليد فدميت فقال :

هل أنت إلا أصبع دميتِ　　　وفى سبيل الله ما لقيتِ

قد هزه ما قال أخوه أثناء هجرته ، ولكن ما كان من عياش بن أبى ربيعة كان أعمق أثرا فى نفسه ، فأبو جهل قد ذهب إلى المدينة واحتال على أخيه حتى عاد به إلى مكة ، فقام إليه بنو مخزوم وبنو ربيعة يضربونه بالسياط ويقولون لسادات قريش :

ـــ هكذا افعلوا بالصابئين من رجالكم .

وحبس عياش فى مكة وظل قلبه يهفو إلى المدينة وإلى رسول الله حتى واتته الفرصة ففر إلى المسلمين . إن خالد كلما فكر فيما كان من الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة يستشعر حيرة وتلقى فى نفسه بذور الشك فى آلهته . أكان هؤلاء السادة يتحملون الاضطهاد وآلام الغربة والجفوة بينهم وبين أهليهم لو كان دين الآباء خيرا مما يدعوهم إليه محمد بن عبد الله ؟

وأحس خالد أسى لما طاف بذهنه موت الوليد . إنه ليرى الناعى وقد جاء إليه يقول : انقطع فؤاد الوليد فمات بالمدينة فبلغته أم سلمة ابنة أبى أمية زاد الركب فقالت :

يــا عين فابكــى للوليــد   بــن الوليــد بــن المغيرة

مثــل الوليــد بــن الوليــد   أبى الوليــد كفــى العشيرة

فقال رسول الله ـــ ﷺ : لا تقولى هكذا يا أم سلمة ولكن قولى : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾[(١)] .

وراحت آيات من القرآن ترن فى أغوار نفس خالد بن الوليد وهو فى حيرته لا يدرى أيصم عنها أذنيه أم يلقى إليها سمعه .

وكان هبار بن الأسود بن عبد المطلب جالسا فى نادى قومه يمد عينيه إلى العبيد الذين يحملون السلع ليضعوها على ظهور الإبل . إنه عادى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ونصب له وآذاه ، وإنه كلما خلا بنفسه تذكر يوم أن بعث محمد بن عبد الله إلى زينب ابنته من يقدم بها من مكة فعرض لها فى نفر من قريش فنخس بها وقرع ظهرها بالرمح وكانت حاملا فأسقطت ، فردت إلى بيوت بنى عبد مناف .

لقد جاءت إليه الأنباء أن محمدا ما بعث سرية قط إلا قال : إن ظفرتم بهبار فاقطعوا يديه ورجليه ثم اضربوا عنقه ، فكان جلده يقشعر من الخوف كلما طافت بفكره ذكريات ذلك اليوم ، ودوى بين جنبيه وعيد رسول الله ـــ ﷺ . وكانت مخاوفه تربو كلما هجس فى نفسه هاجس أن محمد بن عبد الله ما توعد أحدا إلا نفذ فيه وعيده ، إنه قال لأبىّ بن خلف

---

(١) ق ١٩ .

يوم أن هدده أبيّ بالقتل : أنا أقتلك إن شاء الله ، وقد قتله يوم أحد .

أصبحت حياة هبار بن الأسود جحيما ، بات يخشى أن يبتعد عن مكة حتى لا تظفر به سرايا محمد بن عبد الله فتقطع يديه ورجليه ثم تضرب عنقه . وأصبح مهددا بالقتل حتى وهو فى عقر داره ، فأنصار محمد يزحفون على أعداء نبيهم ويقتلونهم فى فراشهم .

كان حويطب بن عبد العزى العامرى باسر الوجه . إنه يجلس بين سادات قريش شارد اللب فهو يعلم أن ما يدعو إليه محمد بن عبد الله حق ، ولقد هم بالإسلام غير مرة ولكن الحكم بن أبى العاص عم عثمان بن عفان يعوقه وينهاه ويقول :

— تضع شرفك وتدع دين آبائك وتصير تابعا ؟

ما كان من قريش أحد من كبرائها الذين بقوا على دين قومهم أكره لما هو عليه منه ، ولقد شهد بدرا مع المشركين فرأى عبرا فقال فى نفسه : « هذا رجل ممنوع » . فانهزموا إلى مكة وهو يفكر فيما رأى وقريش تسلم رجلا رجلا وهو يهم بأن يسلم لولا خشيته من الحكم بن أبى العاص ومن أن يعذبه مثل العذاب الذى أنزله بعثمان بن عفان ابن أخيه .

وكانت بينه وبين أبى ذر الغفارى خلة(١) . إنه يثق فى أبى ذر وفى رجاحة عقله ، وقد رآه يوم أن أسلم وأعلن إسلامه على الملأ فى الحرم وما ناله من أذى قريش وهو ثابت على الحق ، فكان يتمنى لو أوتى شيئا من شجاعة صديقه ليثور على الحكم بن أبى العاص بله على قريش كلها ويشهد شهادة الحق لا يخشى فى الله لومة لائم ، إنه يريد الإسلام ويأبى الله عز وجل

---

(١) خلة : صيفة حميدة .

إلا ما يريد .

وأقبل الناس من الدور لتوديع الأحبة الخارجين إلى الشام ، وخرجت هند بنت عتبة ومعاوية بن أبى سفيان ، وأمية بنت أبى سفيان وزوجها حويطب بن عبد العزى ، ويزيد بن أبى سفيان وعتبة بن أبى سفيان وعمرو ابن أبى سفيان ، وصخرة بنت أبى سفيان وزوجها سعد بن الأخنس بن شريق الثقفى ـــ وهو الذى قال فيه النبى ـــ ﷺ : أبعده الله فإنه كان يبغض قريشا ـــ وأصهار أبى سفيان وأنسباؤه لتوديع شيخ بنى أبى سفيان ابن حرب فكادوا أن يملئوا الفضاء ، فنظر أبو سفيان إليهم وهو سعيد وقد رفت على شفتيه ابتسامة زهو .

وكثر العناق واستيقظت أرق المشاعر فى القلوب وجرت الدموع إلى العيون ، وشغل الناس بمشاعرهم حتى كادوا أن يغيبوا عن الوجود ، وأذن مؤذن القوم حى على الرحيل ففصلت العير ، وانطلق ألف بعير وثلاثمائة رجل من التجار ومن الأحابيش الذين يحرسون القافلة إلى سوق بصرى يداعب الذهب الأصفر أخيلة الشيوخ ويحلم الشباب ببنات بنى الأصفر .

ووقف الرجال والنساء والولدان والإماء والعبيد يرصدون القافلة المنسابة فى الصحراء نحو الأفق البعيد تحمل الأحبة وأعز ما يملكون ، وقد وقف معهم من وُكل إليهم أمر الناس : سُهيل بن عمرو وُحوَيطب بن عبد العزى وُعروة بن مسعود وبديل بن ورقاء سيد خُزاعة ، لا يدرون ما يخبئ لهم القدر من مفاجآت ﴿ فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾[1] .

---

(١) يونس.٢٠ .

٢٨

كان بنو النَّضير يعيشون فى خيبر على أمل أن يأتى اليوم الذى يثأرون فيه من نبى الإسلام والمسلمين على ما نال اليهود من هوان وتشريد ، وكان يهود خيبر متشوقين للثأر من المسلمين لمقتل سيدهم أبى رافع بن سلام بن أبى الحقيق فأمروا عليهم أسير بن رِزام وكان أكثرهم مقتا لرسول الإسلام عليه السلام ، فقال :

ــ إنى صانع بمحمد ما لم يصنعه صحابى .

فقالوا له :

ــ وما عسيت أن تصنع ؟

ــ أسير فى غطفان فأجمعهم لحربه .

ــ نعم ما رأيت .

فسار والحقد ينهش قلبه فى غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ، فبلغ ذلك رسول الله ــ ﷺ ــ فوجه إليه عبد الله بن رواحة فى ثلاثة نفر سرا يسأل عن خبر أسير بن رِزام وغرته .

كانت خيبر دولة قائمة بذاتها قد اجتمع فيها شمل اليهود فراحت تراودهم أحلام السيطرة على الجزيرة العربية بله العالم بأسره ، وكانت الخطوة الأولى لتحقيق آمالهم أن يقضوا على القوة الناشئة فى المدينة ثم ينتشروا فى الأرض ليفرضوا سلطانهم على العالمين .

وكانت نبوءة منجمى الرومان التى تقول إن الدولة الرومانية سيقضى

عليها شعب مختون قد انتشرت بينهم ، فشدت أزر أحلامهم وجعلتهم يتحملون ما ينزل عليهم من اضطهاد فى صبر عجيب ، فقد أقنعهم أحبارهم أن ذلك الاضطهاد هو تطهير لنفوسهم ليكونوا مستحقين أن يضع « يهوه » مصائر العالم فى أيديهم .

وكانت المسافة بين خيبر والمدينة تزيد على مائة ميل بقليل، فراح عبد الله بن رواحة ومن معه يطوون الأرض فبلغوا خيبر بعد خمسة أيام ، فإذا بحصونها تحرسها قد قام فى وسطها حصن هائل يتحدى أسلحة الأعداء من رماح وقسى وسهام وسيوف .

وراح عبد الله بن رواحة يسأل فى حرص عن خبر أسير ويدرس أطماعه فعلم أن أهدافه هى أن يصبح زعيم اليهود فى خيبر وأن تستمر له الزعامة دون منازع ، ففى خيبر أخلاط من بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى النضير وفيهم من يطمع فى سيادة اليهود ، ﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾[1] .

وقدم عبد الله بن رواحة على رسول الله — ﷺ — فأخبره بما رأى وبما سمع وبما دار فى رأسه من أفكار ، فندب رسول الله ﷺ — الناس للخروج إلى خيبر للاجتماع بأسير ، فانتدب له ثلاثون رجلا وأمر عليهم عبد الله بن رواحة .

وانساب الرجال فى الصحراء يفكرون فيما أوصاهم به رسول الله — ﷺ — وفيما رسم لهم من تدبير ، حتى إذا ما دخلوا على أسير فى حصنه

---

(١) الحشر ١٤ .

قالوا :

ـــ نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟

ـــ نعم . ولى منكم مثل ذلك .

ـــ نعم . إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك .

فطمع فى ذلك ، فاستعمال محمد عليه السلام إياه على خيبر إقرار منه بزعامته ودليل على أنه لا يريد أن يخوض حربا مع اليهود ، وإن هذه المهادنة ستترك أمام اليهود فرصة التأهب للانقضاض على المدينة فى غفلة من أهلها ، فجمع مستشاريه وراح يناقش معهم ما عرضه المسلمون عليه فأشاروا عليه بعدم الخروج وقالوا :

ـــ ما كان محمد ليستعمل رجلا من بنى إسرائيل .

ـــ بلى قد مل الحرب .

وراح أسير يحاول أن يقنع اليهود أن محمدا عليه السلام قد مل الحرب ، فقد انقضت ست سنين مذ أن هاجر إلى المدينة وهو ممتشق الحسام[1] يخوض غمار غزوات ويبعث السرايا ليدافع عن مجتمعه الجديد . إنه يبغى المصالحة وترك القتال .

كان أسير يحاول أن يقنع مستشاريه ولكنه فى الحقيقة كان يحاول أن يقنع نفسه ، وراح طمعه يمده بالحجج التى تؤيد هواه فرجحت كفة الخروج ، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلا من يهود مع كل رجل منهم رديف من

---

(١) امتشق الحسام : نزعه من غمده ليضرب به .

المسلمين .

كان عبد الله بن أنيس رديفا لأسير فراحا يتناجيان والرواحل تجد السير إلى المدينة والشمس والقمر يتبادلان احتلال رقعة السماء ، وأسير يفكر فيما عرض عليه المسلمون فيجد أنه قد خرج فى أثر سراب وأنه يجرى وراء آمال كاذبة ، فندم على خروجه معهم فأهوى بيده إلى سيف أنيس ففطن أنيس له وقال :

ـــ أغدر عدو الله ؟! أغدر عدو الله ؟! أغدر عدو الله ؟!

واستل أنيس سيفه فضربه به فأطاح عامة فخذه فسقط ، وكان بيده مخدش من شوحط فضرب به أنيس على رأسه فشجه ، ورأى المسلمون الغدر من أسير فمالوا على اليهود فقتلوهم إلا رجلا واحدا أعجزهم جريا .

ودخل اليهودى خيبر وهو يصيح فالتف حوله اليهود يسمعون منه ما حاق بأسير والذين معه ، فقال الذين أشاروا عليه بعدم الخروج :

ـــ نصحناه فأبى إلا أن يخرج .

وراح الرجال والنساء فى الدور يتحدثون بما حاق بأسير وصحبه ، وكانت صفية بنت حُيَى بن أخطب عروسا بكنانة بن الربيع فغدا كنانة يحدثها عما فعل محمد بأبيها وباليهود وكان حديثه يقطر سما ، ولكن صفية لم تنفعل بذلك الحديث فقد كانت فى قرارة نفسها تعتقد أن الغدر كان يبدأ من قومها وأن سيد العرب كان فى كل مرة يرد السهم المصوب إليه إلى نحور الغادرين .

كان أبوها سيد بنى النضير وقد خرج ليقلب قريش على المسلمين ، ولم يكتف بأن دفع الأحزاب إلى حصار المدينة بل راح يزين لبنى قريظة نقض

العهود فكان وبالا على اليهود . وكانت عند سلام بن مشكم القرظى الشاعر ؛ إنه كان يهجو محمدا ويفحش فى القول ، وكانت حليمة عاقلة فاضلة فكانت تعارض زوجها وتقول له إن ذلك الهجاء لن يعود إلا بالشر على اليهود ففارقها ، فخلف عليها كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق النضرى الشاعر .

وكان الحوار يشتد بينها وبين كنانة فقد غاظه منها أنها لا تحقد على أعداء اليهود مثل بنات جنسها . إنها لا تنقاد لعواطف البغض والكراهية العمياء ولكنها تنظر إلى الدوافع والعواقب وتحاول أن تكون منصفة . إنها تعيره بذلك اليوم الذى ذهبوا فيه إلى قريش لتأليبهم على المسلمين فقد قال لهم سادات قريش :

— يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

فقالوا دون خجل :

— بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه .

كانت مرهفة الحس فمذ أن علمت بما كان من سادات قومها فى ذلك اليوم وهى تستشعر أن قومها ليسوا على الحق ، فلو كانوا على الحق ما كذبوا ولا نافقوا ولا زعموا أن الوثنية أفضل من عبادة الله وحده .

خرج زوجها كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق يسعى فى غطفان ويحضهم على قتال نبى الإسلام على أن لهم نصف تمر خيبر ، وأعلمهم أن قريشا قد بايعوهم على ذلك ، فأجابه عيينة بن حصن الفزارى ، وخرجت الأحزاب عشرة آلاف مقاتل لا يشك أحد منهم فى النصر المبين .

وقد انتهت الغزوة بعودة العرب إلى بلادهم وقد فازوا من الغنيمة بالإياب ، وقتل أبيها الذى كان شؤما على اليهود . إنها منذ تلك الأيام وهى ترى أن قومها على الباطل وأنهم يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين .

ونامت صفية فرأت فى المنام أن قمرا وقع فى حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها فقال لها :

ـــ ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدا .

ولطم وجهها لطمة خضر عينها منها .

٢٩

راح ثراة مكة يشدون الرحال إلى الطائف ليمضوا فيه الصيف لينعموا بطيب هوائه وطيب فواكهه ، حتى يأتى أوان الحج فيخرجوا إلى سوق عكاظ وبينها وبين الطائف ليلة .

وعاد عُروة بن مسعود الثقفى إلى داره بعد أن ودع حماه أبا سفيان بن حرب وشيوخ قريش الخارجين إلى الشام فخف إليه شيوخ ثقيف وشبابها يلقون إليه أسماعهم ، فقد كان سيدهم وكانوا يطمعون فى أن يكون رسول الله لما قام محمد بن عبد الله فى مكة يقول إنه رسول الله ، ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[١] .

كانوا ينتظرون بعث رسول فلطالما حدثهم أمية بن أبى الصلت شاعرهم عن قرب ظهور نبى وأنه ليرجو أن يكون ذلك المبعوث ، فلما ظهر محمد بن عبد الله فى مكة حسدوه وأبوا تصديقه ، فقد كبر عليهم أن يكون من غيرهم بعد أن تهيئوا للشرف المرتقب فيهم . وهل بعد الرسالة من شرف ؟

كانوا يعيشون على أمل أن يبعث أمية بن أبى الصلت فيهم ، فلما حادت الرسالة عنه لم يروا أحدا أحق بها من سيدهم عروة بن مسعود أو عقبة بن ربيعة ، أما محمد بن عبد الله فتى بنى هاشم فلم يخطر لهم على بال ، فلما جاء إلى الطائف يعرض عليهم الإسلام قعدوا على جانبى الطريق الذى يسير

---

(١) الزخرف ٣١ .

فيه وراحوا يرضخون رجليه بالحجارة حتى سالت دماؤه تروى الرمال ، فإذا ناء من الجهد لم تأخذهم به رأفة بل يذهب إليه رجال منهم ليقيموا صلبه ليستأنفوا رضخ رجليه بالحجارة وهم يضحكون .

كان تعذيبهم لنبى الإسلام عليه السلام حديث نواديهم ، حتى إذا ما هاجر عليه السلام إلى المدينة ودارت بينه وبين قريش حروب وارتفع ذكر رسول الله عليه السلام خفتت أصوات الاستهزاء وأشرقت أنوار اليقين فى بعض القلوب ، وتزعزع الإيمان باللات إلهة الطائف التى كان القرشيون يحجون فى الموسم إليها فى صدور بعض الثقفيين ، وكان المغيرة بن أبى شعبة ممن خامرهم الشك فى قدرة آلهتهم .

كان المغيرة دميما أعور وكان عُروة بن مسعود عم والده ولكنه كان يقول له يا عم ، وكان المغيرة من سَدَنة[1] اللات ولكن بذور الشك فى الأصنام قد ألقيت فى عين ذاته فخطر له أن يبتعد عن المعبد ليتحرر من تلك الصلوات التى تؤلم روحه .

علم المغيرة أن رجالا من بنى مالك من ثقيف سينطلقون إلى مصر ليقدموا إلى المقوقس هداياهم فراودته فكرة الخروج معهم ، فذهب إلى عمه يستشيره فى مرافقتهم فأشار عليه بعدم ذلك ، فكيف يقبل عروة أن يغادر أحد سدنة اللات معبده ؟

وتأهب ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك للخروج ، وراح المغيرة يستعد للخروج معهم إلى مصر فقد استولت الفكرة على كل مشاعره : وحان وقت الرحيل فانطلق الرجال ومعهم المغيرة وإن كان عروة بن مسعود

---

(١) السدنة : الخدم .

لخروجه كارها .

وراحت العير تسير على طريق الساجل والمغيرة يرقب أمواج البحر وشروق الشمس وغروبها وخروج القمر من المحاق إلى أن يكتمل بدرا وتألق نجوم السماء وتتابع الليل والنهار وزمجرة الرياح وهبوب النسيم ، ففطن إلى أن اللات والعزى ومناة والأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة أهون من أن تخلق هذا الكون ، ودوى القرآن فى وجدانه : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذا قسمة ضيزى * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى * أم للإنسان ما تمنى * فلله الآخرة والأولى * وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى * وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى * ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾(١) .

كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا القرآن وكانوا يصفقون وينشدون الأشعار إذا ما راح أحد المسلمين يتلو آى الذكر الحكيم . « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوْا فيه لعلكم

---

(١) النجم ٢٠ — ٣١ .

تغلبون » . ثم انتشر ما أنزل الله فى بيوت العرب فكان المؤمنون يقرءونه خاشعين تفيض أعينهم من الدمع بينا الكافرون يقرءونه مستهزئين .

وبلغ الركب الفرما بشق الأنفس ، فتقدم منهم جباة المكوس وكانوا من الرومان الأشداء ، فلما سألوهم عما يحملون قالوا :

ـــ هدايا للمقوقس .

ففحصوا عما معهم وأخذوا منهم حق هرقل ثم فتحوا لهم الطريق ، فانسابوا فى الصحراء يجدون السير تداعبهم الآمال أن يصلوا إلى النيل .

وراحت الصحراء الغربية تطوى تحت أرجل الرواحل . إنها صحراء قاحلة لا زرع فيها قاسية عنيفة فظة ، فلما بلغوا النيل هرعوا إليه يملئون ما معهم من شنان ويروون ظمأهم ويشدون أنفاسا من الهواء الرطب ، ثم يمدون أعينهم إلى الحقول الخضراء فيستشعرون كأنما قد خلقوا من جديد .

وسار الرجال الثمانية مع النيل قاصدين منف ، فكانوا ينزلون فى المدن التى قامت على شاطئ النهر العظيم . كان الوقت زمن الفيضان وكان الفلاحون منهمكين فى إقامة الجسور ، وعلى الرغم من ذلك وجد المغيرة من يحادثه من المصريين فإذا بالقلوب تفيض بالكراهية والبغضاء لحكومة الإمبراطورية الرومانية وإن كان الشعبان يدينان بالمسيحية ، كان المصريون يعتنقون مذهب النساطرة بينا الرومان كانوا على مذهب اليعاقبة وكانوا يعتبرون مصر بقرة حلوبا تحمل خيراتها إلى القسطنطينية .

وسمع المغيرة سادن اللات عن المسيحية ووحدة طبيعة المسيح واللاهوت والناسوت ووحدة الإرادة فعجز عن أن يفهم التثليث . إنه يؤمن بوجود خالق لهذا الكون وأن ذلك الخالق أجل من أن يعبد مباشرة ،

فكانت اللات والعزى ومناة والآلهة الأخرى وسائط تقرب العباد إلى الله زلفى ، وقد بدأ ذلك الاعتقاد يتزعزع مذ جاء محمد بن عبد الله بديانة التوحيد الخالص من كل شائبة وكل وساطة .

وبلغوا منف وكان لها سبعون بابا قد قامت فيها الأبنية والأعمدة والتماثيل والملاعب ، وانطلقوا إلى قصر المقوقس واستأذنوا فى الدخول عليه ، فلما أذن لهم ساروا فى فناء على جانبيه تماثيل أبى الهول ثم دلفوا إلى فناء تزينه أعمدة البردى ، ثم ساروا حتى بلغوا الغرف الداخلية والجنود الرومان قد اصطفوا على جانبى الطريق.ووجدوا أمامهم بابا مغلقا موشى بالذهب ، إنه باب قاعة العرش الذهبية ، فلما لمحهم الحاجب صاح : الثقفيون بالباب ، فأذن لهم بالدخول فتقدموا وقد خفقت أفئدتهم فى صدورهم رهبة . فلما رأوا المقوقس على عرشه وأربعة أنهار تجرى تحت سريره خروا ساجدين ولم يرفعوا رءوسهم حتى أذن لهم ، فنهضوا وساروا على أطراف أصابعهم وهم يحملون هداياهم بين أيديهم والمقوقس يرقب المغيرة بن أبى شعبة فى إنكار ، فهو دميم أعور لا تتفتح له نفوس الذين ينظرون إلى الوجوه .

وقدموا الهدايا فاستخبر كبير القوم عن المغيرة فقال :

— ليس منا بل من الأحلاف .

فكان المغيرة أهون القوم عليه فأكرمهم وقصر فى حقه ، فلما انتهت المقابلة عادوا إلى كنيسة الضيافة والمغيرة فى ضيق شديد . وزاد فى حنقه أن أحدا من أصحابه لم يعرض عليه مواساته . وحان أوان الرحيل فدخلوا على المقوقس فأعطى كل واحد منهم جائزة ولم يعط المغيرة ، فحقد عليهم وكتم حنقه فى نفسه .

وخرج الركب من منف يحمل كل رجل منهم جائزته ويحمل المغيرة غيظه ، وراحت نفسه توسوس له أن رفاقه سيخبرون أهلهم بإكرام الملك إياهم وازدرائه به فتقاصرت نفسه وبيت الغدر بهم .

ونزلوا محلا فعصب رأسه ، فعرضوا عليه الخمر فقال :

ــ رأسى تصدع ولكن أسقيكم .

فسقاهم وأكثر لهم بغير مزج حتى همدوا ، فوثب عليهم فقتلهم جميعا وأخذ كل ما معهم ، ثم انطلق إلى المدينة وقدم على النبى ــ ﷺ ــ فى مسجده فسلم عليه وقال :

ــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فقال ــ ﷺ :

ــ الحمد لله الذى هداك للإسلام يا مغيرة .

فقال له أبو بكر :

ــ من مصر قدمت ؟

ــ نعم .

ــ فما فعل المالكيون الذين كانوا معك ؟

وظهر الدهش فى وجه المغيرة فما كان يحسب أن نبأ خروجهم إلى مصر قد بلغ المسلمين فى المدينة ، فقال :

ــ كان بينى وبينهم ما يكون بين العرب ، وقتلتهم وجئت بأسلابهم ليخمسها النبى ــ ﷺ ــ أو يرى فيها رأيه .

فقال النبى ــ ﷺ :

ــ أما إسلامك فقبلته ، ولا آخذ من أموالهم شيئا ولا أخمسه فإنه غدر والغدر لا خير فيه .

— يا رسول الله إنما قتلتهم وأنا على دين قومى ثم أسلمت .

— الإسلام يجب ما قبله .

وخرجت القبائل فى الموسم إلى عكاظ ، وبلغ ثقيفا ما فعله المغيرة برجال بنى مالك فاختصم بنو مالك مع رهط المغيرة وشرعوا فى القتال ، فسعى عمه عروة بن مسعود فى إطفاء نار الحرب وصالح بنى مالك على ثلاث عشرة دية دفعها عروة من ماله .

٣٠

أذن بلال بالفجر فخرج رسول الله ــ ﷺ ــ من داره إلى مسجده ، فأسرع إليه عبد الله بن مسعود صاحب سواكه وأخذ نعليه وجعلهما فى ذراعيه ومشى أمامه بالعصا حتى بلغ المحراب ، وخف خدمه أنس بن مالك وعقبة بن عامر الجهنى صاحب بغلته وأسلع بن شريك صاحب راحلته ليصلوا خلفه . وجاء من مواليه الذين أعتقهم زيد بن حارثة وشقران ــ وكان حبشيا ــ وثوبان وأنجشة ــ وكان أسود ــ ويسار ــ وكان نوبيا وكان على لقاء رسول الله ــ ﷺ ــ وسلمان الفارسى ، وتدفق إلى المسجد نقباؤه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والزبير وبلال وعمار والمقداد وعثمان بن مظعون ، ونجباؤه وكانوا كلهم من الأنصار سعد بن خيثمة من بنى عمرو بن عوف وسعد بن الربيع من بنى النجار وعبد الله ابن رواحة شاعر الأنصار وأبو الهيثم بن النبهان والبرّاء بن مَعرور ورافع بن مالك وأبو جابر عبد الله بن عمرو بن حزام وعُبادة بن الصامت والمنذر بن عمرو .

ودخل المسجد طلحة وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وأبو لبانة وبشير بن عبد المنذر وعبد الله بن أم مكتوم الأعمى وأبو ذر الغفارى وعبد الله بن أبى بن سلول وسباع بن عَرفطة ومحمد بن مسلم والسائب بن عثمان بن مظعون وأبو دُجانة ، ومن كتابه أبىّ بن كعب وزيد بن ثابت وخالد بن العاص وإبان بن سعيد وحُذيفة بن اليمان وأبو أيوب الأنصارى .

كانوا رجالا لا ذكر لهم قبل أن يمن الله عليهم بالإسلام ، فلما أشرقت قلوبهم بأنوار اليقين صاروا ملء الأبصار والأسماع خير أمة أخرجت للناس ، فاصطفوا خلفه خاشعين قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين .

وقضيت الصلاة فجلسوا إليه يصغون ينهلون من منابع علمه ويتلقون منه الحكمة . وبينا هم مستأنسون بحديثه عليه السلام إذ قدم ثمانية نفر من عُرينة وعَكل مجهودين قد كادوا يهلكون لشدة هزالهم وصفرة ألوانهم ونظروا إليه فى وهن ، ثم نطقوا بالشهادتين وقالوا :

ـــ يا رسول الله آونا وأطعمنا .

فأمر عليه السلام بلالا أن يطعمهم وأن ينزلهم فى أهل الصفة ، فكان إذا تناول طعاما دعاهم إليه وإذا خرج فى الليل جلس إليهم يحدثهم ويفقههم فى الدين ، ولكن قلوبهم التى كانت عمياء لا ترى أنوار اليقين .

وذات يوم قدم أبو ذر إلى المسجد ورسول الله عليه ـــ صلوات الله وسلامه ـــ جالس وحده ، فجلس إليه فقال الرسول :

ـــ يا أبا ذر إن للمسجد تحية وإن تحيته ركعتان ، فقم فاركعهما .

فقام أبو ذر وصلى ركعتى تحية المسجد ، ثم أقبل على رسول الله عليه السلام فقال :

ـــ يا رسول الله إنك أمرتنى بالصلاة فما الصلاة ؟

ـــ خير موضوع استكثر أو استقل .

ـــ يا رسول الله فأى الأعمال أفضل ؟

ـــ إيمان بالله عز وجل وجهاد فى سبيله .

ـــ فأى المؤمنين أكملهم إيمانا ؟

ـــ أحسنهم خلقا .

ـــ يا رسول الله فأى المؤمنين أسلم ؟

ـــ من سلم الناس من لسانه ويده .

ـــ يا رسول الله فأى الهجرة أفضل ؟

ـــ من هجر السيئات .

ـــ يا رسول الله فأى الصلاة أفضل ؟

ـــ طول القنوت .

ـــ يا رسول الله فما الصيام ؟

ـــ فرض مجزى وعند الله أضعاف كثيرة .

ـــ يا رسول الله فأى الجهاد أفضل ؟

ـــ من عُقر جواده وأهريق دمه .

ـــ يا رسول الله فأى الرقاب أفضل ؟

ـــ أغلاها ثمنا وأنفسها عند ربها .

ـــ يا رسول الله فأى الصدقة أفضل ؟

ـــ جهد من مقل يُسرُّ إلى فقير .

ـــ فأى آية مما أنزل الله عز وجل عليك أعظم ؟

ـــ آية الكرسى يا أبا ذر ، ما السموات السبع مع الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة .

ـــ كم كتابا أنزل الله ؟

ـــ مائة كتاب وأربعة كتب : أُنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأُنزل على خنوخ ثلاثون صحيفة ، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

ـــ يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟

ـــ كانت أمثالا كلها : « أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، فإننى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها ولو كانت من كافر » . وكان فيها أمثال : « على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فيها فى صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو فرقة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا لزمانه ، مقبلا على شانه ، حافظا للسانه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » .

ـــ يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟

ـــ كانت عبرا كلها : « عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح . عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك . عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب . عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها . عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل » .

ـــ يا رسول الله أوصنى .

ـــ أوصيك بتقوى الله فهى رأس الأمر كله .

ـــ يا رسول الله زدنى .

ـــ عليك بتلاوة القرآن فهو نور لك فى الأرض وذكر لك فى السماء .

ـــ يا رسول الله زدنى .

ـــ إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه .

ـــ يا رسول الله زدنى .

— عليك بالصمت إلا من خير ، فإنه مطردة للشيطان عنك وعون لك على أمر دينك .

— يا رسول الله زدنى .

— أحب المساكين وجالسهم .

— يا رسول الله زدنى .

— انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ، فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عندك .

— يا رسول الله زدنى .

— صل قرابتك وإن قطعوك .

— يا رسول الله زدنى .

— لا تخش فى الله لومة لائم .

— يا رسول الله زدنى .

— قل الحق ولو كان مرا .

— يا رسول الله زدنى .

— يردك عن الناس ما تعرف من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ، وكفى به عيبا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك ، أو تجد عليهم فيما تأتى .

ثم ضرب بيده على صدر أبى ذر وقال :

— يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسن كحسن الخلق .

وجاء النفر من عُرينة وعَكل إلى رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— إن المدينة وبية وخمة ونحن أهل ضرع و لم نكن أهل ريف .

كانت لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لقاح وكانت خمسة كانت ترعى بذى الجَدْر ناحية قباء قريبا من عير على ستة أميال من المدينة ، فقال لهم عليه السلام :

— لو خرجتم إلى زود لنا فشربتم من ألبانها .

فخرجوا إلى لقاح رسول الله ليشربوا من ألبانها وكان فيها يسار مولى رسول الله — ﷺ — يرعاها ، فظلوا فيها حتى صحوا وسمنوا فعدوا على اللقاح فاستاقوها ، فأدركهم يسار مولى رسول الله — ﷺ ، ومعه نفر فقاتلهم فقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات ، ثم انطلقوا بالغنيمة وأصبحت هيبة المسلمين فى الميزان ، فبلغ رسول الله — ﷺ — الخبر فبعث فى أثرهم عشرين فارسا واستعمل عليهم كرز بن جابر الفهرى ، فأدركوهم فأحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة ، وكان رسول الله — ﷺ — بالغابة ، فخرجوا بهم نحوه فلقوه بالرغابة بمجتمع السيول ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم وصلبوا هنالك . وأنزل الله تعالى على رسوله : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾[1] .

---

(١) المائدة ٣٣ .

٣١

كانت السنة السادسة من الهجرة والوقت موسم الحج فخرجت قبائل العرب إلى الأسواق قبل أن يتدفق الناس على البيت العتيق . وكان رسول الله ﷺ ـــ يهوى فؤاده إلى الحرم ، فلما دخل داره وأسلم جنبه للرقاد رأى فى النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف هو وأصحابه واعتمر .

واستنفر رسول الله ـــ ﷺ ـــ أصحابه للعمرة فأسرعوا وتهيئوا ، ولبس رسول الله ـــ ﷺ ـــ ثوبيه وركب راحلته القصواء وخرج ، وذلك يوم الاثنين لهلال ذى القعدة واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

ولم يخرج رسول الله ـــ ﷺ ـــ معه بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف فى القرب ، وساق بدنا[١] وساق أصحابه بدنا ، فصلى الظهر بذى الحليفة ثم دعا بالبدن التى ساق فجللت ثم أشعرها[٢] فى الشق الأيمن وقلدها[٣] وأشعر أصحابه أيضا ليعلم أنها هدى وهى موجهات إلى القبلة ، وهى سبعون بدنة فيها جمل أبى جهل الذى غنمه رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوم بدر .

---

(١) البدن : النوق أو البقر المسمنة .(٢) أشعرها : ألبسها الشعار .

(٣) قلدها : جعل فى أعناقها حبالا .

وأحرم رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولبى حتى إذا ما كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان ، أتاه الرجل الخزاعى الذى كان قد بعثه ليأتيه بأخبار قريش فقال :

ـــ إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد جمعا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .

فقال النبى ـــ ﷺ ـــ لأصحابه :

ـــ أشيروا على ! أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين وإن يجبنوا تكن عنقا قطعها الله ، أو ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟

فقام أبو بكر فقال :

ـــ يا رسول الله إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ فروحوا إذا .

فراحوا حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى فقال :

ـــ يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل[1] قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم .

---

(١) العوذ المطافيل : النوق التى وضعت أولادها حديثا يريد أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان .

فقال رسول الله — ﷺ :

— يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؟ فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[1] .

ودنا خالد بن الوليد فى خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله — ﷺ ، فأمر رسول الله — ﷺ — عباد بن بشر فتقدم فى خيله فأقام بإزائه وصف أصحابه . وحانت صلاة الظهر فصلى رسول الله — ﷺ — بأصحابه صلاة الخوف ، فلما أمسى — ﷺ — قال :

— من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟

فقال رجل من أسلم :

— أنا يا رسول الله .

فخرج بهم على طريق وعر حزن بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضى إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى قال رسول الله — ﷺ :

— قولوا نستغفر الله ونتوب إليه .

ففعلوا ، فقال :

— والله إنها للحطة[2] التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقبلوها .

---

(١) السالفة : صفحة العنق وكنى عن انفرادها بالموت .

(٢) الحطة : يشير إلى قوله تعالى لبنى إسرائيل : « وقولوا حطة » ومعناه : اللهم حط عنا ذنوبنا .

ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ للناس :

ـ اسلكوا ذات اليمين .

فسار المسلمون حتى دنوا من الحديبية وهى شرق الحرم على تسعة أميال من مكة ، فلما رأى خيلُ قريش غبار الجيش وأن رسول الله ـ ﷺ ـ قد خالفهم عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش ينذرونهم .

وسار رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا سلك ثنية المرار بركت به ناقته ، فقال الناس :

ـ حلْ حلْ(١) .

فقال ـ ﷺ :

ـ ما حل .

قالوا :

ـ خلأت(٢) القصواء .

فقال ـ ﷺ :

ـ ما خلأت وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس(٣) الفيل .

ثم قال :

ـ والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش إلى خطة يعظمون بها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

---

(١) حل حل : كلمة تقال للناقة إذا تركت السير .

(٢) خلأت : حرنت .

(٣) حابس الفيل : أى حبسها الله عن دخول مكة كما حبس الفيل من دخولها .

تذييـــل

كان رسول الله ــ ﷺ ــ وحده ليس معه إلا ربه الذى أوحى إليه أن أنذر عشيرتك الأقربين ، فقام أعزل من كل سلاح يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له إلا سلاح الحكمة والموعظة الحسنة ، ففتح قلوب المؤمنين بالقرآن الحكيم ، وقد صبر هو وأصحابه على أذى الكافرين ، ولم يستخدم القوة فى إقناع معارضيه وإن اشتهر بالقوة البدنية ، بل كان يحاول أن يكسب قلوبهم بالموعظة : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[1] و ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾[2] .

وفر المسلمون الأوائل من وجه الاضطهاد إلى الحبشة ، ثم هاجر ــ ﷺ ــ وأصحابه إلى المدينة بعد أن أسلم الأوس والخزرج لما ألقوا أسماعهم إلى التنزيل فأضاءت أفئدتهم بأنوار اليقين ، وأخذ الإسلام ينتشر فى القبائل لأنه دين الفطرة يخاطب العقل فيستجيب ، حتى إذا ما شن عليهم أعداؤهم الهجوم ورفعوا السيوف فى وجوههم شرع الله لهم القتال دفاعا عن أنفسهم ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى

---

(١) النحل ١٢٥ .　　(٢) فصلت ٣٤ .

عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[١] .

لم يشهر المسلمون السيف لإكراه الناس على الدخول فى الدين ، فالقرآن المجيد يعلمهم أن لا إكراه فى الدين : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٢] .

وقد فرض القتال للقضاء على الفتن التى تهدد المسلمين الآمنين : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سُنة الأولين * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير * وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾[٣] .

لم يكن الإسلام دينا متعطشا للدماء ولكنه دين يدعو إلى السلام : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾[٤] . ولكنه لا يرضى بالسلام المذل الذى تضيع فيه حقوق المسلمين وتنتشر بسبب الركون إليه الفتن التى تجتث أنوار اليقين من سويداء القلوب ، فكتب على المسلمين القتال للقضاء على الفتن وإن كانوا للقتال كارهين : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا

---

(١) الحج ٣٩ — ٤١
(٢) البقرة ٢٥٦ — ٢٥٧ .
(٣) الأنفال ٣٨ — ٤٠ .
(٤) الأنفال ٦١ .

شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[١] .

إنه أمر شديد أن يمتشق المسلمون السلاح فى وجه الظالمين ، إنه فراق الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال فى سبيل إقرار الحق الذى ما نزلت الرسالات السماوية إلا للتمكين له فى الأرض ، وإنه أمر لا تستجيب له فى يسر النفوس التى تعلقت بالحياة الدنيا ، فلا بد من ترغيب وترهيب للجهاد فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا ، فزخر القرآن العظيم بآيات الحض على الجهاد وجزاء المجاهدين والخزى الذى أعد للمنافقين والناكصين : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[٢] .

قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها * إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان

---

(١) البقرة ٢١٦ (٢) التوبة ٢٤ (٣) الحجرات ١٥ .

سول لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم * أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول. والله يعلم أعمالكم * ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم * إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم ﴾[1] .

فلم يكن الجهاد لإرغام الناس على الدخول فى دين الله بل كان قتال المنافقين الذين فى قلوبهم مرض حتى لا يفسدوا النفوس التى هداها الله للنور ، وقتال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله من بعد ما تبين لهم الهدى : ﴿ من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾[2] .

كان هم النبى — ﷺ — الأول هو الدفاع عن أنفس المؤمنين ، وتأمين حرية العبادة للمسلمين ، وحرية القول وحرية العمل ، وحماية الحقوق للمجتمع الجديد الذى تكون فى المدينة فى ظل التنزيل .

إن نبى الإسلام عليه السلام لم يشهر سيفا و لم يسدد رمحا فى سبيل نشر الإسلام بقوة السلاح ، بل خاض حروبا فى سبيل الدفاع عن النفس وفى سبيل حماية الدولة الإسلامية الناشئة وهى حروب تقرها كل الشرائع

---

(١) محمد ٢٠ — ٢٨ (٢) المائدة ٥٤ .

السماوية بله شريعة الفقه الدولى الحديث . وما كان له أن يكره أحدا للدخول فى دينه وقد قال الله تعالى فى محكم كتابه : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾(١) ، ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾(٢) ، ﴿ وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾(٣) .

وقد حاول رجل من المسلمين لما رأى ولديه قدما مع قافلة من الشام وقد تنصرا أن يرغمهما على اعتناق الإسلام بحجة أنه لا يستطيع أن يرى بعضه يدخل النار ، فنهاه نبى الإسلام عليه السلام عن ذلك ، فالله تعالى يقول : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾(٤) . فكيف يعصى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أوامر ربه ؟! وهل يمتشق الحسام لإرغام الناس على الإسلام والله تعالى يقول : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾(٥) .

فر المسلمون بدينهم من مكة إلى المدينة ، وكان عليه السلام يبعث السرايا لتحسس أخبار قريش لكيلا يأخذه أعداؤه على غرة فقد كانت حالة الحرب قائمة بين الطرفين . وقد خرج عليه السلام ليعترض قافلة قريش القادمة من الشام قصاصا لما استولت عليه قريش من دور وأموال ، وقد أفلت أبو سفيان بالقافلة وعلى الرغم من ذلك خرجت قريش لحرب المسلمين واستئصال شأفتهم ، فكان على المسلمين أن يسلموا رقابهم

---

(١) القصص ٥٦ (٢) العنكبوت ٤٦ . (٣) ق ٤٥ .
(٤) البقرة ٢٥٦ . (٥) الكهف ٢٩ .

لأعدائهم أو يدافعوا عن أنفسهم وأن يصدوا الباغين المعتدين ، فدارت عند ماء بدر أول معركة يخوضها المسلمون دفاعا عن النفس وحماية لدولتهم الناشئة أن تدول . وما كان المسلمون البادئين بالقتال وما كانوا معتدين ، فالنور الذى أضاء قلوبهم قد أرشدهم إلى مغبة الابتداء بالعدوان : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[1] . ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[2] .

فالجهاد فى الإسلام هو الحرب دفاعا عن النفس أو دفاعا عن جماعة المسلمين حتى لا تكون فتنة ، وقد عظم القرآن الكريم الجهاد والمجاهدين فقال الله تعالى : ﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾[3] . والجهاد هو قتال الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم لا إكراه الناس على الدخول فى الإسلام ، لهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان . وقال ـــ ﷺ : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » .

وقال رجل :

ـــ يا رسول الله أخبرنى بشىء يعدل الجهاد فى سبيل الله .

ـــ لا تستطيع .

---

(١) يونس ٩٠   (٢) يونس ٩١ .   (٣) الصف ١٠ ـــ ١٣ .

ـــ أخبرنى .

ـــ هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تُفطر وتقوم لا تفتر .

ـــ لا .

ـــ فذلك الذى يعدل الجهاد .

وقد ذكر الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى رسالته فى الإسلام والعلاقات الدولية فى السلم والحرب : « إن الإسلام الذى يجىء عن طريق الإكراه لا قيمة له ولا كرامة لصاحبه ولا اعتداد به عند الله ، فهو يقول لفرعون حين أدركه الغرق وقال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ﴾(١) . حيث رد عليه تعالى بقوله : ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾(٢) وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾(٣) . وكذلك يقرر القرآن أن الله لا يقبل التوبة التى تنبعث عن الإكراه أو بعد معاينة العذاب ، فيقول الله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾(٤) .

وخلص الأستاذ شلتوت إلى النتائج الآتية :

١ ـــ ليس فى طبيعة الدعوة الإسلامية من التعقيد والغموض والمشقة العقلية ما تحتاج معه إلى إكراه جلى وهو ما كان بالقوة المادية كالحديد

---

(١) يونس ٩١ .

(٢) الصف ١٠ ـــ ١٣ .

(٣) غافر ٨٤ ـــ ٨٥ .

(٤) النساء ١٨ .

والنار ، أو إكراه خفى بالخوارق الحسية التى تخضع لها الأعناق .

٢ — أن الدعوة الإسلامية أخذا من كتاب الله لا تخالف سنة الله حيث ترك الناس وما يختارون لأنفسهم عن طريق النظر والاقتناع .

٣ — أن الشريعة الإسلامية أخذا من كتاب الله لا تبيح اتخاذ الإكراه وسيلة من وسائل الدعوة إليها .

٤ — أن صاحب الدعوة الإسلامية ليس مسئولا أمام ربه إلا عن مهمة الرسالة التى بينها القرآن وهى التبليغ والإنذار ، وليس مطالبا بإيمان الناس حتى يسمح له بإكراههم والعنف عليهم .

٥ — أن كتاب الله مصدر الدعوة الإسلامية لا يحترم إيمان المكره ولا يرتب عليه آثاره يوم البعث والجزاء ، فكيف يأمر بالإكراه أو يبيح اتخاذه وسيلة من وسائل الإيمان بهذه الدعوة ؟

* * *

لا مراء أن الناس قد دخلوا فى دين الله طائعين وأن الجهاد هو جهاد الظلم والعدوان والفتن ، فالفتنة أشد من القتل . ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[1] .

---

(١) البقرة ١٩١ — ١٩٤ .

لقد زعم بعض المتعصبين الذين أعمى الله قلوبهم التى فى صدورهم أن الإسلام قد انتشر بحد السيف ، وأعرضوا عن قول الله لنبيه وللمسلمين : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾(١) . وقد قال الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية : « إن الله تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للمعذرة قال بعد ذلك إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للكافر فى الإقامة على كفره ، إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه وهو مالا يجوز فى دار الدنيا التى هى دار عمل وابتلاء ، لأن فى القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان ومناطهما العقل » . فواقع التاريخ يؤكد أن الإسلام قام على الإقناع ، وأن النور الذى أنزل على نبى الإسلام عليه السلام قد بين للناس طريق الخير وطريق الشر : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾(٢) . وترك للإنسان أن يختار طائعا أحد النجدين : ﴿ وهديناه النجدين ﴾(٣) . فإن اختار طريق الخير وجاهد العدوان والبغى كتب الله على نفسه نصره : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(٤) .

وقد فطن بعض المفكرين الأوربيين إلى سخف دعوى انتشار الإسلام بالقوة ، فتوماس كارليل فى كتابه « الأبطال وعبادة البطولة » تحدث عن محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال إن اتهامه بحمل الناس على الدخول فى الدين الذى جاء به بالقوة والقهر سخف لا يقبله

---

(١) البقرة ٢٥٦ .
(٢) الإنسان ٣ .
(٣) البلد ١٠ .
(٤) الحج ٤٠ — ٤١ .

عقل ، فكيف يمكن أن يتصور أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته ؟!

* * *

ويقول ر . ف . بودلى فى كتابه « الرسول . حياة محمد » ، حديثه عن وقعة بدر : كان القرشيون أنفسهم سببا من الأسباب التى دفعت محمدا إلى الالتجاء للقوة ، إذ استمر عداء أبى جهل لمحمد فى درجة الغليان ، فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة باستمرار ويقاتل أية جماعة منعزلة يكمن لها ، وقد أغار على ضواحى المدينة وأتلف الزرع والحدائق فأظهر لمحمد أن شعوره لم يتبدل وأن هدفه لا يزال قتله ، فلم يكن هنالك إلا حل واحد من وجهة نظر الجانبين وهو القتال .

وما قر رأى محمد على ذلك حتى أقر مبدأ سيصبح عقيدة غير شرعية للمؤمنين ، فالجهاد مع أنه ليس فرضا دينيا سيقوم بما لا يقوم به شىء آخر فى سبيل حمل الإسلام إلى العالمين .

و لم يقدر محمد مدى الأثر البعيد الذى ستحدثه موافقته على اتباع ذلك السبيل فى معاملته للكافرين ، فإنه لمن الجلى أنه لم ير تطبيق قانون السيف كسياسة فى المستقبل ، لأن الدافع الأول لما هو مقبل عليه كان قبل كل شىء اليأس من قوم لم يطلب منهم إلا الإصغاء إليه و لم يلق منهم إلا المهانة والاضطهاد . ويضاف إلى ذلك حاجته إلى كساء أنصاره وطعامهم وتسليحهم وإيجاد حلفاء جدد ، ولما كان محمد أعرابيا قد سافر كثيرا مع رجال الصحراء فقد كان على ثقة من أن رجال القبائل قد يفهمون عقيدتهم أكثر لو أنهم علموا أنها تؤيد الحرب لجلب المغانم .

انتقد محمد لهذا الجانب من تعاليمه ، عنفه المؤرخون الذين تشبعت

عقولهم بأنه « أفاك » كأنما كان أول من قضى بشريعة الحروب الدينية . والظاهر أن هؤلاء الرجال قد نسوا أن الدين كان السبب الرئيسى أو السبب الثانى لنشوب أكثر الحروب منذ العصور المتناهية فى القدم .

لو أن محمدا قد قرأ « العهد القديم » لوجد أن موسى قد أشعل حربا مقدسة منذ ألفى سنة قبل أن تبدأ حروبه مع قريش ، ولو أنه استمر فى القراءة لوجد أن قضاة بنى إسرائيل وملوكهم لم يفعلوا إلا القليل بجانب قتالهم فى سبيل عقيدتهم ، ولسمع عن مجازر تبدو قوائم ضحاياه بجوارها كضحايا الحوادث التى تقع فى ميدان كرة القدم ، ولعلم أن العبرانيين القدماء قد وضعوا قوانين للحروب الدينية لا تشابهها قوانين قديمة ولا حديثة .

لم يكن محمد متعطشا للدماء لمجرد التعطش للدماء ، فقد كان للأسير المشرك أن يختار بين أن يدفع الجزية أو يدخل فى الإسلام . وإن القرآن يقرر : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾(١) . ويقرر ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾(٢) .

فإذا ما اختار الأسير الإسلام أصبح له جميع الحقوق الروحية والدنيوية التى للمسلمين الآخرين ، وإن هذا الإجراء ولا شك فى مصلحة محمد ، ولم يعرف عن محمد أنه انتقم لنفسه من أعدائه المنهزمين .

ولو أنه جعل المثلة من تعاليمه لكان محافظا على عادات زمنه وعلى ما كان

---

(١) التوبة ٥ (٢) البقرة ٢٥٦ .

عليه المسيحيون فى زمنه وبعد زمنه بكثير ، فإنه لما غزا الصليبيون الأرض المقدسة سنة ١٠٩٩ خلفوا وراءهم فى كل مكان الموت والدمار ، ولكنه لما رد صلاح الدين الصليبيين على أعقابهم لم يلجأ إلى وسائل الانتقام ولم يخرب المسلمون الممالك التى فتحوها كما فعل المقاتلون الدينيون السابقون لهم من الممالك الأخرى ، فأينما وضعوا أرجلهم نشأ شىء جديد أسمى وأفضل مما كان قبلا ، لقد كانوا كالغيث الذى يخصب المكان الذى ينزل فيه .. وإن عصر الإحياء فى أوربا ليرجع إلى أحفاد صحابة محمد الذين حملوا مشعل الثقافة حين كانت أوربا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى . لقد كان المجد الهندسى لدمشق وفارس وأشبيلية وغرناطة وقرطبة نتيجة غير مباشرة أثرا لما بدأه محمد عام ٦١٣ ميلادية .

وجد محمد ولا شك أن الحرب ضرورة ومجلبة للغنائم بعد ذلك ، ولكنه لم يكن أحد هؤلاء العرب المغيرين الذين كان حب الثأر طبيعة ثانية فيهم ، فلو أن قريشا أعطته نصف فرصة لنشر دينه فى أمان لما طرأت فكرة الحرب على خاطره .

* * *

كان بودلى قائدا عسكريا خاض غمار الحرب العالمية الأولى فراح يدافع عن حروب الإسلام بعقلية القائد ، يقيس الحروب التى خاضها المسلمون بالحروب التى شنها الأنبياء من قبل والشعوب ولم يحاول أن يجهد نفسه بالتعمق فى آيات القتال ليخرج بحقيقة لا جدال فيها ألا وهى أن محمدا ﷺ ، وصحبه ما سلوا سيفا ولا شرعوا رمحا إلا فى سبيل الدفاع عن النفس وتأمين الحريات العامة للمسلمين . والفقه الدولى الحديث يعتبر هذين النوعين من الحروب مشروعين دون غيرهما من حروب الفتح

والغزو والبغي والعدوان .

حقيقة أن بودلى قد مس قيام المسلمين الأوائل للدفاع عن أنفسهم مسا رفيقا ، ولكنه وهو القائد الذى عاش الحرب العالمية الأولى قد خلط بين الدنيا والدين فجعل الغنائم هدفا من أهداف الحروب الإسلامية التى يسيل لها لعاب المسلمين ، ونسى أن الناس قد كرهوا القتال لما كتب عليهم لدفع عدوان الظالمين ، وأن الله تعالى قد خاطبهم بقوله : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾[1] . كان المسلمون يقاتلون أقواما بدعوهم بالقتال فكان لا بد لهم أن يدفعوا الاعتداء بمثله وإلا فسدت الحياة فى الأرض وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله .

ويقول « چيمس متشنر » فى مقاله « اخترت الدفاع عن الإسلام » : لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة ، فعند وفاة « محمد » سنة ٦٣٢ ميلادية كان الإسلام يحتل جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث بعد ذلك أن ضم إليها سوريا وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجنوبية لروسيا وامتد إلى شمال إفريقية حتى بلغ مداخل أسبانيا . وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الإسلام باهرا . واعتقد العرب أن توسع الإسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون إلى السيف ، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى ، فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة . والدليل قوى على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل

---

(١) البقرة ٢١٦ .

خصومه » : وشمول العقيدة الإسلامية هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الأمم العريقة التى تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار ، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية والبرهمية فى مصر وسوريا وفارس والهند والصين .

ولقد عزى انتشار الإسلام فى صدر الدولة المحمدية إلى قوة السيف ؛ وما كان للإسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء ، بل كان المسلمون هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت . وإن عدد المسلمين اليوم من أبناء الهند والصين وأندونيسية والقارة الإفريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الأقطار ما يكفى لتحويل الآلاف المعدودة فضلا عن مئات الملايين من دين إلى دين .

ويقول الأستاذ المستشار على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » : يذهب بعض كتاب القانون الدولى الأوربى وكثير من مؤرخيهم والمستشرقين منهم إلى أن محمدا هو الذى بدأ العدوان على قوافل قريش ، وتلقفوا بعض العبارات من كتب السيرة وبنوا عليها أن المسلمين صادروا الكثير من قوافلها . وعلى فرض صحة هذا القول ـــ وهو ما لا أسلم به ـــ أفلا يكون المسلمون على حق فى ذلك ما دمنا قد أثبتنا أنه عند هجرتهم كانت الحرب قائمة بينهم وبين قريش ؟ أوَ ليس القانون الدولى يبيح لمن يكون فى حالة حرب أن يغنم من خصمه ما يستطيع خصوصا وقد علمنا أن ذلك الخصم أخرجهم من ديارهم وأموالهم وذريتهم ونسائهم بأن أكرهوهم على ذلك بالأذى والاعتداء والحصار وإعلان حرب المقاطعة ، ثم قتلوا بعض المسلمين واتفقوا على قتل

نبيهم وهو ما لا خلاف عليه ، و لم نجد أحدا من العرب والفرنجة إلا قال به ؟ ومع كون ذلك من حقوق المسلمين المشروعة فى كل شريعة وفى قواعد القانون الدولى الحديثة ، إلا أن من يتتبع الوقائع بإمعان فى كتب السيرة بعد أن ينقيها من الحواشى والتعليقات يجد الأمر على ما قلنا من أن المسلمين لم يبدءوا العدوان بل كانوا يردون الاعتداء بمثله .

غزوة بدر لم يبدأ المسلمون بالاعتداء فيها بل كانوا يردون العدوان :

قلنا إن المسلمين كانوا يبعثون بالسرايا والبعثات لاستطلاع أخبار عدوهم الذى هو على حرب معهم . وكان اعتراض قافلة قريش الكبرى عام بدر لمثل هذا الغرض ، ولنسلم أيضا بما يذهب إليه الرأى الآخر من أن المسلمين حين خرجوا إلى القافلة قصدوا الظفر بما فيها من مال قصاصا لما أخذ منهم من أموالهم ، ونتساءل : أفلا يباح لهم ذلك ما دامت حالة الحرب قائمة بين الطرفين ؟ بل ما دامت الحرب معلنة من جانب قريش وقائمة بينهما ؟ أظن أن الجواب : نعم .

ومع ذلك ماذا حدث ؟ لا خلاف بين الجميع من مسلمين وأوربيين ومستشرقين بأن السرية التى أرسلت لم تفز بالقافلة وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند ذلك ، ولكن قريشا نادت بالنفير وخرجت من مكة بقضها وقضيضها تبغى المدينة لمحاربة المسلمين والقضاء عليهم فى عقر دارهم التى هاجروا إليها . فهل خرج المسلمون إلى مكة ليهاجموا قريشا ؟ كلا . فلم يكن موقف المسلمين إذن فى غزوة بدر إلا موقف المدافع عن نفسه ، وكانت الحرب من جانبهم حربا دفاعية لا هجومية .

كان جيش المسلمين فى عدته وعدده ثلث جيش قريش ، ولما علم النبى بمقدم قريش خرج للقائها خارج المدينة فالتقى الجمعان فى بدر ، وهى

أقرب للمدينة منها إلى مكة . وكان المسلمون يتعقبون الإبل لكل ثلاثة بعير بينما قدمت قريش بخيلها وخيلائها .

وأخذ الرسول يسأل ربه النصر الذى وعده إياه ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » . فنصر الله المسلمين على قلتهم ودارت على أهل البغى والعدوان الدائرة وقتل من كبرائهم الكثير . ومع ذلك فلم يخرج المسلمون للقتال إلا بعد أن أذن الله لهم بذلك فى أول آية نزلت من آيات القتال : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾(١) . فإذن الله للمسلمين والترخيص لهم فى الحرب كان معللا بأنهم يُقاتلون من قريش ، وأن القتال من جانب قريش كان ظلما وبغيا وعدوانا ولم يكن حربا مشروعة . وبقية الآية جعلت الكثيرين يذهبون إلى أن الإذن بالقتال جاء معللا بما وقع من قريش من إخراج المسلمين من ديارهم ، وهذه البقية تجرى كالآتى مع ما قبلها : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾(٢) . والرأى عندى وهو ما أجتهد فيه أن عجز الآية جاء وصفا وبيانا للذين ظلموا فقال إنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وتبقى علة القتال فى صدر الآية بأن غيرهم بدأهم القتال ظلما فلا بد لهم من رد هذا القتال دفاعا عن أنفسهم واتباعا لسنة الله منذ بدء الخليقة بأن يتعين عليهم دفع هذا الاعتداء بمثله : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾(٣) ، وزاد الله سبحانه فى الآيات بما يثبت به عزائم

---

(١) الحج ٣٩ (٢) الحج ٣٩ — ٤٠ (٣) الحج ٤٠

المعتدى عليهم حين أباح لهم دفع هذا العدوان بقوله : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(١) .

وقيل أيضا إن الآيات الآتية نزلت فى قتال قريش وهى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾(٢) . ولنقف عند هذا الجزء من الآية ونكرر قراءته حتى لا يخالجنا شك بأنها أمرت بأن يقاتل المسلمون من يقاتلهم . وعلى الرغم من وضوح المعنى فى الجملة الأولى إلا أنه أراد توكيده بعبارة أخرى فقال ولا تعتدوا أى لا تبدءوا بالعدوان ولا تجاوزوا فى قتالكم الحد الكافى لرد العدوان ، ويؤيد هذا المعنى حديث الرسول حيث نهى عن قتل من ألقى سلاحه وأدبر ممن بدأونا بالقتال بقوله : « ولا تقتلوا مدبرا » . وأراد الله أن يستوثق على عباده فى هذه الأوامر فأرجع الأمر إلى العقيدة فقال : ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾ . وتساءل بعض المسلمين عما إذا كان يحل لهم أن يطأوا مكة بعد أن نصرهم الله فى بدر مع أن فى مكة المسجد الحرام الذى لا يحل فيه قتال ولا بغى ولا ظلم وخصوصا وقد ورد فى القرآن : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾(٣) . ومن راودته هذه الفكرة كانت ردا على قدوم قريش إلى المدينة وحرب المسلمين فى عقر دارهم ، فرد الله على هذا التساؤل بأن ذلك مباح للمسلمين على شرط أن يبدأ المشركون بالعدوان .

ونجد ذلك فى قوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم

---

(١) الحج ٤٠ — ٤١ (٢) البقرة ١٩٠ . (٣) المائدة ٢ .

من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾(١) .

وهناك آية أخرى فى سورة النساء سجلت استغاثة المسلمين الذين لم يقدروا على الهجرة من مكة حيث بلغ بهم الأذى والعدوان أن كانوا يسألون الله إخراجهم من هذه القرية الظالم أهلها . وجاء تسجيل هذه الاستغاثة فى قوله تعالى تسجيلا لاعتداء قريش وتأبيدا لما نزلت به آية الإذن بالقتال من إباحة رد الاعتداء بمثله ، ويجرى قوله تعالى : ﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾(٢) .

وإلى هنا لم يأذن الله للمسلمين بمحاربة أحد لإجباره على الإيمان ، ولم يأذن بحرب أحد من الجزيرة العربية سوى قريش لبدئها بالعداء والأذى ومحاربة الدعوة بكل الوسائل ومنها الحصار فالحرب .

وراح الأستاذ على على منصور يقرر أن غزوة أحد عدوان جديد من قريش وأنها كانت من جانب المسلمين حربا دفاعية عن النفس . وكان الإمام الثورى يقول : القتال مع المشركين ليس بفرض إلا أن تكون البداية

---

(١) البقرة ١٩١ — ١٩٤ .   (٢) النساء ٧٥ .

منهم ، وحينئذ يجب قتالهم بدلالة قوله تعالى : ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾(١) .

وذكر الأستاذ على على منصور أن غزوة الخندق استمرار لحالة الحرب المعلنة من جانب قريش وتحالف معهم فيها بقية القبائل والأحزاب ، وذكر أن حروب النبى الثلاثة لليهود كانت مشروعة فى لغة القانون الدولى الحاضر لنقضهم العهد فئة بعد الأخرى واعتدائهم على المسلمين .

كانت غزوة الخندق دليلا قاطعا على تحالف المشركين فى الجزيرة العربية وأهل الكتاب من اليهود على القضاء على الإسلام والمسلمين ، وأعلنوها حربا شاملة وجاءوا بجموعهم إلى المدينة فردهم الله عنها وكفى الله المؤمنين القتال . وكانت آيات القتال قبل ذلك إذنا من الله بمحاربة قريش ردا لعدوانها ، أما بعد الخندق فتحتم أن يكون حرب المسلمين للمشركين فى الجزيرة كافة لقاء ما بدءوا به . وقد أثبتت الحوادث التى قبل غزوة الخندق وبعدها بأن منهم قوما مردوا على النفاق والفتنة ونقض العهود وتأليب القبائل على حرب المسلمين وهم اليهود ، ومن مشركى الجزيرة من بدءوا بالعدوان وهم قريش طعنوا فى الدين وبدءوا المسلمين أول مرة بالأذى والعدوان والإخراج من مكة بعد الحصار ، وبدءوا بأول حرب ضد المسلمين . وها هى ذى غطفان وقبائل المشركين الأخرى بدءوا المسلمين بحرب الأحزاب والتحالف مع قريش بعد أن كانوا تاركين الإسلام وشأنه وتاركين للنزاع الذى بينه وبين قريش فكانوا محايدين بلغة الفقه الدولى الحديث ، أما وقد تركوا حيادهم وحالفوا على قتال الإسلام مشركى

---

(١) البقرة ١٩١ .

الجزيرة فأذن الله بمحاربة المشركين كافة بقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[(١)] .

ويقول فى سورة التوبة أيضا مشيرا إلى اليهود الذين نكثوا عهدهم وطعنوا فى دين الإسلام ، ومشيرا إلى قريش الذين هموا بإخراج الرسول ، ومشيرا إلى أن جميع الأحزاب بدءوا بالحرب ضد المسلمين بقوله : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾[(٢)] .

وفى سورة التوبة أيضا آيتان يوهم ظاهر النص فيهما أنهما أمر من الله بقتال من لا يؤمن بالله واليوم الآخر من أهل الكتاب ، وأمر بقتال الكفار أينما وجدوا ، وقال بذلك كثير من الفقهاء أخذا بظاهر النص وأولاهما قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[(٣)] . ويرد الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت هذا الظن بما معناه أن الآية تأمر المسلمين باستمرار مقاتلة طائفة صفتها أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وهم الذين سبق أن نقضوا العهد وانقضوا على الدعوة . فعدم إيمانهم ليس سببا لقتال المسلمين إياهم بدلالة أن الآية فى بقيتها أمرت بقتالهم حتى يعطوا الجزية علامة على الخضوع واشتراكا فى دفع النفقات العامة وأعباء الدولة ، ولو

---

(١) التوبة ٣٦ (٢) التوبة ١٢ — ١٣ . (٣) التوبة ٢٩ .

كان الكفر سببا فى قتالهم لجعلت غاية القتال إسلامهم ولما سمح لنا بقبول الجزية منهم . فهم لا يقاتلون لمجرد أنهم كفار بل لأنهم نقضوا العهد وأعلنوا الحرب علينا مرة بعد الأخرى فوجب الاستمرار على قتالهم حتى يعطوا الجزية .

أما الآية الثانية التي أثارت كثيرا من اللبس فقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[1] فظاهر النص فيها يوهم بأن المسلمين أمروا بقتال جميع الكفار أينما كانوا سواء بدءوا بالعداء والحرب أم لا . ويرد فضيلة الأستاذ الأكبر هذا الزعم أيضا بما معناه أن الآية جاءت إرشادا للمسلمين بنوع من نظام الحرب وهو ما يسمى اليوم بتكتيك الحرب ، وذلك أنهم إذا أرادوا حرب من بدءوهم بالحرب والعدوان من المشركين الذين أذنوا بقتالهم كافة ، فيجب أن يبدءوا بالحرب الأقرب حتى يخلوا طريقهم ويأمنوا مفاجأة العدو من الخلف إن هم بدءوا بحرب الأبعد ، وهذه هى الطريقة المثلى فى الحروب العصرية أيضا وهي ما تسمى بعدم ترك جيوب عدائية خلف الجيش الزاحف . وقد علق الأستاذ الأكبر على ما ذهب إليه الفقهاء من تفسير يخالف ذلك بقوله : « قد وقف بعض من يقصد الكيد للإسلام عند ظاهر الآية : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾، وزعم أن الدين الإسلامى يأمر بقتال الكفار عامة سواء أحصل منهم اعتداء أم لم يحصل حتى يؤمنوا ويدينوا بالإسلام ، وقالوا : وقد استقر الحكم فى الشريعة على ذلك . والواقع أن المراد من كلمة الكفار فى الآية ونظائرها المشركون

---

(١) التوبة ١٣٢ .

المحاربون الذين قاتلوا الإسلام والمسلمين واعتدوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ووقفوا فتنة للناس فى دينهم وهم الذين تحدثت عن أخلاقهم الآيات الأولى من سورة التوبة .

وكذلك المراد من كلمة « الناس » الواردة بحديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم » . فإن الذى يتوقف على ما ذكر فى الحديث هم مشركو العرب خاصة ، أما غيرهم فيكفى فى انتهاء قتالهم أن يعطوا الجزية وبهذا تتفق الآيات مع بعضها ويجمع بينها وبين الأحاديث ويسقط مثل ذلك الزعم الباطل » .

وانتهى الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت إلى إيجاز بحثه فى رسالته إلى الأمور الآتية :

١ — أنه لا توجد آية واحدة فى القرآن تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام فرض لحمل الناس على اعتناقه .

٢ — أن سبب القتال ينحصر فى رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين .

٣ — أن الإسلام حينما شرع القتال نأى به عن الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء وابتغاه طريقا إلى الإسلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة .

٤ — وأن الجزية لم تكن عوضا ماليا عن دم أو عقيدة ، وإنما هى دلالة الخضوع وكف الأذى والمشاركة فى حمل أعباء الدولة .

وأضاف الأستاذ الأكبر أن ليس لأحد بعد هذا أن يفترى على الإسلام أو يسىء فهم آيات القرآن فيزعم ما يزعم الجاهلون من أن الإسلام قرر

القتال طريقا لدعوته ووسيلة للإيمان به ، وانتشرت تلك الدعوة على أساس من الضغط والجبر والإكراه .

ويقول الإمام تقى الدين بن تيمية : « إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجبا على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين لإعانتهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾[1] . وكما أمر النبى — ﷺ — بنصر المسلم وسواء أكان الرجل من المرتزقة للقتال أو لم يكن ، وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه وماله مع القلة والكثرة والمشى والركوب ، كما كان المسلمون لما قصدهم العدو عام الخندق ، ولم يأذن الله فى تركه أحدا أذن فى ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو الذى قسمهم فيه إلى قاعد وخارج ، بل ذم الذين يستأذنون النبى — ﷺ : ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾[2] » .

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه « حقوق الإنسان فى الإسلام » بعد أن تحدث عن الحرية السياسية فى الإسلام والحرية الفكرية والحرية العلمية : « وعلى هذه الأسس السمحة النبيلة سار الإسلام حيال النوع الثالث من أنواع الحرية وهى الحرية الدينية وحرية العقائد ، فلم يلبث الإسلام أن استقر وتبينت للناس تعاليمه حتى قرر بهذا الصدد ثلاثة مبادئ هى أرقى ما وصل إليه التشريع الحديث بصدد حرية الأديان والمعتقدات :

أحدها أنه لا يُرغَم أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام ، وفى هذا يقول

---

(١) الأنفال ٧٢ .　　(٢) الأحزاب ١٣ .

الله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[(١)] . وعلى هذا المبدأ سار المسلمون فى حروبهم مع أهل الأديان الأخرى فكانوا يبيحون لأهل البلد الذى يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وكانوا مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء ويحترمون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم ، وفى هذا يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى كتابه لأهل بيت المقدس عقب فتحه له : « هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » .

والمبدأ الثانى الذى سنه الإسلام بهذا الصدد هو حرية المناقشات الدينية ، ولذلك ينصح الله تعالى المسلمين أن يلتزموا جادة العقل والمنطق فى مناقشاتهم مع أهل الأديان الأخرى وأن يكون عمادهم الإقناع وقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، وفى هذا يقول الله تعالى مخاطبا رسوله عليه السلام : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[(٢)] . ويقول مخاطبا أهل الأديان الأخرى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[(٣)] . ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾[(٤)]. ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾[(٥)] .

---

(١) البقرة ٢٥٦ .
(٢) النحل ١٢٥ .
(٣) البقرة ١١١ .
(٤) الأنعام ١٤٨ .
(٥) الأحقاف ٤ .

وكان الخلفاء من بنى العباس وغيرهم يعقدون المجالس للمناقشات الدينية فيجتمع عندهم علماء كثيرون ينتمون إلى مختلف الطوائف وشتى الأديان والفرق ، فيتناقشون فى شئون العقائد ويوازنون بين الأديان كل يدلى بحجته ويبين رأيه فى حرية وأمن واطمئنان . و لم يكن الخلفاء يحتملون هذه المناقشات فحسب بل كانوا يشجعون عليها بمختلف وسائل التشجيع ويشتركون فيها بأنفسهم .

والمبدأ الثالث الذى وضعه الإسلام بهذا الصدد هو أن الإيمان الصحيح هو ما كان منبعثا عن يقين واقتناع لا عن تقليد واتباع ، وبذلك حطم الإسلام القواعد التى قام عليها التدين فى كثير من الأمم من قبله وهى قواعد التقليد والاتباع وإهمال النظر والتفكير الحر ، وأهاب بالناس أن يجعلوا عمادهم فى عقائدهم ونشر دينهم الدليل العقلى والمنطق السليم ، ودعا إلى النظر والتفكير وحث على رفض ما لا يؤيده علم ولا يعززه دليل ، ومن ثم ذهب كثير من علماء التوحيد إلى أن إيمان المقلد غير صحيح ، وأخذ الله تعالى على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم وإغفالهم جانب النظر والتفكير ، قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾(١) . ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أوَلو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾(٢) .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده : « إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . وإن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه

---

(١) البقرة ١٧٠ (٢) المائدة ١٠٤ .

حتى اقتنع به ، فمن ربى على التسليم بغير عقل وعلى العمل ـــ ولو صالحا ـــ بغير فقه فهو غير مؤمن ، فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان بل القصد أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته » .

ويقول ابن تيمية : فى « رسالة القتال » فى تفسير الآية : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾(١) « أنه نص محكم وجمهور السلف على ذلك ، وعلى أننا لا نكره أحدا على الإسلام وإنما نقاتل من بدأنا بالحرب ، فإن أسلم عصم دمه وماله وإذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله ولا نكره أحدا على الإسلام » .

وأضاف ابن تيمية : « إنه من الثابت المقرر أن النبى ـــ ﷺ ـــ قد أسر من المشركين فمنهم من فداه ومنهم من أطلق سراحه ولم يُكرَه أحد على الإسلام ، ولو كان القتال لأجل الكفر ما كان لهؤلاء إلا السيف ، والقرآن خيَّر المسلمين حين يثخنون فى الأعداء بين المن على الأسرى أو الفداء » .

ويقول الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : « اتفق جمهور من العلماء على أن الباعث على القتال هو رد الاعتداء ، وقرروا أن مناط القتال الاعتداء فلا يقتل شخص لكفره إنما يقتل لاعتدائه على المسلمين أو على الإسلام . ورغم ذلك قرر بعض الشافعية أن سبب القتال هو الكفر رغم النصوص القطعية التى لا تقبل التأويل » .

وكان ـــ ﷺ ـــ يوصى أمراء الجند بتقوى الله وبمن تحتهم من الجند ثم يقول :

---

(١) البقرة ٢٥٦ .

ـــ اغزوا باسم الله وفى سبيل الله ، اغزوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا تغدروا ولا تمثلوا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوا فاقبل منهم ، وإن أبوا وأرادوا البقاء على دينهم فاسألهم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » .

ومصدر هذا القول أحاديث كثيرة منها ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس : « اخرجوا باسم الله تقاتلون فى سبيل الله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » . ومما أخرجه أبو داود عن أنس بن مالك قول الرسول : « انطلقوا باسم الله وبالله لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا وقسموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

ويقول الأستاذ على على منصور : « يجب أن نفهم هذه الوصايا وتخيير الأعداء بين خصال ثلاث إنما يكون فى حرب مشروعة لنا بعد أن يبدءونا بالعداء والقتال ، والمقصود بالتخيير إعلانهم أولا : بأننا سنرد اعتداءهم وقتالهم بحرب حتى لا نأخذهم على غرة . وثانيا : أن الإسلام لا يود إراقة الدماء ولو لمعتد ، فإن كف عن عداوتنا ودخل فى ديننا فهو منا وإن كف عن العدوان ولم يرد إلا البقاء على دينه فله ذلك منا . ولكى نأمن من شره يجب عليه أن يسرح جيشه ويلقى سلاحه وتتكفل الدولة الإسلامية بالدفاع عنه وفى مقابل ذلك يدفع نفقات الدفاع وهى الجزية . وقد أول البعض هذه الأحاديث عن النبى بأنها أمر بمحاربة الكفار ولو لم يبدءوا بعداء وهذا خطأ واضح » .

لم تكن الحرب أصل الصلة بين المسلمين وغيرهم من الدول ، وقد

سلكت الدعوة الإسلامية طريقها بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان السلم هو أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾[١] . فالأمر بالدخول فى السلم واجب على المسلمين جميعا وبغيره لا يتحقق إيمانهم بالله ، ومن أخل بهذا السلم العالمى فإنه يكون قد عصى الله واتبع خطوات الشيطان . ويقول القرآن أيضا : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾[٢] . والمعنى أنه لو بدأنا غيرنا بالاعتداء ، فرددنا الاعتداء بمثله وحاربناه ففى أى وقت يجنح العدو إلى السلم نجنح معه ، وقال تعالى أيضا : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ﴾[٣] . فمن سالمنا ولو كان غير مؤمن بديننا سالمناه فلا نحاربه ابتغاء المغانم وعرض الحياة الدنيا . ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾[٤] .

وكان عليه الصلاة والسلام يتأهب للجهاد على الدوام فيشجع على الرماية ويسر حينما يرى شباب الإسلام يتعلمها ، روى البخارى عن سلمة ابن الأكوع رضى الله عنه قال :

ـــ مر النبى ـــ ﷺ ـــ على نفر ينتصلون فقال : ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا .

وقال ـــ ﷺ :

---

(١) البقرة ٢٠٨ (٢) الأنفال ٦٢ .

(٣) النساء ٩٤ (٤) النساء ٩٠ .

— من علّم الرمى ثم تركه فليس منا .

و لم ينس — صلوات الله عليه وسلامه — صناعة الأسهم وأجر صانعها فقال :

— إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى صنعه الخير ، والرامى به ، ومنبله .

بيد أن رسول الله — ﷺ — لم يكن ليبدأ بالعدوان فقد أوحى إليه أن الله لا يحب المعتدين ، فكان يقول لمن يوجه لقتال من اعتدوا عليهم :

— لا تقاتلوهم حتى تدعوهم للإيمان ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم ويقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم هذا القتيل وقولوا لهم هل لكم خير من ذلك بأن تقولوا لا إله إلا الله ، فلأن يهدى الله على يديك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت .

كان الإسلام يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، وما شهر سيفا ولا صوب رمحا لقهر الناس على الدخول فى دين الله ، وقد علمهم ربهم أنه لا إكراه فى الدين .

ولقد جاء فى رسالة لسالازار الذى كان أسقفا لمانيلا عاصمة الفلبين وضعها عام ١٥٩٠ منددا بالقوة التى يلجأ إليها المبشرون الإسبان والبرتغال فيقول :

— إن الوعظ والبندقية فى يد الواعظ وسيلة سيئة للتبشير ، والوسيلة المثلى ما يتبعه الوعاظ المسلمون فقد جاءوا بغير سلاح مزودين برسالة السلام والإيمان والوداعة والقدوة الحسنة فاستقبلت الشعوب دين محمد أحسن استقبال .

ويقول جيبون :

— إن السلام الذى نشر لواءه بين المسلمين والمسيحيين أكثر من أربعة

قرون كان مؤسسا على تسامح الإسلام وتعاليمه نحو الخير والسلام .

وقد يقول قائل : إن القتال فى أيام الرسول صلوات الله وسلامه عليه — كان محرما حتى يقوم سببه وهو الاعتداء ، فما بال الحروب الطاحنة التى نشبت بين المسلمين وبين الروم والفرس ؟

كانت عواطف المسلمين الأوائل مع الروم لأنهم فى الأصل أهل دين سماوى هو « الإنجيل » ، ولذلك حزنوا لما غلبهم الفرس وقال سادات قريش للمسلمين :

— أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس على دين واحد ، وهذا دليل على أن ديننا هو الحق وأننا سننتصر عليكم .

وقد أنزل الله تعالى . ﴿ ألم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾[1] .

وقد راهن أبو بكر عتبة بن ربيعة على ذلك ، وقد انتصر الروم على الفرس وجاءت أنباء هذا الانتصار بعد أن انتصر المسلمون على كفار قريش فى بدر ، وكان ذلك سببا فى غضب كسرى لما أرسل إليه النبى — ﷺ — رسولا يدعوه إلى الإسلام فإنه مزق الكتاب و لم يعترف بنبى الإسلام عليه السلام رئيسا لدولة الإسلام ، بل اعتبره ثائرا على المجوسية والوثنية وأمر بأن يسير إليه جيش على رأسه باذان حاكم اليمن من قبل فارس ليأتيه برأسه ، فكانت الفرس هى البادئة بإعلان الحرب على نبى الإسلام والمسلمين .

---

(١) الروم ١ — ٥ .

وقتل شرحبيل الغسانى الحارث بن عمير الأزدى الذى يحمل كتاب الله إلى أمير بصرى ، وليس هذا فحسب ، بل إن نصارى الشام ممن كانوا على الولاء للرومان قتلوا بعض من أسلم من القبائل المجاورة لها . ويقول الإمام ابن تيمية فى رسالة القتال : « وأما النصارى فلم يقاتل النبى أحدا منهم حتى أرسل رسله إلى قيصر والمقوقس والنجاشى وملوك العرب بالشرق وبالشام فدخل فى الإسلام من النصارى وغيرهم من دخل ، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من قد أسلم ، فالنصارى هم الذين حاربوا المسلمين أولا وقتلوا من أسلم منهم بغيا وظلما ، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل محمد — ﷺ — سرية أمر عليها زيد بن حارثة ثم جعفر ابن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة وهو أول قتال قاتله المسلمون بمؤتة من أرض الشام ، واجتمع على أصحابه خلق كثير من النصارى قيل إنهم مائة ألف ، واستشهد أمراء الجند رضى الله عنهم واحدا بعد الآخر فأخذ الراية خالد بن الوليد » .

وقال الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت فى هذا الصدد فى رسالة السلم والحرب ص ٦٦ : « بعد أن قتل شرحبيل رسول رسول الله عند مؤتة فى الشام توقع متنصرة العرب أن المسلمين لا بد آخذون بهذا الثأر ، فحشدوا من الروم ومن نصارى العرب فى الشام حشدا عظيما يستأصلون به شأفة محمد وصحبه . فلما علم الرسول بذلك جهز جيشا لحماية الدعوة ولتأمين المسلمين هناك على أنفسهم . وما كاد يصل جيش المسلمين إلى المكان الذى قتل فيه رسوله وحامل كتابه حتى وجد حشد الروم فاشتبك الجيشان فى قتال ، ولكثرة عدد الروم ونصارى العرب كاد يحاط بالمسلمين لولا مكيدة حربية ألهم الله بها خالد بن الوليد ، ما نجا من

المسلمين أحد . ثم تتابعت الأخبار بأن الرومان جمعوا جموعا عظيمة واعتزموا غزو المسلمين ، فتجهز النبى وخرج إليهم على حدود الجزيرة الشمالية أى على حدود دولته . وما إن وصل إلى تبوك حتى تراجع جيش الروم وعدل عن عزمه ، فأقام الرسول بتبوك أياما وصالح بعض الأمراء ثم عاد إلى المدينة .

وأثناء مرضه علم بتجهزهم من جديد ، فجهز جيشا تحت إمرة أسامة ابن زيد . ولما قبض الرسول عليه الصلاة والسلام أمر الخليفة الأول أبو بكر بتسيير هذا الجيش وتوالت بعد ذلك الحروب بين المسلمين والروم .

كان الفرس البادئين بالعدوان وكان الروم البادئين بالعدوان ، فكانت الحروب بين المسلمين وبين الفرس والروم حروبا مشروعة للدفاع عن كيان الدولة الإسلامية ، ثم سارت بعد ذلك لحماية حق مشروع للدولة هو تأمين الدعوة وإخماد الفتنة ورد الاعتداء » .

وماذا بعد صدر الإسلام ؟ يقول الأستاذ أبو زهرة : « إن الإسلام بعد أن ظهر وانتشر وقاتل المؤمنون الأولون من اعتدى عليهم واستخلصوا الشعوب من الملوك ولأمراء المستبدين بما نادى من حرية ومساواة وكفالة اجتماعية ، أخذ هؤلاء ينظرون إلى هذا الدين نظرة عداوة لأنه يحترم الفرد ويحرر الشعوب ويحمى الحريات ويقرر المساواة ، وتلك مبادئ لا تتفق مع الملكية المطلقة التى كانت سائدة فى ذلك الزمان ، فنزع الملوك جميعا عن قوس واحدة وأخذوا يقاتلون المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا بكل الوسائل . فكان لا بد أن يقاتلهم المسلمون بما قرره القرآن : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾[1] ، وأن ذلك لا

---

(١) البقرة ١٩١ .

يخالف الأصل المقرر الثابت وهو أن القتال فى الإسلام محرم حتى يقوم سببه وهو الاعتداء » .

وكانت وصايا الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين أبر وأرحم من كل ما يحتوى عليه القانون الدولى العام من نصوص بله آمال الفقهاء والحالمين ، فقد كان عليه السلام يوصى أمراء الجند بعدم الغدر والتمثيل وقتل الولدان وأصحاب الصوامع ، وقد سار خلفاؤه الراشدون على سنته فأبو بكر يوصى أسامة بن زيد فيقول : « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تقطعوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون على قوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وأوصى يزيد بن أبى سفيان حين وجهه إلى الشام فزاد على وصيته السابقة قوله : « ولا تقاتل مجروحا فإن بعضه ليس منه . أقلل من الكلام فإن لك ما وعى عنك ، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله فى سرائرهم ، ولا تجسس عسكرك فتفضحه ، ولا تهمله فتفسده ، وأستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه » .

وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد اللواء لأمير الجند : « بسم الله . على عون الله امضوا بتأييد الله ، ولكم النصر بلزوم الحرب والصبر . قاتلوا ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الفرسان وعند حمة النبضات وفى شن الغارات . نزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالرباح فى البيع الذى بايعتم به

وذلك هو الفوز العظيم .

أمر رسول الله — ﷺ — بأن لا نقاتل غير المقاتل ، فنهى عن قتل النساء والشيوخ والذرية . وكتب إلى خالد بن الوليد : « إنه لا يصح قتل العسفاء (العمال الذين يزرعون الأرض ويرعون المواشى) » . وقال عليه السلام : « ليس منا من انتهب أو سلب أو أشار بالسلب » . وإن الإسراف فى القتل منهى عنه لأنه مجاوز للحد الكافى لدفع العدوان . وهذا عمر بن الخطاب يبلغه عدد القتلى الذين قتلهم خالد بن الوليد من جيوش الأعداء فيهوله الأمر ويعزله من قيادة الجيش ويولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، ويقول عن عزل خالد : « إن فى سيف خالد لرهقا » . ويستحسن عمر بن الخطاب طريقة اللين والرفق التى يتبعها عمرو بن العاص فى حربه مع أهل مصر حيث وزع جيشه سرايا على القرى يعقدون الموادعات ولا يقاتلون ، فيقول عمر بن الخطاب فى ذلك : « تعجبنى حرب ابن العاص ، إنها حرب رفيقة » .

وإن خالد بن الوليد الذى كان فى سيفه رهق كان إذا عاهد أعداءه بعد هزيمتهم لا يحيد عن روح الإسلام بل يعاهدهم فى حرية وبلا تهديد ، يرحم ضعيفهم ويضع الجزية عن فقيرهم بل يفرض له نفقة من بيت المال . ولننظر كيف عاهد أهل الحيرة بعد أن فتحها : « هذا ما عاهد عليه خالد ابن الوليد نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به وعاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل كل سنة جزاء على أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيا تاركا لها ، وعلى المنعة وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم . وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات .. إن كان غنيا افتقر

وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام » .

وهذا ما صالح عليه عمر بن الخطاب أهل بيت المقدس : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيوتهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من جزية ، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله ، وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » .

وكتب المستشرق الإنجليزى « ستيفن رانسمان » عن العوامل التى مهدت للفتوح الإسلامية : « نستطيع أن نقول إن السهولة التى لاقاها المسلمون فى استيلائهم على هذه المناطق التى استولوا عليها ترجع إلى ذلك الضعف الذى انتاب الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية وإلى عدالة المسلمين فى حكمهم ، وأكبر دليل على ذلك أن البلاد التى فتحوها لم

يحاول أهلها زحزحتهم عنها وما ذلك إلا لأنهم وجدوا حكمهم أفضل من حكم من سبقهم . فعندما سمع المصريون بما يفعله المسلمون ببلاد الشام أبدوا كامل استعدادهم لقبول ما يجرى هناك وتمنوا أن يعجل المسلمون بمهاجمة مصر ليخلصوهم من الظلم الذى يرزحون تحته » .

وقد ذكر الكونت « هنرى دى كاسترو » فى كتابه « الإسلام خواطر وسوانح » : « إن محاسن المسلمين للمسيحيين زادت فى بلاد الأندلس حتى صار سكانها فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها منذ أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم « القوط الغربيون » .

ويقول دوزى : « إن هذا الفتح لم يكن للأندلس مفر منه وما حصل من الاضطرابات والهرج بعده لم يلبث أن زال باستمرار الحكومة الإسلامية فى تلك البلاد ، وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء ، وكثيرون منهم تولوا قيادة الجيوش .

وتولد عن هذه السياسة الرحيمة أن انحاز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير . وكم من أندلسى بقى على دينه ولكنه أعجبته طلاوة التمدن العربى فتعلم اللغة العربية وآدابها ... وأصبح القساوسة يلومونهم على ترك شعائر الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين » .

وقال جوستاف لوبون فى كتابه : « حضارة العرب » إن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من المسلمين . وقال : « كان أول ما بدأ به ريتشارد قلب الأسد الإنجليزى أنه قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب مما أثار صلاح الدين الأيوبى النبيل

الذى رحم نصارى القدس فلم يمسهم بأذى . والذى أمد فيليب قلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد أثناء مرضه . إن الهوة سحيقة بين تفكير الرجل المقدس وعواطفه — يقصد صلاح الدين — وبين تفكير الرجل المتوحش ونزواته » .

ويقول يورجا المؤرخ الأوروبى فى كتابه : « تاريخ الحروب الصليبية : « ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس أسوأ طالع ، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها ، وقد أسرفوا فى القسوة فكانوا يبقرون البطون ويبحثون عن الدنانير فى الأمعاء . أما صلاح الدين عندما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين ووفى لهم بجميع عهوده ، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم حتى إن الملك العادل شقيق السلطان أطلق ألف رقيق من الأسرى ومنّ على جميع الأرمن وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة ، وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن » .

ويشيد يورجا بخصال الملك الكامل حينما حاصر الصليبيين فى واقعة دمياط ، فقد نقل على لسان أحد الصليبيين الذين شهدوا المعركة شهادة صدق حيث قال : « هؤلاء الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم ونساءهم بشتى الطرق وسلبناهم أموالهم وأخرجناهم من منازلهم عراة تداركونا وسدوا خلتنا وأطعمونا بعد أن أهلكنا الجوع ، وما زالوا يحسنون إلينا حتى غمرونا ببرهم وإحسانهم لما كنا أسرى فى ديارهم وفى قبضة أيديهم ، فلو ضاع لأحدنا شيء لما أبطأ أن رد إلى صاحبه » .

وقال الأستاذ على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » عند الحديث عن أثر الإسلام فى القانون الدولى العام

الأوربى : عقيدة التوحيد وليدة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾[١] . ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾[٢] . وبارئ الكون كان ينزل من الأحكام والشرائع على لسان الرسل بقدر وبحسب حاجة من أرسل إليهم هؤلاء الرسل من طوائف البشرية . وكل الأديان التى سبقت الإسلام لم تكن عامة ، بل كانت مخصصة بالمكان وبالقوم الذين نزلت عليهم كقوم هود ولوط ويونس الذى أرسل إلى مائة ألف أو يزيدون ، وشاركت كلها فى الدعوة إلى الوحدانية كأساس لكل عبادة ، ثم إلى قواعد أخلاقية وإصلاحية لمعالجة عيوب القوم الذين خصتهم بالخطاب ، إلى أن كان القرن السابع الميلادى حيث بلغت البشرية مبلغا من التقدم والرقى وحسن الإدراك أهلها لتلقى خاتم الرسالات السماوية ، فكانت رسالة محمد بن عبد الله جامعة لخيرى الدين والدنيا موجهة إلى جميع العوالم . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٣] . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٤] .

والمسيحية — على ما ورد فى كتابها المنزل وهو الإنجيل — لم تتضمن تشريع أمور الدنيا ولا تنظيم المعاملات والعقود والعهود بين الأفراد والدول ولا تعداد ما فى الكون من آيات طبيعية وعلمية ، وهى — وإن كانت قد وحدت بين دول أوربا فى العصور الوسطى وقربت بينها

---

(١) البقرة ١٣٨ .
(٢) الروم ٣٠ .
(٣) الأنبياء ١٠٧ .
(٤) سبأ ٣٨ .

وحسنت علاقاتها مما دعا إلى التعاطف ووضع قواعد لصلات دولية كانت الأساس للقانون الدولى الذى اصطلح عليه بين تلك الدول — إلا أنها انتهت بطغيان سلطان الكنيسة على سيادة الدول والإمارات ، والمفروض أن يكون روحيا فحسب ، الأمر الذى اضطر شعوب هذه الدول والإمارات إلى القول بفصل أمور الدنيا عن أمور الدين .

أما فى الإسلام فالأمر على عكس ذلك ، فهو نظام متكامل لا يمكن فصل قواعده بعضها عن بعض ، فهو دين ودنيا ولا يصح فى شرعة الإيمان الأخذ ببعض الكتاب « القرآن » دون البعض . وفيما نحن بصدده من دراسة قواعد القانون الدولى العام أتى الإسلام بنظام كامل لما يجب أن تكون عليه علاقات الدول بعضها ببعض فى حالتى السلم والحرب ، ولكن القرآن على نهجه فيما يختص بأمور الدنيا يكتفى بذكر الأصول العامة ثم يدع التفاصيل لاجتهاد العقل البشرى احتراما لهذه المنحة الإلهية ومسايرة لظروف الزمان والمكان وما تقتضيه من خلاف فى الفروع .

ولقد أفاض فقهاء الشريعة الإسلامية فى كتب السير والجهاد وكتب التفسير فيما أتى به الإسلام من قواعد تحكم الصلات لا بين الدول الإسلامية فحسب بل بين جميع الدول فى حالتى السلم والحرب . من ذلك أن الإسلام مشتق من السلام وهو الأصل فى صلات الدول والشعوب ، والحرب وإن كانت ظاهرة طبيعية إلا أنه لا يلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى ، وهناك وجب إعلان الحرب وعدم أخذ الناس على غرة ، فإذا قامت الحرب فلا يصح قتل الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء ولا المحارب إذا انهزم وأدبر ولا قتل الأسرى ، بل أجاز الإسلام الفداء وأجاز المن ويدخل تحتها جواز تبادل الأسرى ، وحرم الإسلام المثلة « التمثيل بجثث القتلى » .

ولم تكن الحرب فى الإسلام لشهوة الفتح والتوسع . اقرأ قوله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ﴾(١) .

والرأى الغالب أن القرآن لم يسمح للمسلمين بمقاتلة أعدائهم إلا بعد أن يبدءوهم بالعدوان وبعد أن تكرر منهم هذا العدوان ، فالإسلام لم يبح الحرب الهجومية وإنما أباح الحرب الدفاعية . وأول آيات القتال نزولا من الله على رسوله : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾(٢) .

﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾(٣) . ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾(٤) .

وليس بصحيح ما اتهم به الإسلام من أنه قام بحد السيف ، وآيات الكتاب فى ذلك كثيرة : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾(٥) . ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾(٦) . ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾(٧) . ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾(٨) . ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾(٩) . ولكن أمر الرسول بإبلاغ الدعوة

---

(١) القصص ٨٣ .　(٢) الحج ٣٩ — ٤٠　(٣) البقرة ١٩٠ .
(٤) البقرة ١٩٤　(٥) البقرة ٢٥٦　(٦) النحل ١٢٥ .
(٧) يونس ٩٩　(٨) التكوير ٢٧ — ٢٨　(٩) الغاشية ٢١ — ٢٢ .

بالحسنى إلى جميع الأمم وفى جميع بقاع الأرض : ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر ﴾[١] . ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾[٢] .

وأمر المسلمين بعد رسولهم بإبلاغ الدعوة ونشرها بما للناس جميعا من حق حرية إبداء الرأى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[٣] .

فمن قاوم الدعوة — جماعة كان أم دولة — فقد أخل بحق من أقدس الحقوق وبدأ بالاعتداء ، فوجبت محاربته حتى يكف عن عدوانه عليها ومحاربته لها .

فإن كانت للمسلمين الغلبة فللدولة المغلوبة أحد أمرين : إما أن تدخل فى الإسلام فيكون لها ما لنا وعليها ما علينا من حقوق وواجبات فى مساواة تامة ، وإما أن تؤثر البقاء على دينها وتترك لدعاتنا حرية الدعوة بالحسنى ، فلها ذلك على أن تدفع الجزية مقابل ما تقوم به الدولة الإسلامية من الذود ، ومشاطرة منها فى المصروفات العامة للدولة . وهؤلاء هم أهل الذمة من الشعوب والأفراد متى كانوا غير وثنيين ، أى متى كانوا أهل دين سماوى نزل بكتاب معين على رسول معين ولو حرفوه ، أو متى كانت لهم شبهة كتاب ومثل هؤلاء المجوس فرغم أنهم يعبدون الشمس فقد ورد فى حديث على بن أبى طالب أنه كان لهم كتاب ، وروى عن الرسول ﷺ — قوله : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أن قاعدة تأمين المبعوثين على أنفسهم حتى يعودوا سالمين إلى من بعثهم من أمرائهم أو دولهم واحترام حرية السفراء

---

(١) المدثر ١ — ٣ (٢) المائدة ٦٧ (٣) آل عمران ١٠٤ .

سبق الإسلام بها القانون الدولى الأوروبى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾[١] . ومفاد الآية أن من خرج من بلاده من المشركين وجاء رسول الله بالرغم من قيام الحرب والعداوة فلا تقتله وأسمعه يا محمد كلام الله ، أى دعوة الإيمان ، فإن آمن فيها وإلا فله عليك وعلى المسلمين أن ترده إلى وطنه سالما حيث يأمن على نفسه ، وهناك أيضا تكون له حرية الاختيار للدين الذى يتبعه . وقد اتبع صلاح الدين الأيوبى ذلك فى حربه مع الصليبيين « الفرنجة » إذ بالرغم من انتصاره كانوا إذا أرسلوا من يفاوضه فى شروط الصلح أمنهم وردهم سالمين على عكس ما كان يفعل إذ ذاك أمراء وملوك الصليبيين مع رسل المسلمين ومبعوثيهم إذ كانوا يقتلونهم ويقتلون أسرى المسلمين » .

صور بعض فقهاء القانون الدولى وكتاب التاريخ فى أوروبا الإسلام فى صورة الدين الذى يقوم على القهر والغلبة وإرادة أن يفرض نفسه على الأجناس جميعا والأديان جميعا قوة واقتدارا ، وقالوا إن الإسلام قد أعلن الحرب على كل الأجناس والملل ، وإنه من المفهوم أن يفترى الأوروبيون على الإسلام أما أن ينساق كاتب عربى مثل الدكتور نجيب أرمنازى وراء مزاعم المستشرقين فهذا غير مفهوم .

يقول الأستاذ الدكتور نجيب أرمنازى فى كتابه « الشرع الدولى فى الإسلام » : « ذهب كثير من الفقهاء الذين عاشوا أيام الفتح الإسلامى إلى أن حالة الحرب هى القاعدة عند المسلمين ، وأن السلم ليست إلا هدنة

---

(١) التوبة ٦ .

يستعد بها لاستئناف القتال » .

ويقرر الأستاذ الدكتور : « وإذا وجد الإمام الحريص على سلامة المسلمين ودفع الأخطار التى تهددهم ضرورة المعاقدة على سلم دائم لم يجز له عند الفقهاء أن يفعل ، لأنه إلغاء لفريضة الجهاد ، وكل موادعة يعاقد عليها يستطيع نقضها إذا راعى قواعد النبذ » .

ويذهب الدكتور إلى أن التقسيم الإسلامى من حيث إن العالم دار سلام ودار حرب شبيه بالنظام الشيوعى ، إذ تعتبر روسيا الوطن العام لكل شيوعى فهى دار سلام للشيوعيين ، وبقية بلاد العالم حيث الرأسمالية تعتبر دار حرب يجب اتخاذ جميع الوسائل للانقضاض عليها والاستيلاء على مقاليد الحكم فيها .

وفى رأيى أن الدكتور قد جانبه التوفيق حتى إذا ما اقتفى آثار فقهاء المسلمين الذين عاشوا الحروب الطاحنة التى دارت بين المسلمين والدول الأخرى فى القرنين الثانى والثالث الهجرى ، فآيات القرآن الكريم تحض على السلم وتجعل السلم هو القاعدة ، والحرب لا تشن إلا على المعتدين دفاعا عن النفس وتأمين الحريات العامة للمسلمين .

إن نفرا قليلا من كتاب الغرب عرف للإسلام حقه وفهم ما فيه من مبادىء قانونية دولية كانت مصدر معظم ما فى القانون الدولى الحديث من قواعد ، فالبارون « ميشيل دى كوب » أستاذ القانون الدولى بمعهد الدراسات الدولية بلاهاى بهولندا ذكر الكثير مما سبق الإسلام به القانون الدولى وعلى الأخص فى نظم الحرب ، وأورد وصية أبى بكر لجنوده الخارجين إلى سورية وذلك فى الجزء الأول من مجموعة دراسات سنة ١٩٢٦ لأكاديمية القانون الدولى ، كما أورد الأوامر التى أصدرها فى قرطبة

الخليفة الحاكم بن عبد الرحمن فى هذا الشأن سنة ٩٦٣ م أى قبل أن تعمل الكنيسة البابوية للسلام . ومنهم أيضا المؤرخ « سيديو » فى كتاب تاريخ العرب حيث عدد الكثير من فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، وعلى الأخص فى القانون الدولى حيث عدد ما ذكره البارون « دى كوب » ونقل قوله : « وهذه هى مختلف القواعد الشرعية الإسلامية التى عمل بها لتخفيف وطأة الحروب من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر للميلاد ، فهى إذن أسبق بأمد طويل على الأفكار والمبادئ القانونية المماثلة والتى بدأت تشق طريقها خلال الهمجية التى استولت على الحياة الدولية الأوروبية خلال القرن الثالث عشر ، مما يدل على أثر القواعد الإسلامية فى القانون الدولى الأوروبى » .

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون ﴾[1] . ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾[2] ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾[3] .

القاهرة فى ١٧ / ٤ / ١٩٦٩

---

(١) النحل ٩١ (٢) الأسراء ٣٤ (٣) التوبة ٤ .

المراجـــع

القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
السيرة النبوية لابن هشام
نهاية الأرب للنويرى
بلوغ الأرب للألوسى
تاريخ ابن خلدون
تاريخ الأمم والملوك للطبرى
حقوق الإنسان فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى
السيرة الحلبية لعلى برهان الدين الحلبى
الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام للمستشار على على منصور
السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية لابن تيمية
المستشرقون والإسلام المهندس زكريا هاشم زكريا
إحياء علوم الدين للغزالى
الدين القيم لأبى الأعلى المودودى
نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار للشيخ الشبلنجى
أسباب النزول للواحدى
الرسول . حياة محمد ر. ف بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار

عمدة التفسير لابن كثير

Islam the Religion of Humanity By M. Aly.

Muslim Institutions By Maurice Gaudefroy-Demombynes.

الخراج لأبى يوسف

الشرع الدولى فى الإسلام — دمشق ١٩٣٠ م
للدكتور نجيب الأرمنازى

محمد رسول الله ﷺ

والذين معه

فى عشرين جزءا

١	ــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	ــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ــ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧	ــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	ــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ــ عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١	ــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ــ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦	ــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ــ غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨	ــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

المــؤلف

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

		الطبعة الأولى
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى		فبراير سنة ١٩٧٥
مذكرات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٥

القصص الديني

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ جزءا
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

رقم الإيداع ٣٠٢٣
الترقيم الدولى ٧ ــ ٢٤٢ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

